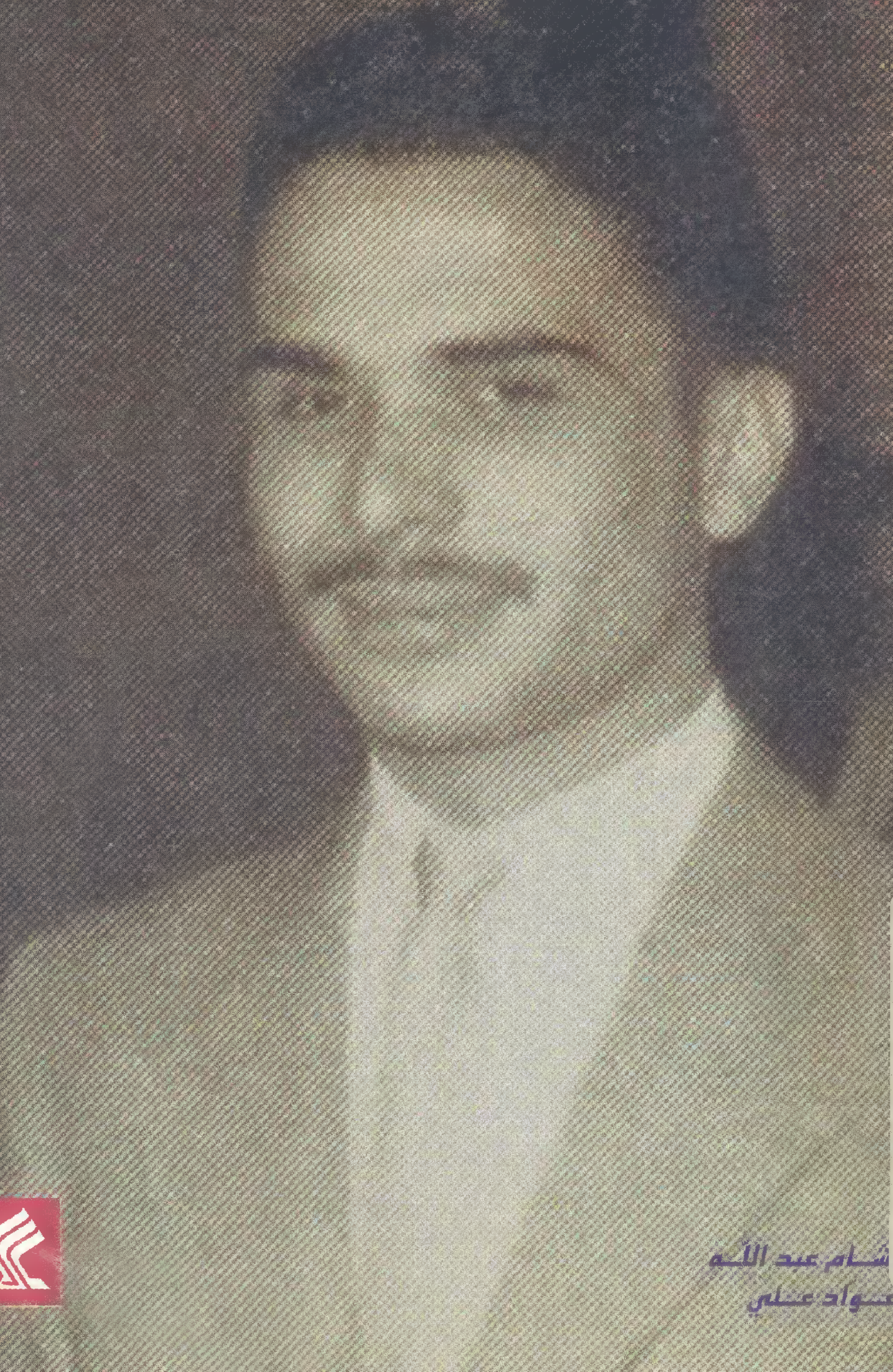
الحسين بن طلال

ليس سهلاً أن تكون ملكاً

سيرة ذاتية



الأهلية

...شام عبد الله
مراجعة: عواد علي

ليس سهلا أن تكون ملكا

الأهليّة للنشر والتوزيع

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان
وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن

ليس سهلاً أن تكون ملكاً / سيرة ذاتية
الحسين بن طلال / ملك الأردن
ترجمة : هشام عبد الله / الأردن
مراجعة : عوّاد علي / العراق

الطبعة العربيّة الأولى ، ١٩٩٩
حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب** / الأردن

الصف الضوئي : **ياقوت ، عمّان ، هاتف ٤٦٤١١٨٣**

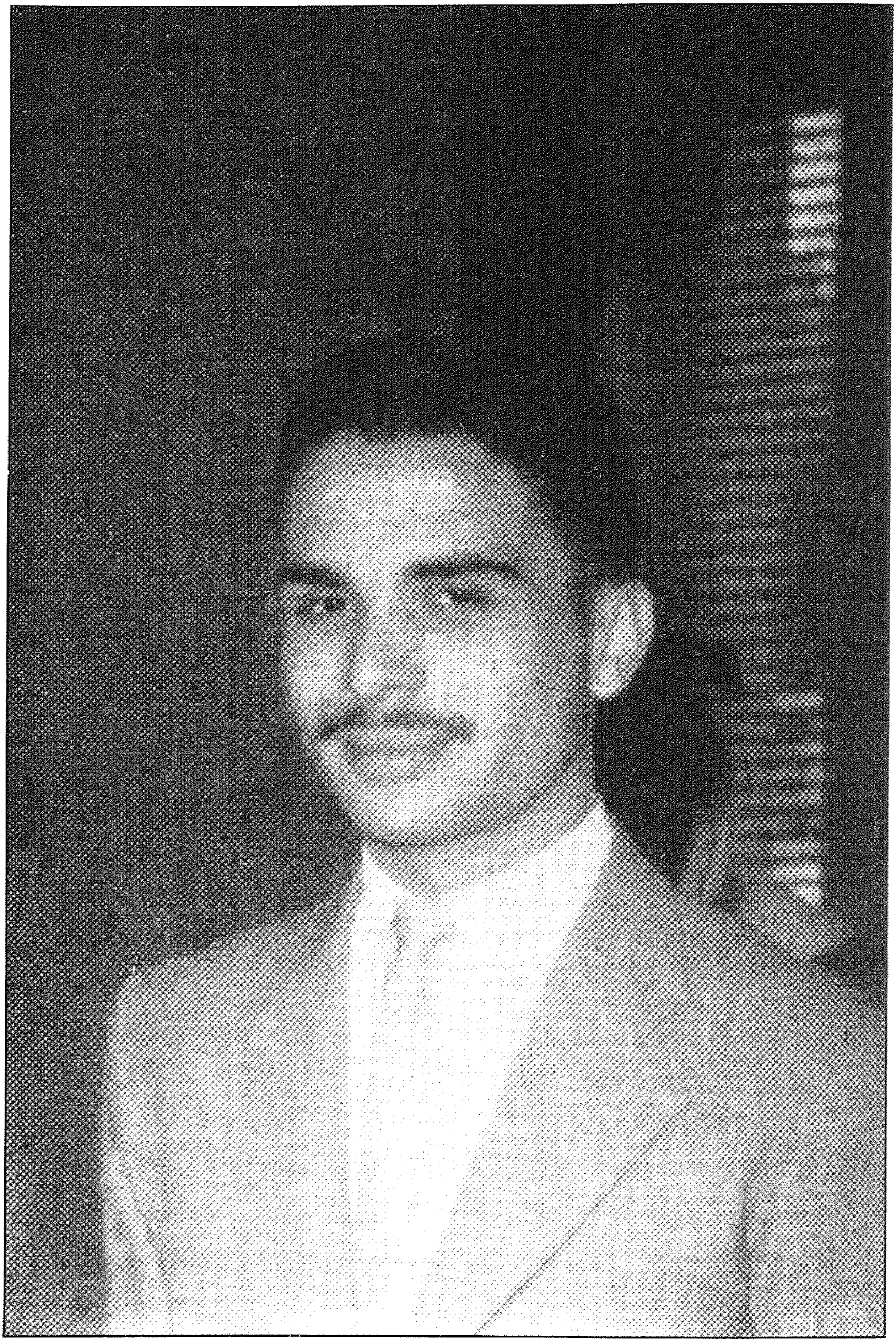
الحسين بن طلال

ليس سهلا أن تكون ملكا

سيرة ذاتية

ترجمة : هشام عبد الله
مراجعة : عواد علي

الأهلية



هــذه السيـرة

تتباين الدوافع لكتابة السيرة الذاتية ، فبعض كتّاب السير يعمد إلى توضيح جوانب حياته ، أو تسويغ بعض الأعمال التي قام بها . وقد تكتب بعض السير بوحي مشاعر الحنين إلى الماضي . وثمة سير ذاتية يكون هدفها كسب المال ، لأن أصحابها من المشاهير الذين يرغب الناس في الاطلاع على خفايا حياتهم .

وعلى الرغم من أن صاحب هذه السيرة - المغفور له جلالة الملك الحسين بن طلال (١٩٣٥ - ١٩٩٩م) طيب الله ثراه - من أبرز الشخصيات السياسية في القرن العشرين ، فإن هدفه الأساسي في كتابة هــذه السيرة الذاتيــة ، التي وصفها في الفصــل الأول بـ «المذكرات» ، لم يكن كسب المال ، لأنه في غنى عنه ، بل الكشف عن الكثير من الحقائق الخفيّة ، أو التي جرى تشويهها عمداً في وسائل الاعلام والكتابات المغرضة ، سواء في أثناء وقوعها أو لاحقاً ، والمتعلقة بجوانب من حياته الشخصية - إنساناً وملكاً - ومواقفه وانجازاته ، وبالأردن - بلداً وشعباً - وعلاقاته العربية والإقليمية والدولية ، خلال الحقبة الزمنية التي تغطيها السيرة (بدءاً من ولادة الملك عام ١٩٣٥ ، وانتهاءً بولادة نجله الملك عبد الله الثاني عام ١٩٦١) . وهي من أخطر الحقب التي واجهها الأردن ، لكثرة ما تعرض له من مؤامرات كانت تستهدف وجوده .

ولعل من أبرز ما تتميز به هذه السيرة صدقها ووضوحها وجرأتها ، وطابعها الأدبي الذي يضعها في مصاف الكثير من السير الذاتية التي كتبها أعلام الأدب والفكر في العالم ، من حيث براعة الأسلوب والتركيز والحبكة والتشويق ، وكأن كاتبها رجل تخطى سن الخمسين أو الستين ، لا في بداية شبابه (٢٦ عاماً حينما كتبها) . كما أنها - أي هذه السيرة - تكشف عن عمق ارتباط المغفور له الملك الحسين بالأردن - أرضاً وشعباً - وبأمته العربية ، وحبّه الصادق لهما ، وتضحياته الكبيرة من أجل رفعتهما وازدهارهما ، وايمانه العميق بالحريّة والديمقراطية ودفاعه المستميت عنهما مهما كلفه ذلك من ثمن .

وهو في كل ذلك إنما كان يستلهم مواقف جدّه المؤسس المغفور له الملك عبد الله بن الحسين الذي استشهد بين يديه عند بوابة المسجد الأقصى في القدس عام ١٩٥١ ، وكذلك مبادىء الثورة العربية الكبرى .

يبقى أن نشير إلى أن عنوان هذه السير «ليس سهلاً أن تكون ملكاً» ينطوي على دلالة تختزل تجربة رجل عظيم عانى كثيراً من أجل بناء بلده ، بما يمتلكه من شجاعة وحنكة وصبر وسماحة قلّ أن يتحلى بها زعيم دولة في العصر الحديث . كما أن لهذا العنوان ، على المستوى الفني والمستوى الانساني ، بعداً شاعرياً ، وكأنه عنوان لقصيدة أو رواية!

عواد علي

أُهـدي هــذا الكتــاب الى

شــعب الأردن

١

١٩٥١ - اغتيال جدّي

الحدث الاعمق أثراً على حياتي

حين كنت صبياً صغيراً ، اعتاد جدّي الملك عبد الله أن يقول لي بأن القدس هي احدى اجمل المدن في العالم . في الحقيقة ، أن حبه الاول كان للحجاز ، حيث ولد . وهي ذلك القطاع من الصحراء الجرداء الواقع شمال اليمن ، وتقع مكة ، الموطن الاول للسلام في وسطه . ومن الحجاز بدأ جدّي مسيرته صوب الشمال مؤذناً ببداية الثورة العربية الكبرى(او ،كما توصف بشكل أدق ، اليقظة العربية .)

الاّ أنه بمرور السنين واستقراره في الشمال ، وبعد أن جلب حكمه الرزين السلم والاستقلال للبلد الذي يعرف اليوم باسم الأردن ، تزايد حبه للقدس اكثر فاكثر . وقد كان شديد التدين ولم يكن في وسعه دخول المدينة من دون أن يحس بقيمتها الروحية . وكصبي صغير ، اعتدت أن اراها من خلال عينه . وقد شهدت مختلف المناطق فيها ، الاماكن المقدسة ، والاسوار القديمة ، والاسواق الضيقة المكتظة التي تحيط بطريق الآلام ، المآسي وحمامات الدم في زمانها . لكنها كانت أيضاً مكان ولادة الامل والايمان . وحين تشرق الشمس فوق القدس ويهب الهواء منعشاً عليلاً ، فإنها مدينة لانظير لها .

الأردن بحد ذاته بلد جميل . وهو أرض قفر ، فيه صحارٍ شاسعه يجوبها البدو ،لكن الجبال في الشمال مكسوة برداء أخضر ، والمنطقة التي يجري فيها نهر الأردن خصبة في الصيف وفي الشتاء . وللأردن جمال غريب أخاذ يعطي إحساساً بالخلود . وقد زين بأثار الامبرطوريات التي كانت في يوم من الأيام عظيمة ، وهو الملجأ الأخير للأمس في عالم الغد . وأنا أحب كل شبر فية . أحب عمان حيث ولدت ، والتي شاهدتها تكبر من مجرد بلدة صغيرة . وما زلت أحس بالرهبة و الاثارة في كل مرة تقع فيها عيناي على

مدينةالبتراء القديمة ، التي يمكن الوصول اليها من ممر ضيق للغاية بحيث يمكن لبضعة عشر نبطياً أن يصدوا جيشاً كاملا . وفوق كل ذلك ، أحس وكأني في بيتي حين أجلس في مضارب العشائر السوداء في الصحراء . الاّ أن قصتي بدأت في القدس الجميلة الوادعة .

كان يوم جمعة ، في العشرين من تموز / يوليو ١٩٥١ ، وكان يوماً حاراً بعض الشيء ، وكان اليوم الثاني من يومين قضيناهما أنا وجدّي في القدس . وفي ذلك اليوم ، في المسجد الأقصى قرب قبة الصخرة ، حدثت المأساة الأقسى من أي معلم والتي حولتني من فتى في السادسة عشرة من عمره الى رجل .

كان الجو مكفهراً طوال الاسبوع . فبغض النظر عن أي شيء آخر ، ترك أنتهاء الحرب الاسرائيلية العالم العربي برمته في حال ذهول وغضب وسخط . وكان في وسعي ، حتى في ذلك السن ، أن أشعر بالجو يتفاقم ويلف البلد ببطء وكأنه سحابة من الغاز السام . ففي يوم الاثنين الماضي ألهب اغتيال السياسي اللبناني العظيم ، رياض الصلح ، مشاعر أبناء شعبي . ولم يكن لمقتله أيةعلاقة بالجريمة التي ستتلو ،لكنها اقترفت في الأردن وكان لها تأثير عميق على البلد ، بحيث أنك كنت ترى ، عند كل زاوية شارع ، الوجوه المتجهمة والصمت المطبق الذي لا يقطعه سوى صرخات جدل حادة أو عنف مفاجيء يؤذن بأزمة . الحد الفاصل ما بين العقل والجنون .

كانت تلك أول جريمة من هذا النوع يعرفها الأردن . ولا يمكن مقارنتها بالأزمات التي تجاوزتها منذ تلك الحين ، إلا أنها كانت الأولى من نوعها . ولم يكن غضب الناس موجهاً الى رجل أو حزب سياسي معين ، بقدر ما كان موجهاً الى القوى المجهولة التي كدرت طريقتهم المسالمة في الحياة .

وأي بلد مسالم كان الأردن يوم كنت فتى صغيراً ! بلد سعيد ، قانع بأن يُترك وشأنه ، يعمل شعبة بكد ، يعبد الله ، ويطيع القوانين ، ولا يطلب شيئاً سوى حياة تنتهي بمنزل مبارك في الجنة . ثم فجأة يُقتل زائر جليل وسطنا وفي أثناء تمتعه بضيافتنا . وخلال أيام قليلة يجري أغتيال الملك ذاته .

لقد شعرت على الدوام أن مصر كانت مسؤولة الى حد بعيد، لاني كنت أعلم أن لجدي أعداء كثيرين هناك. كنت قد عدت قبل فترة وجيزة من المدرسة في مصر وشهدت بداية الحملة ضد جدي. وقد بدا لي أنها مؤامرة مدروسة لايقاع الفوضى في الأردن، لكن ليس بتحريض من الشعب المصري. لقد عشت معهم وعرفتهم. وتنبهت، حتى في ذلك السن المبكر، الى التمييز الطبقي الخبيث، وكان الهدوء الغريب المسيطر على الناس، ينذر بالانفجار. قد يقبل المصريون أية قيادة طائعين ـ لكن لفترة من الزمن فقط. ومن السهل حملهم على تغيير مواقفهم، وكما أكتشفت في أثناء دراستي، فإنهم لا يعرفون سوى القليل فعلاً عن العالم العربي. وقد قبلوا كلمات المتآمرين ضد الأردن من أن جدّي كان «انهزامياً» و «خائناً» لأن لا بد من وجود شخص يحمل وزر فشل رجال الدولة العرب الآخرين.

كانت المعارضة الداخلية تتصاعد في مصر. فلم يكن في وسعك إبقاء أمة في حال من سوء التغذية وسوء التعليم، كما كان يفعل معظم أثرياء مصر وحكامها القساة «بالفلاحين». وحين رأى من هم في موقع السلطة علامات الخطر تتصاعد، لجأوا الى الخدعه القديمة بالبحث عن كبش محرقة. وكان الأردن هو الخيار الأمثل. فقد تحمل الأردن، في الحرب مع أسرائيل، القسط الأعظم من القتال ومعظم اللوم، على الرغم من أن جدّي كان قد أنذر شعبه بما سيحدث قبل سنوات، فلم تكن تنبؤاتة السياسية جذابة، ومن ثم لم يحظ بشعبية دائماً لأنه كان يتنبأ بالحقيقة.

عند مناقشتنا مسألة زيارة القدس كان الاحساس بالخطر قوياً إلى درجة أن جدّي ـ وهو رجل ما كان ليهتم لإنذار لا مبرر له ـ بدا وكأن لديه احساساً بدنو الكارثة. فقبل ثلاثة أيام من بدء رحلتنا الى القدس كنا جالسين نتحدث بعد يوم عمل، التفت إليّ دون سبب واضح، وقال لي بصوته الرقيق: «أرجو أن تدرك، يا بني، أنك ستتولى المسؤولية. وكلي أمل في أن تبذل قصارى جهدك وتعمل على الا يضيع عملي هباءً. إني اتطلع اليك لتواصل العمل في خدمة شعبك.»

أذكر تلك اللحظة تماماً. كان جدّي بدوياً حميماً، أحب الصحراء إلى درجة أنه

نصب في الأرض المحيطة بقصره خياماً يقضي فيها بعض الوقت . وفي الامسيات حين يكون الجو لطيفاً ، كان يجلس متكئاً على مساند حريرية ، حيث يزوره الاصدقاء . وقد كنت أجلس الى جواره في احدى هذه الخيام ،كما كنت أفعل في أمسيات عدة مستمعاً الى نصائحه وحكمته ،حين وعدته وعداً قاطعاً بأن أفعل كما طلب . وقد كان وعداً قطعته على نفسي وأنا على علم تام بأن عليّ انجازه في يوم من الايام .

كان جدّي يتمتع بصحة ممتازة رغم بلوغة التاسعة والستين من العمر . وكان والدي ، رغم مرضه ، يبدي املاً كبيراً بالشفاء . وكانت كل الدلائل تشير الى أن سنوات عديدة ستمر قبل أن يتاح لوالدي تولي العرش ، وسنين كثيرة أخرى ، كما كنت آمل ، قبل أن أخلفه .

ورغم ذلك ، فبعد ثلاثة ايام ركعت الى جوار جدّي الميت في حين فرّ الكثيرون ممن كانوا حوله . وبعد عام من ذلك التاريخ ، أصبحت ملك الأردن ؛ وأني لآمل اليوم أن يكون في الوعد . الذي قطعته على نفسي في أيام جدّي الأخيرة ، من العزاء له بقدر ما منحني من قوة في كل ما بذلته من جهود منذ أن قبلت مشيئة الله ، ورغبة أبناء شعبي في أن أخدمهم .

طوال ذلك الاسبوع كانت ثمة نذر شؤم أخرى . ففي صبيحة يوم الأربعاء ـ قبل يوم من التوجه الى القدس ـ طلب سفير الولايات المتحدة التحدث الى جدّي .

قال لجدّي : «يا صاحب الجلالة ، هل لي أن اناشدكم الا تذهبوا الى القدس؟ لقد علمت أن ثمة محاولة للاعتداء على حياتكم . أرجوكم يا سيدي أن تغيروا خططكم .»

نظر اليه جدّي ملياً ، ثم قال : «أشكرك على تحذيرك ،لكن حتى لو كان الامر صحيحاً ، فسوف أذهب . فان حياتي هي ملك لشعبي ، ومكاني بينهم ، وسوف أموت حين يحين أجلي .»

استمرت الاستعدادات للزيارة طوال يوم الأربعاء . ولم تكن ثمة نّية في الاصل بان اشارك فيها ،لكن في المساء أرسل في طلبي ، وفي أثناء جلوسنا معاً ، قال لي : «هل تعلم ، لقد طلبت من أشخاص كثيرين الذهاب معي الى القدس غداً ، والغريب أن

بعضهم لا يريد الذهاب . يبدو انهم قلقون من أمر ما . لم اسمع قط هذا القدر من الاعذار الملفقة طوال حياتي! » ثم نظر اليّ مطولاً واضاف : « أتحب أن تأتي معي يا ولدي ؟ »

فرددت علية قائلاً : «أرغب بالتأكيد ، أنت تعلم ياسيدي ، أن حياتي لا تساوي شيئاً مقارنة بحياتك» .

ربما كان في كلمتي بعض المجاملة لكنني كنت أعني ذلك من كل قلبي . حدق جدّي في وجهي بهدوء ولم أضف أيةكلمة أخرى ، حين رأيت قطرات من الدمع في عينيه .

وهكذا ذهبنا الى القدس معاً . وقد بدأنا نهارنا مبكرين في يوم الجمعة ذاك ،حيث اننا كنا قد وعدنا بعض الاصدقاء في نابلس بزيارتهم قبل حضور الصلاة في القدس . تناولنا طعام الافطار مبكرين ، وحين حضرت الى مائدة الافطار كنت ارتدي بذلة عادية . فنظر إلي جدّي وسألني فجأة ؛ «لم انت غير مرتد لبزتك العسكرية؟»

لم يكن يوجد سبب يدعوني لارتدائها ، كما أن جدّي ، الذي يتسم ذوقه بالبساطة الشديدة ، ويمقت الاسراف في بهارج المنصب (خاصة في وقت الصلاة) ، لم يطلب مني مثل هذا الطلب من قبل .

لم يكن لي في الحقيقة ، سوى بزة واحدة . والتي كنت قد ارتديتها في اليوم السابق في أثناء تقليد أجنحة الطيران للدفعة الاولى من طياري سلاح الجو الاردني . وكانت بحاجة للكيّ . لذلك كنت قد أعددت العدة قبل الافطار لارسالها بالسيارة الى عمان مع بعض أغراضي الخاصة الأخرى .

«عليك أن ترتديها! » امرني جدّي بحزم .

أرسلت على عجل أمراً بأيقاف السيارة وإعادة بزتي على الفور . بعد تأخير بسيط أعيدت أليّ وتوجهنا بالسيارة الى نابلس ، وقد رفضنا هناك جميع الدعوات من الأصدقاء للبقاء في ذلك اليوم . وحين عدنا الى القدس كان ما زال لدينا بعض الوقت قبل موعد

الصلاة ، لذلك اجرى جدّي بعض اللقاءات الرسمية في المنزل الصغير المكون من حجرتي نوم ، الذي كنا نقيم فيه (وقد تحول اليوم الى متحف) .

كان من ضمن من قابلهم جدّي الجنرال كوك ، المعروف بأسم كوك باشا ، وهو القائد الجديد للفيلق العربي . وكان قد وصل للتو الى الأردن ، وقد سرني أن يطلب مني جدّي أن اترجم حديثهما ، خاصة حين قال جدّي لكوك باشا : «أنا فخور جداً بحفيدي ، وأنا أنوي أن أقلده وشاح المرافق العسكري الخاص غداً .»

لم يكن لدينا علم بأن غد جدّي لن يأتي قط . لكن ثمة رجلاً واحداً بيننا كان يعرف ذلك . كنت أقف قريباً من جدّي حين حضر ملتمساً لقاء جدي .

اسمه الدكتور موسى عبدالله الحسيني ، احد اقرباء المفتي الذي حصل على شهادته الجامعية من ألمانيا . انحنى امام جدّي ، ونظر في عينية ، وعبر عن ولائه له ، وتمنى له طول العمر والسعادة . وبعد ساعتين اغتيل جدّي ، وكان الحسيني ضالعاً في المؤامرة ، وقد أعدم فيما بعد .

بت أحس بالوحدة بعد صبيحة يوم الجمعة ذاك ، وكثيراً ما كنت اتساءل ما الذي يكمن خلف الابتسامات الرقيقة وعبارات الولاء الحارة التي عرفتها منذ ذلك الحين .

واني أتساءل اليوم ، وانا استعيد ذكريات السنين الماضية ، عما اذا كان لدى جدّي إحساساً داخلياً بالكارثة الوشيكة . فقد كان الجميع موضع ترحيب في منزلنا في القدس ، وقبل انطلاقنا الى المسجد تجمعت مجموعه من الأصدقاء وراح جدّي يخبرهم عن الرجال الذين رفضوا القدوم معه الى القدس .

«كانوا خائفين» ، قالها جدّي ثم اضاف بعض كلمات تنبؤية ما كنت لارددها لولا انها سمعت من قبل بضعة عشر رجلاً ما زالوا أحياء .كان يتحدث عن عدم أهمية الحياه او الموت .

قال : «حين يحضرني الموت فاني أفضل أن أموت برصاصة في الرأس تأتيني من شخص نكرة ، إنها أبسط طريقة للموت . وأنا أفضل ذلك على أن اصبح عجوزاً وعبئاً ثقيلاً .»

نظر أحدهم الى الساعة ، فنهض جدّي من مقعده ، لقد حان وقت الذهاب .

جلسنا معاً في السيارة ، وانطلقنا في طريقنا الى المسجد . كانت توجد احتياطات أمنية في كل مكان . جنود مسلمون يحرسون الشوارع ، وكان في وسعي رؤية الوجوه المتجهمة المريبة . وحين دخلنا البلدة القديمة وترجلنا من السيارة وبدأنا السير في أتجاه المسجد كان الوضع أسوأ . فقد كانت الحراسة من الكثافة إلى درجة اني أذكر باني التفت الى احد الضباط وسألته : «ما هذا ـ هل هو موكب جنازة ؟»

كنت أسير خلف جدّي ، مبتعداً عنه بضع خطوات الى يمينه . تحدث ببضع كلمات الى بعض المرافقين في الطريق ثم وصل الى باب المسجد ذاته ، حيث قام احد أفراد حرس الشرف بتقديم تحية السلاح .

كان جدّي قد تجاوز الباب حين رجع واخبر قائد الحرس أنه يعتقد أن من غير المناسب اجراء مراسم عسكرية تحت ضوضاء في مكان مقدس .

ثم استدار للدخول ، ولم يكد يخطو ثلاث خطوات داخلاً من الباب الرئيسي ، حتى خرج رجل من خلف الباب الكبير الذي الى يمينة . لم يكن يبدوا طبيعياً . كان يحمل مسدساً في يده ، وقبل أن يتمكن أحد من فعل أي شيء ، اطلق النار . لم يكن يبعد اكثر من مترين ، إلا أن جدّي لم يره قط . فقد اصيب في رأسه وسقط على الفور . وتدحرجت عمامته بعيداً .

يبدو أنني فقدت الشعور في تلك اللحظة . فخلال ثانيه بدت كأنها بلا نهاية ، تسمر القاتل في مكانه ؛ وبدا كأنة فقد كل القدرة على الحركة . عند قدمي تمددت رزمة بيضاء . لم ادرك ما حدث . ثم فجأه أستدار الرجل للهرب وحاولت أن أهاجمه حين اندفع الى داخل المسجد .

كنت قرب البوابة . وحين اندفعت صوبه رأيت من طرف عيني ـ غريب كيف يمكن للعقل والعين ملاحظة كل تلك التفاصيل في لحظات الاضطراب واليأس – أن معظم من يدعون انفسهم أصدقاء جدّي كانوا يفرون في كل اتجاه . اكاد اراهم الآن ، هؤلاء الرجال الوقورين ذوي المكانة العالية ، وقد تكوروا على انفسهم في عباءاتهم الفضفاضة وتفرقوا

وكأنهم عجائز محنية مرتعبة . تلك الصورة ، اكثر من وجه المجرم ، بقيت معي منذ ذلك الحين كتذكار دائم على مدى هشاشة الالتزام السياسي .

حدث كل ذلك في لمح البصر والمجرم مرتبك يندفع يمنة ويسرة . وبدأ اطلاق النار من كل زاوية في المسجد وفي النهاية حوصر الرجل . في تلك اللحظة لمحت وجهه ، رأيت اسنانه المكشوفة ، وعينيه الزائغتين . كان ما زال يحمل المسدس الاسود القصير في يده اليمنى ، ثم رأيته وكأني منوم مغناطيسياً يوجه مسدسه اليّ ـ حدث كل ذلك في جزء من الثانية ـ رأيت بعدها دخان المسدس ، وسمعت صوت الطلقة ثم ترنحت حين أحسست بوقع الصدمة على صدري . وتساءلت :«هل هذا هو الموت؟» انتظرت ـ لكن شيئاً لم يحدث ؛ لا شيء ، سوى معجزة . كنت أقف منحرفاً بزاوية ضئيلة عن الرجل حين اصابت رصاصته ـ كما اكتشفنا فيما بعد ـ وساماً معلقاً على صدري وارتدّت . لم أصب بأي أذى . ولا شك أن الحاح جدّي عليّ في أن ارتدي بزتي العسكرية قد أنقذ حياتي .

وبعد أن لقي المجرم مصيره المحتوم ، ومع استمرار اطلاق النار ، عدت الى جسد جدّي المسجّى . أحسست بدوار شديد وأنا اجثو على ركبتي الى جانبه ، ولم يكن في وسعي أن أفكر وأنا في سورة غضب ، سوى أن معظم من رباهم ، ومعظم من علمهم وساعدهم ، قد فروا من حوله .

فككت ازرار جبته وكان طبيبه يفحصه ، وأنا ارجو أن يكون ثمة بصيص أمل في أن يكون مازال حياً ، لكن كل شيء كان قد انتهى . فغطينا الجثمان بالجبة التي كانت بيضاء . وجعلنا من بساط نقالة حملناه عليه الى المستشفى . أردت ان أبقى ، لكن الطبيب الحّ عليّ بلطف أن أخرج من الغرفة ، وفي الغرفة المجاورة اعطوني حقنة ـ ضد الصدمة ، كما قيل لي .

لم أصدق كل ما حدث الا بعد أن انطقنا في الطريق الى مطار القدس .

فجأة أحسست بالوحدة ، وبأني وحيد جداً .

وقفت بعيداً عن الآخرين على ارض المطار ، فما الذي يستطيع من هم حولي أن

يقولوه في لحظة الكارثة تلك سوى كلمات العزاء التقليدية؟

كم تمنيت ، في أثناء وقوفي وحيداً على ارض المطار المعبدة ، لو ان والدي لم يكن يعالج من مرضه العقلي في سويسرا في وقت كهذا! لكن كان ذلك درسي الاول ، الاول من مرات عديدة تلت وقفت فيها منعزلاً وحيداً وسط رجالي .

حين أعاود التفكير في حياتي منذ ذلك اليوم ، اعلم أن الثمن الذي كان عليّ أن أدفعه ليس العمل الذي لا ينتهي والذي احبه ، وليس سوء الصحة الذي لازمني ، بل هو أعلى من ذلك بكثير . وهو انني قد امضيت فترة كبيرة من حياتي محاطاً برجال ، يلتفتون حولي ، ويحدثونني ، ويضاحكونني ، وأُحسد على العلاقات السعيدة غير المتكلفة ، اما في قرارة نفسي فقد كنت استشعر وحدة تماثل وحدة المنبوذين .

في أثناء وقوفي هناك ، مذهولاً مما حدث ، توقف رجل يرتدي بزة سلاح الجو ، تردد لحظة ثم اتجه إليّ ، كان له وجه متغضن لفحته الشمس مع اسنان قوية وشعر أغبر اللون . وقال لي بحياء شديد ولكنة اسكوتلندية واضحة :«تعال معي يا سيدي ، سوف أعتني بك أنا .»

قادني الى طائرة بمحركين ، وجعلني احشر نفسي في مقعد مساعد الطيار الى جانبه ، ثم ادار المحركات وحلق عائداً الى عمان .

كان ذلك الرجل قائد الجناح جوك دالجليش من سلاح الجو البريطاني ، لم يخطر ببالي ، في ذلك اليوم حين طويت صفحة من التاريخ ، ان دالغليش سيعلمني الطيران بعد سنتين ، واننا بعد سبع سنوات من ذلك التاريخ سنكافح ، انا ودالغليش ، في طائرة مشابهة لهذه الطائرة ، للنجاة بحياتنا من هجوم لطائرات عبد الناصر السورية .

في اليوم التالي ، حملت مسدساً للمرة الاولى في حياتي .

* * *

قررت أن ابدأ هذه المذكرات بحادثة اغتيال جدّي ، لأن له ، من بين جميع الرجال الذين عرفتهم ، أعمق الأثر على حياتي . وكذلك للطريقة التي مات فيها .

كثيرون كانوا يخشون جدّي ، لكن ليس أنا ، فقد احبني كثيراً ، وكنت أعرف ذلك ، وانا بدوري احببته إلى درجة معينة حين لم اعـــد اخاف من مظهره الخارجي الصارم ، واعتقد أنه كان يقدر ذلك . بالنسبة لي كان اكثر من جد ، اعتقد اني كنت بمثابة ابن بالنسبة له .

كنت بالطبع متعلقاً بوالدي ، وطوال السنوات الاولى من حياة اسرتنا عشنا حياة بسيطة ، لكنها سعيدة . فقد رعتني والدتي ، الملكة زين التي بقيت الى جانبي طوال حياتي وما زالت تعيش في عمان ، وأنا اكبر بحب وحنان . وهي امرأة رائعة ، وليست بارعة الجمال وحسب ، بل حكيمة ايضاً . وكان لحكمتها ، وشجاعتها ، ونصيحتها التي لا تخطىء ابداً ، وتشجيعها لي الدور الاكبر في حياتي . كانت الحياة بالنسبة لاسرتي أبعد من ان تكون سهلة . ومرت علينا اوقات كنا فيها فقراء جداً . فحتى العام ١٩٥٠ لم يكن والدي يتلقى من الدولة بصفته ولياً للعهد ، سوى ١٠٠٠جنيه إسترليني في السنة ، وكان أقل من ذلك بكثير قبل ذلك التاريخ . ولم يكن لأي منا ثروة خاصة .

حين كان عمري عاماً واحداً انجبت والدتي طفلة ماتت بعد شهر من ولادتها بسبب برد عمان القارص . وقد ماتت بسبب التهاب رئوي ، لانه لم يكن بامكاننا تحمل نفقات تركيب مرافق تدفئة جيدة لبيتنا الصغير . وما زلت اذكر حين كنت في زيارة ابن عمي فيصل في بغداد ، وانا طفل صغير ، ولعبي بلعبته التي على شكل دب ذي فراء ناعم . وكيف حزنت كثيراً حين عدت الى عمان من دونه . لكن ، في اليوم التالي اشترت أمي لي واحداً بعد ان باعت آخر قطعة من الحلي لديها .

طوال حياتي ، وفي الازمات التي كانت تتلاحق الواحدة تلو الاخرى ، كان تشجيعها يعطيني القوة . ومن المؤكد انه لولا صبر امي وتفانيها لما تمكن والدي من حكم الأردن ابداً ، حتى ولا للفترة القصيرة التي حكمها . ولولا تدخل ابي ، وامي الى جواره ، بعد اغتيال جدّي ، لربما كان الأردن قد تغير تماماً .

حين كنت فتى صغيراً ، كنا نسكن في جبل عمان ، وهو أحد تلال عمان السبعة ، في فيلا متواضعة مكونة من خمس غرف وحمام واحد ، مقامة على قطعة صغيرة من

الارض . وبدا لي ، في ذلك السن ، ان ابن عمي فيصل يسبح في عالم من الثراء الرائع . وأذكر انني حين زرت بغداد وانا في العاشرة من العمر اعطاني فيصل هدية وداع ، هي عبارة عن دراجة رائعة بريطانية الصنع . كانت تلمع وتلألأ وشعرت بانني لن امتلك اي شيء اجمل منها في حياتي . ولما حان موعد عودتنا الى عمان ، أُعدت الترتيبات لارسال الدراجة لي . وقد حافظت عليها جديدة تماماً لمدة أثني عشر شهراً . في الصباح ، وقبل الذهاب الى المدرسة ، كنت ألّمع كل سلك من دواليبها ، وفي نهاية العام كانت تبدو جديدة كما كانت يوم استلمتها .

ذات يوم جاءت امي اليّ وقالت :«اعلم أن هذا سيؤلمك» ، ثم حدقت في وجهي بحنان واردفت : «لكن وضعنا المالي صعب بعض الشيء ، وكي نتدبر امرنا ، فان علينا بيع بعض الأشياء ، فهل ستحزن يا ولدي العزيز لو بعنا دراجتك؟»

جاهدت لأحبس دموعي . يمكن بيع أي شيء ، لكن ليس الدراجة .

ثم حاولت أن تخفف عني : «انت تعلم أن عليك مواجهة خيبات الامل طوال حياتك ، كن شجاعاً ؛ ستنسى امر الدراجة ذات يوم وستقود سيارات كبيرة لامعة» .

وقد قدت تلك السيارات ، لكني لم أنس قط تلك الدراجة التي بيعت في اليوم التالي بخمسة جنيهات .

لا يؤذي المرء ان يكون فقيراً . فقد كان نمط حياتنا المتواضع يعني أن في وسعي أن أحيا حياةً طبيعية اكثر من الحياة التي عشتها فيما بعد ، وأن أقدر ايضاً قيمة النقود ، بحيث اعتقد الآن أنني استمتع اكثر باعطاء المحتاجين .

رغم اننا كنا فقراء ، حسب المقاييس الملكية ، فإننا كنا نعيش حياة سعيدة نسبياً . دخلت في حياتي سبع مدارس ، سواء في عمان او في الاسكندرية . واكثر ما احببت هو أن اكون بصحبة اولاد آخرين ، وأن أُعامل كما يعامل أي ولد آخر . ورغم أنه كان لي العديد من الاصدقاء ، فلم يكن لي أي صديق تربطني به علاقة وثيقة فعلاً .

ربما كان سبب ذلك انني غيرت المدارس مرات عديدة . فثمة قوى متعارضة كانت

تتجاذب مسألة تعليمي . فقد أكون مرتاحاً في احدى المدارس حين يقرر جدّي - وأقل ما يمكن أن يقال فيه انه ذو شخصية مستبدة - انني بحاجة الى دروس خاصة في الدين ، فأعود الى البيت لتلقي المزيد من الدروس الخاصة . وقد يقرر أبي اني بحاجة الى دروس في اللغة العربية فيكون لزاماً عليّ أن أغيرّ المدرسة مجدداً .

الا أنني تمكنت في النهاية من الذهاب الى مدرسة داخلية ، فانتسبت الى كلية فكتوريا في الاسكندرية . وهي مدرسة ممتازة لديها مجموعة رائعة من الدروس العربية والانجليزية . فانفتح امامي على الفور عالم جديد كامل - كرة القدم ، والكريكت ، والكتب ، والاصحاب . وما زالت عالقة في مخيلتي صورة قاعة النوم الاسبرطية الطويلة التي تقاسمتها مع ما يقارب ثلاثين طالباً آخرين ، وحمامات الماء البارد في الصباح كل يوم ، والقمصان الداخلية الرمادية وسترات الكلية الفضفاضة . وأتذكر ايضاً جلوسي في احدى الامسيات على حافة سريري ، بعد ان مزقت سترتي ، محاولاً ادخال خيط في إبرة استعرتها كي أقطب المزق ، لاني اعلم انه قد لا يكون في وسع والدي تحمل شراء سترة جديدة .

كان جدّي يساعد في دفع نفقات تعليمي ، والاّ لما كان في الامكان ارسالي الى هناك . قد يبدو غريباً أن اضطر لبيع دراجتي ، او أن اذهب للدراسة في مصر واكون مضطراً مع ذلك لأن أرفو جواربي ، لكن السبب بسيط للغاية . كان والدي يتلقى مبلغاً متواضعاً كمخصص سنوي ، ومع وجود عائلة كبيرة يعيلها اضافة الى ضرورة الحفاظ على مظهر لائق بولي العهد ، فقد كانت الحياة أبعد من أن تكون سهلة .

كان جدّي ، بوصفه ملكاً ، يتلقى مخصصاً سنوياً من الدولة - راتباً شهرياً إن اردتم - بالكاد يكفي لتغطية نفقاته . لكنه كان يساعد منه في دفع نفقات تعليمي ويساعدنا بطرق اخرى عديدة . لكن حين تصل المسألة الى نقود حقيقية كنا في اغلب الاحيان لا نجدها . ومن هنا نشأ هذا الوضع الشاذ ، حيث كنت ادرس في مدرسة ممتازة ، وفي الوقت نفسة ، بالكاد يكفي مصروفي الاسبوعي لشراء بضع ساندويشات .

أفادني هذا الوضع كثيراً ، ولا شك في أن عادة مراقبة كل فلس انفقة ، والتي

اكتسبتها في سن مبكرة ، قد شجعتني فيما بعد على أن أهتم بشكل خاص بمالية بلادي .

السنتان اللتان قضيتهما في كلية فكتوريا كانتا أسعد ايام حياتي . فاضافة الى الدروس المعتادة والرياضة تلقيت دروساً في اللغة العربية والدين ، واصبحت بارعاً في لعبة المبارزة بالسيف ، وهي المواضيع التي كان جدّي ينظر اليها اولاً عند تفحصه لتقاريري المدرسية . وخلال الفصل الأخير من دراستي في كلية فيكتوريا حصلت على ميدالية بالمبارزة وعلامات جيدة في الدراسة . وكان جدّي مسروراً الى درجة أنه منحني رتبة نقيب فخرية .

عند نهاية هاتين السنتين ، حين كنت في الخامسة عشرة والسادسة عشرة اصبحت قريباً من جدي ، وخاصة خلال العطلات الطويلة . وكانت العطلات في نظر جدّي تعني فرصة ذهبية للدراسة بجد أكثر ـ وتعليمي كيف أسير على خطاه .

كان جدّي شديد الاهتمام بما يدور حوله بكل ما في الكلمة من معنى ولا يطيق الرفض باستخفاف . وقد وصفه السير اليك كيركبرايد ، الوزير البريطاني لشرق الأردن ، ذات مرة ، بانه ملك في عينيه بريق . كان رجلاً اعتاد طرق العيش الصحراوية ، نشأ بين قبائل بدوية مولعة بالحرب ، والويل للعدو الذي يعبر من امامه . وكان يشعر ، حتى يوم وفاته ، انه قائد في الصراع من اجل استقلال العرب طوال عقد من الزمن ، لكن النصر النهائي سُلب منه بالنفاق والازدواجية . وكان اكثر من جندي . كان ديبلوماسياً ـ وذا كفاءة عالية في هذا المجال ، كما كان عالماً تقليدياً ، ينشد الشعر ويقرضه ، ويلعب الشطرنج كأستاذ متمكن .

كان شيخاً رائعاً ، شديداً ، وفي بعض الاحيان مستبداً ، حول شرق الأردن ، كما كانت تدعى في ذلك الحين ، الى بلد سعيد باسم ـ «البلد الوحيد في العالم ، الذي يمدح فيه الجميع دون استثناء ، الحكومة» ، كما قال صحفي اميركي لكلوب باشا .

كان والدي الملك طلال ، مختلفاً تماماً . كان من ألطف الرجال ، مهذباً ، وذا جاذبية خاصة ، كانت تدفعنا ونحن اطفال الى الجلوس عند قدميه والاستماع اليه وهو يروي

قصص المعجزات الواحدة تلو الاخرى . وقد اعطانا الحب الذي وحد عائلتنا الصغيرة فوائد روحية هائلة . كانت أستقامته مضرب المثل ، ولم اقابل شخصاً عرفه ولم يحبه . ولم يمنعه من تولي الحكم لفترة طويلة سوى مرض انفصام الشخصية الرهيب . وحتى خلال فترة حكمه القصيرة ، نجح في اصلاح العلاقات المتوترة بين الأردن وكل من المملكة العربية السعودية ومصر . ويعزى اليه الفضل في وضع دستورنا الجديد .

لكن الخلافات العائلية موجودة بين الملوك بقدر ما هي موجودة لدى رعاياهم ، وفي الحقيقة أن جدّي ووالدي لما يكونا على وفاق . فقد كان يفصل بين الاثنين الاختلاف في النشأة والاختلاف في السن . وفاقم الانتهازيون هذه الخلافات . والاسوأ من ذلك ، أن جدّي لم يدرك ، وحتى آخر يوم في حياته ، مدى عمق ما يعانيه والدي من آلام . ولم يستطع تصور كيف يمكن لرجل ان يكون في بعض الاحيان لطيفاً وحساساً . وفي احيان اخرى مريضاً جداً ، وان هذا الرجل ليس شخصاً تعوزه البراعة او دماثه الخلق . فقد كان جدّي يتمتع بالصحة والصلابة بحيث انه لم يقدر ماهية المرض . اما نحن في العائلة فقد كنا نعرف . لذلك رعينا والدي بالعطف والحب ، اما جدي الذي كان يعيش ، جزئياً ، بطولات الماضي ، فلم يره الاّ من الخارج . كان يريد ابناً بدوياً شجاعاً ومقداماً لحمل رسالة الثورة العربية ، ولم يكن قادراً على قبول شخص ضعيف بدل ما كان يحلم به . وكانت تلك أسوأ خيبات الامل في حياته .

اذكر حادثة توضح ماقلت ، وقد ترددت كثيراً قبل ان اسردها في هذه المذكرات ، فهي شخصية للغاية ؛ لكنني اعتقد انه لا بد من الاشارة اليها . كان ذلك يوم اغتيال السياسي اللبناني رياض الصلح ، وهو يوم الاثنين الذي سبق اغتيال جدي . حين قتل ضيفنا في سيارة جدّي ، وكان المرافق العسكري لجدّي معه في السيارة وقت الحادث . سمعت الخبر بعد ظهر ذلك اليوم فاسرعت بالذهاب الى القصر . ولم أر الملك عبد الله في مثل سورة الغضب تلك . كيف يقتل ضيف لنا في الأردن! ومع توارد المزيد من االتفاصيل كان غضب جدّي يزداد اكثر فاكثر ، وحين اندفع مرافق جدي العسكري ، االذي نجا من الموت ، داخلاً ، نظر اليه جدّي بازدراء وصرخ فيه :«كيف تجروء على البقاء حياً!»

وكان من المفروض أن يكون عمي الامير نايف (وهو الاخ غير الشقيق لوالدي) حاضراً . وفي لحظة حاسمة لم يكن موجوداً بين الحضور فصرخ فيّ جدّي قائلاً : أين عمك؟ إذهب وابحث عنه .»

أسرعت في الخروج باحثاً عنه . وبعد عدة دقائق اختفى عمي مرة أخرى . وأخذ الناس يتوافدون على القصر . فنظر جدّي حوله وصرخ :«لقد اختفى مرة اخرى! أين بالله عليك ذهب عمك؟»

هرعت للبحث عنه مرة اخرى . وحين خفّت حدة الازمة وبقيت وحيداً ، نظر اليّ جدّي بوجه مزقه الألم ، ووضع كفه على جبهته ، وأخذ يتأوه وكأنه يشكو الى الله :«هذه أقسى مصيبة اتعرض لها في حياتي . ابن مريض ، وآخر لا يستطيع ان يثبت في أزمة» .

حين اعود بنظري الى الوراء اليوم ، يمكنني أن ارى السبب في ذلك الحب الكبير الذي اسبغه جدّي عليّ ، كلما تقدم في السن واصبح اكثر تسامحاً ، وحتى نهاية حياته . فالاغلب انني كنت الابن الذي اراده دائماً .

ما ان بدأ يأخذ بيدي ، خاصة خلال العطلة المدرسية الاخيرة ، حتى اصبح اكثر شدة . كان يستيقظ عند الفجر دائماً - وهي عادة افادتني فيما بعد - لذلك كنت انهض من النوم في الساعة السادسة صباحاً في اغلب الايام ، فاغتسل بسرعة في دارتنا الصغيرة ، ثم اتوجه بالسيارة الى قصر الملك عند الساعة ٦,٣٠ صباحاً .

في القصر يكون كل شيء جاهزاً في انتظاري . حجزت احدى الغرف كقاعة لتدريسي . لكن كان على معلمي ان يقبع في المركز الثاني ، لان جدّي كان على الدوام يبدأ يوم عملنا بنفسه .

«الآن ، يا بني» - ثم يفتح مجلداً للغة العربية او كتاب دين - «سنبدأ من هذه الصفحة!» ثم يوجه نظرة صارمة الى المعلم ويقول : «تأكد من أن الامير قد حفظ درسه جيداً .» وبعد ساعتين من الدرس كان جدّي يحضر اليّ بنفسه او اذهب الى مكتبه لرؤيته . ويكون في ذلك الوقت قد انجز معظم عمله اليومي ويتوقع مني ان افعل الشيء ذاته . وكان جدّي خبيراً في معظم المناهج الدراسية التي اتابعها بحيث لم يكن في

وسعي خداعه . كنت في أحد الايام ادرس اللغة العربية على يد معلم اختاره جدّي لي ، حين دخل وكأنه مفتش المدرسة وبدأ في طرح الأسئلة عليّ ، ولما لم يكن راضياً عن اجاباتي ، انتهى الامر بفحص معارف المعلم بدلاً مني .

في بعض الايام كنا نتناول معاً افطاراً متواضعاً في نحو الساعة ٨,٣٠ ـ مكوناً من القهوة العربية الممزوجة بالهال او الشاي بالنعناع وبعض شرائح كعك الخبز من دون زبدة او مربى . لأن جدّي كان يعتقد ان المرء يعمل بشكل أفضل بمعدة نصف ممتلئة!

في مكتبه في القصر ، كان جدّي يكرمني بان يطلب مني العمل كمترجم له ، فرغم فهمه للانجليزية لم يكن يتكلمها . وقد احببت القيام بذلك ، لكن كان عليّ ان اكون في غاية الحذر . فهو ، ورغم انه لا يتكلم الانجليزية ، كثيراً ما كشف المترجم خلال المؤتمرات الدبلوماسية اذا ما غير كلمة ، فقد كانت له قدرة عجيبة على التقاط الكلمة الوحيدة التي جرى «تعديلها» . ورغم قيامي بالكثير من عمليات الترجمة له ، فلم يكشف لي غلطة قط .

في اغلب الايام ، كنت اعود الى القصر قبل صلاة العشاء واتناول طعام العشاء معه ، وعلى مائدة الطعام كنت استمع اليه وهو يتحدث عن مخاطر كون المرء ملكاً وعن دقة المهنة ومطباتها ، او اجلس في الاجتماعات مع الاعيان او اراقبه بشغف وهو يملي اوامره او يلعب الشطرنج ، الى ان يلتفت اليّ بعد فترة طويلة من حلول الظلام ، وهو يرى عيني الناعستين ويقول : «اذهب الى البيت يا ولدي . نم واستعد للغد .»

كان يسمح لي بان اصحبه في كل مكان ؛ وهو الذي علمني كيف افهم طريقة تفكير ابناء شعبي وتعقيدات العالم العربي الذي نعيش فيه . وعلمني كيف اتصرف بكياسة في المناسبات الرسمية ـ وربما لأنه كان يشعر بخيبة أمل كبيرة بسبب خداع البريطانين والفرنسيين له ـ كيف اتعامل مع الأمور في السراء والضراء . وقبل كل شيء علمني أن مهمة القائد الأولى هي أن يخدم .

وأتذكر أيضاً الطريقة المدمرة التي كان يسحق بها الناس حين يغضب . كان في احدى الأمسيات يتناول طعام العشاء مع ديبلوماسي ضيف حين تحول موضوع الحديث

الى المملكة العربية السعودية ، التي كان لجدّي خلافات شبه دائمة مع حكامها . وسأله الضيف إن لم يكن من الافضل لقضية الوحدة العربية تسوية النزاع معها .

فسأله جدي : «كم عمرك ؟»

«نحو خمسة واربعين عاماً ، سيدي ؟»

تزايدت نبرة السخرية في صوت جدّي وهو يسأل : «وكم كان عمرك حين نشبت الثورة العربية ؟»

فرد الضيف وقد شحب لونه : «اعتقد في نحو التاسعة .»

«في ذلك الحين ، كنت اقود الجيش الشرقي وأحرر العرب ، وتأتي أنت لتخبرني كيف أخدم القضية العربية!»

ياله من رجل مدهش! كان يمتلك كل انواع المواهب الخافية عن العالم . في صبيحة أحد الأيام ذهبت إليه مبكراً أكثر من المعتاد ملتمساً نصيحته ـ ولا بد أن الوقت كان قبل الساعة السابعة . دخلت الى غرفته للمرة الاولى ، كان لا يزال مستيقظاً في فراشه ، ولدهشتي رايت بعض المعدات العلمية التي كان يجري بها التجارب ، وقرب الجدار رأيت تشكيلة رائعة من الكتب العلمية .

كما كان يتمتع بروح دعابة رائعة . وكان يتعاطى السعوط ، وفي احد الايام وضع علبة السعوط الصغيرة في مكان بعيد . وحين احضرتها له دفعني الفضول العادي لصبي صغير الى تفحصها .

فنظر الي جدّي قائلاً :«تبدو مهتماً بالامر .»

لم أجب بشيء .

فخاطبني قائلاً :«من الافضل ان تجربه ،» وأخذ قبضة صغيرة شمها .

لم تكن لدي اي فكرة عن مدى قوة الصوت ، فاستنشقت نصف العلبة ، ولم أستطع التوقف عن العطس طوال ساعة كاملة ، كما لم يتوقف جدّي عن الضحك طوال تلك الساعة! كانت المحادثة بمثابة علاج لي ـ فلم أستخدم السعوط قط منذ تلك الحين .

صحيح أنني لم أكن أخاف منه ، لأنني كنت أحبه وأحترمه ، الا أن لدي سر . فعلى الرغم من أن عمري لم يتجاوز الخامسة عشرة ، دبرت أمري كي أتعلم قيادة السيارات ، كشفتها في بضع دروس اخذتها في وقت فراغي . لم أكن متأكداً من معرفة جدّي للامر ، وأتخيل أنه تظاهر بعدم معرفة ذلك . لكني كنت أخشى إن ذكرت له المسألة أن يعترض ، لذلك لم أخبره قط . ولم يكتشف سري إلاّ قبل فترة وجيزة من وفاته ، ففي أحد المرات قدت السيارة الى قصره لتناول الغداء واستدعيت للانصراف . وكنت عادة آخذ الاذن بالانصراف داخل القصر ، دون أن يرافقني جدّي الى الباب . خرجت في ذلك اليوم وأغلقت الباب خلفي وقفزت الى سيارتي . ولم أكد أبدأ في التحرك بالسيارة حتى ظهر جدّي . فتجمدت مكاني . ثم خرجت من السيارة واتجهت اليه .

قال :«أرى أنك ذاهب الى البيت ،»

فتمتمت قائلاً :«نعم ،سيدي .»

«حسناً ، تمهل ـ وانتبه» ، كان ذلك كل ما قاله .

قدت السيارة الى المنزل . ولم أكد اصل الى هناك حتى رن جرس الهاتف وكان المتحدث هو جدّي .

«اردت التأكد من وصولك بسلام ،» قال ذلك ثم أردف :«تصبح على خير .»

هذا هو الرجل الذي علمني الكثير ، والذي احبني كثيراً ، والذي أدين له باكثر مما أستطيع وصفه ، الرجل الذي جلس قبالتي في احدى الامسيات وقال لي :«تذكر ان أهم شيء في الحياة أن يكون لديك التصميم على العمل ، وأن تبذل قصارى جهدك ، بغض النظر عن العوائق والصعوبات التي تواجهك . عندها فقط تستطيع أن تتعايش مع نفسك ومع الله .»

الآن ، وقد بلغت السادسة عشرة ، وعلى عتبة حياة عليّ في يوم من الايام أن أجرب كل المبادىء التي علمني اياها وامارسها . وعلى الرغم من تأثيره العميق على حياتي كما

قلت سابقاً ، فقد علمني موته الدرس الاكبر .

البلاد العربية ليست مثل باقي البلدان . والايمان السائد فيها أن الحياة محدودة ، لذلك غالباً ما ينظر الى الموت باستخفاف . ومع ذلك كان موته اول عنف يمسني انا شخصياً ، تعلمت الكثير في ذلك اليوم ، رغم انني لم ادرك ذلك على الفور . اولاً ، تعلمت عدم اهمية الموت : وأنه حين يتحتم عليك أن تموت فسوف تموت ، لان ذلك قضاء الله ، ومن هذا الايمان عرفت سر تلك الطمأنينة الداخلية التي منحت لمن لا يخشون الموت .

اذا آمن المرء بهذا ، اذا آمن بالقضاء والقدر ، فسوف يدفعه ذلك الى بذل اقصى جهد خلال تلك الفترة القصيرة من العمر ، التي يمكن أن تنتهي بمثل السرعة التي انتهت بها حياة جدّي حين انطلقت تلك النفثة من الدخان من المسدس القاتل وضاعت في هواء القدس .

أومن أن عليّ أن احيا بشجاعة وبشكل جيد . أن أخدم وأن اتمسك بمبادئي العديدة ، بغض النظر عن أية صعوبات قد اواجهها ، بحيث أنه حين يحين اجلي ، اكون على الاقل ، قد بذلت قصارى جهدي .

لقد ساعدتني هذه المعتقدات ، الى حّد بعيد ، على تحمل فقدان جدّي ، وساعدتني بشكل جيد ، فيما بعد ، على تحمل الازمات والاخطار . ولا شك في أن وفاة جدّي هي التي جعلتني اكتشف فلسفتي في الحياة للمرة الأولى .

ثمة شيء آخر تعلمته . اذا كانت الحياة رخيصة فان الانسان ارخص ، لا يمكن لأي شيء أن ينزع من ذاكرتي مدى زيف الانسان كما رأيته في ذلك اليوم . فالتصرف الجبان الذي سلكه من يدعون انفسهم اصدقاء جدّي أصابني بخيبة أمل عميقة الى درجة أنه لم تعد لدي ادنى رغبة في أن أكون ملكاً للأردن ، وقد شعرت بالارتياح حين علمت أن والدي قد بدأ ، على ما يبدو ، يتعافى من مرضه في سويسرا . وكنت آمل أن اتمكن من العودة الى كلية فيكتوريا بعد عودته ، مبتعداً عن شهوة السلطة والجشع الذي تلى وفاة جدّي ، وصراع السياسيين الطامعين بفتات المناصب مثلهم في ذلك مثل أقارب تتآكلهم

شهوة المال وقد تحلقوا حول قارىء الوصية .

لم تكد تمضي بضع ساعات حتى بدأ السياسيون مكائدهم . كان ثمة من يتهامسون إن كان والدي في وضع يمكنه من خلافة جدّي على العرش؟ وكان ثمة آخرون يأملون في أن لا يتولى العرش قط لأنهم يريدون السلطة لانفسهم . ولأني كنت عديم الحيلة في تلك اللحظة ، فقد كنت مضطراً لمراقبة الطريقة التي يغير فيها اصدقاء جدّي تحالفاتهم من دون اي تفكير بالبلد . رأيت عمله العظيم يتعرض للخطر بسبب ضعف من كانوا قريبين منه ، والطريقة التي سمحوا فيها للانتهازيين بالتدخل حتى وإن كان ذلك يعني تدمير الأردن الصغير .

٢

١٩٥٢ - أمير في هارو

كنت تعيساً جداً في البداية

كان جدّي يريد لي الذهاب الى هارو ، لكنني نجحت قبل فترة قصيرة من وفاته في إقناعه أن من الافضل لي البقاء في كلية فيكتوريا ، حيث استقريت بشكل جيد جداً . وكنت قد قضيت فيها عامين تقريباً وعلى وشك الحصول على شهادتي الدراسية في صيف العام ١٩٥١ ، وارغب بشدة في النجاح . وبعد كثير من المناقشات وافق جدّي .

الاّ أنه ، وبعد اغتياله ، بذلك الشكل المفاجىء ، تغير كل شيء ، حيث ساد شعور بأن الموقف العدائي المصري تجاه الأردن قد لعب دوره في أزمة الأردن . وادى استمرار القاهرة في حملاتها ضد الأردن الى تدهور العلاقات بين البلدين . فكان مستحيلاً بالنسبة لي ، كولي للعهد ـ وقد اصبحت كذلك بشكل روتيني ـ أن اعود الى المدرسة في مصر . لذلك كان عليّ بدء كل شيء من جديد .

كان والدي ما زال في اوروبا ، وكان من الضروري أن ابقى في الأردن واتولى شؤون المملكة الى أن يصبح في امكانه العودة الى الأردن . ولم استطع تحمل الصراع الدائر حولي ، مناورات السياسيين من اجل الفوز بمناصب ، وجدلهم حول ما اذا كان من الواجب تنصيب ابي ملكاً ام لا . فشكلنا انا وخالي الشريف ناصر ، الذي عاد من العراق ، والشريف زيد ثلاثياً وركزنا على عقد لقاءات مع ابناء شعبنا . تجولنا في كافة انحاء البلد وقضينا ليال عديدة في الصحراء . كانت تجربة ممتعة ومفيدة للغاية .

عاد والدي بعد فترة ، وتوجهت انا بقلب حزين الى انجلترا الى مدرسة جديدة يقيم فيها فتيان لا اعرفهم(ما عدا ابن عمي فيصل) ، يلعبون الركبي بدلاً من كرة القدم ، وكان من المحتم أن تؤدي لغتهم الانجليزية العامية الى مضاعفة جهد التكيف مع نمط تعليمي جديد .

كانت المدرسة التي جرى اختيارها هي هارو . . وفي الحقيقة لم اكن سعيداً في البداية . ولا اعتقد أنني كنت مسؤولاً عن ذلك بالكامل . فقد كان لفظي للغة الانجليزية اسوأ بكثير مما تخيلت . فبعد سنتين من الدراسة في مدرسة انجليزية في مصر اكتشفت أن هارو تتحدث لغة مختلفة تماماً . في الاسكندرية كنا نتحدث الانجليزية بشكل ايقاعي وبتؤدة . اما في هارو فان الجميع يثرثرون بسرعة مضاعفة . وفي المناسبات القليلة التي كان زملائي في المدرسة يتعطفون بالحديث معي في الاسابيع الاولى من بدء الدراسة ، لم يكن في وسعي فهمهم في معظم الاوقات .

كان الوضع اسوأ في الصف . في الاسكندرية كان ادائي جيداً اما الآن فانني أبذل جهداً مضاعفاً . لكن العوائق كبيرة بحيث انني لا أستطيع حتى أن افهم دروسي بشكل مناسب . في الاسكندرية تركزت المواضيع الرئيسة التي ادرسها حول اللغة العربية ، وبات عليّ الآن أن «أفكر» باللغة الانجليزية . وكانت افضل مواضيع الدراسة ، بالنسبة لي في هارو ، التاريخ والادب الانجليزي . لكن الجهد الاضافي الذي بذلته في البداية ، في محاولة الفهم والتعلم ، كان عظيماً .

كنت في وضع غير متكافىء من الناحية النفسية ايضاً . فمعظم الصغار يتعلمون تدريجاً كيف يصبحوا طلبة في المدارس الخاصة . فالمدارس الاعدادية تعدهم ، وتتبع عملية الاعداد نمطاً واضحاً ومحدداً . ولم اكن أعرف شيئاً عن القواعد الصارمة والاعراف التي يتعامل بها الفتيان في هارو . وكنت ، وانا في سن السادسة عشرة ، اكثر سذاجة ، بالنسبة لهذه الامور ، من أصغر تلميذ مستجد . وعلى النقيض من ذلك ، كنت اكثر نضجاً من جميع الطلاب في المسائل غير الدراسية . وبفضل تدريس جدّي لي ، ومكانتي في وطني ، وما أمر به من مصاعب ، فقد كنت رجلاً بين فتيان .

وربما كان سبب عدم تقبل الطلاب لي على الفور هو الموقف الذي يتخذه جميع الاولاد تجاه القادمين الجدد . لذلك أحسست بقسوة الامر أكثر من الجميع لأن السادسة عشرة سن متأخرة لبدء المرء حياته في مدرسة خاصة . وأتخيل أنهم نظروا اليّ كشخص غريب الاطوار . قد يكون ذلك سبباً تافهاً مقارنة بأن يكون المرء وكأنه سمكة خارج الماء ،

الا أننا ، أنا وفيصل ، كنا الطالبين الوحيدين في هارو اللذين ليس لهما لقب . فطلبة المدارس الخاصة الانجليزية شديدو التمسك بالبروتكول (بشكل اكثر صرامة منا في قصورنا في عمان!) ولم يستطيعوا تعويد انفسهم على التحول من التخاطب باسماء مثل سميث الصغير وبراون الكبير الى «حسين» فقط من دون لقب ـ لذلك ، نادراً ما نادوا عليّ بأي لقب كان .

في خضم سعيي للاستقرار ، والتجول وحيداً في ردهات تلك المدرسة الرائعة ، ومحاولة التشبث «بمدرستي» ، والبحث عن ابتسامة صديقة وسط بحر من الوجوه في اثناء تناول الوجبات ، كنت احاول اكتشاف ما يفصلنا عن بعض . كانوا يبدون جميعاً واثقين من انفسهم ، وكان لكل واحد منهم شلته من الاصدقاء ، وفي الحقيقة ، بدا لي أن أكثرهم متعالون . وفي الاسابيع الاولى اقتصرت محادثتي معهم ، بشكل كامل تقريباً ، على«صباح الخير» و «مساء الخير» ، وكنت اشعر بانني محظوظ اذا اجابني اي واحد منهم .

حتى الطعام كان مختلفاً . رغم أنه لم يكن سيئاً حسب المقاييس العادية للمدارس الخاصة ، فقد كنت اتوق بين الحين والآخر لتذوق طبق عربي ، وشرب كوب من الشاي طعمه مثل طعم الشاي ، او قهوة طعمها مثل طعم القهوة . كانت بريطانيا ما تزال تعيش حالاً من تقنين الطعام الصارم . وكنا نحصل على الحلويات بالبطاقة ، واذكر انه كان يسمح لنا بالحصول على بيضة واحدة في الاسبوع .

لكن الشباب يتأقلمون بسرعة . الغريب أن أول شيء بدأت استمتع به هو هذا الطعام الذي كنت استخف به ، ثم أدركت فجأة مدى اعجابي بعادات تناول الطعام الانجليزية ، خاصة انتظام تقديم الوجبات ـ الافطار ، ثم وجبة خفيفة الساعة الحادية عشرة ، والغذاء ، ثم الشاي والعشاء . وفي احد الايام الرائعة رُفع التقنين عن الدراق المعلب ، فانقضضنا عليه . ولم ازل ، حتى يومنا هذا ، لا اتناول الدراق من دون أن اتذكر المعلبات التي اعتدت اخذها معي الى غرفتي كل مساء .

بدأت الامور تنحل من تلقاء نفسها ، ومن دون أن الحظ ذلك تقريباً . في يوم ابدو وحيداً ، وفي التالي محاطاً بالاصدقاء . كنت استمتع جداً بممارسة لعبة الركبي ، والعب

كظهير مساعد ، وما زلت أذكر الانفعال الذي احسست به ، في احد الايام ، حين قذف أحد الفتيان الكرة بتمريرة طويلة مخفضة وهو يصيح : «تحرك يا حسين! كلها لك» .

كان النظام السائد أن يكون لكل تلميذ كبير تلميذ صغير يخدمه . وقد تمكنت من الافلات من هذا النظام لانني عند وصولي كنت أكبر من أن أخدم كتلميذ صغير ، وأصغر من ان يكون لي تلميذ صغير كخادم .

لي غرفة صغيرة ، حفرت على احد جدرانها الاحرف الاولى من اسمي . كانت مكاناً صغيراً عجيباً ، يضم أعجب سرير رأيته في حياتي . كان مصنوعاً من الحبال وقماش القنب ، ويمكن ادخاله في الجدار خلال ساعات النهار ، وهكذا كنت اخفيه في الجدار بعد قيامي بترتيبه في الصباح ، واستخدم غرفتي للدراسة . اما الاثاث الاضافي الذي سمح لي بشرائه فكان طاولة خشبية صغيرة استخدمها للدراسة وسجادة صغيرة . وكان لدي ، عدا ذلك ، كرسي منجد بذراعين ، وخزانة صغيرة احفظ فيها ملابسي ، وتشكيلة من المعلبات لتعويض النقص في وجبات المدرسة .

كنت أنهض من النوم في نحو السابعة صباحاً وبعد «دش» من الماء البارد ، لم اكن أُحبه ، أرتب غرفتي ، وألمع حذائي ، وأتأكد من أن بنطالي مكوي بشكل جيد(كنت افعل ذلك بوضعه تحت فرشتي في كل ليلة .) كنت أعتني بمظهري على الدوام ، من دون تأنق زائد على ما اعتقد ، وكنت احب تلميع حذائي واشعر بسعادة بالغة في المحافظة على نظافة غرفتي . اعتقد أنني بدأت احيا ، من دون وعي مني ، الحياة التي كنت أتوق اليها ـ حياة رجل مستقل يشق طريقه الخاص ، أحببت التحدي ومعرفة أن النتائج مرهونة بي .

إضافة الى دروسنا العادية ، كنت أتلقى دروساً اضافية باللغة العربية ودورات في المبارزة بالسيف ، لأن جدّي كان يفخر دائماً بقدراتي في هذه الرياضة .

لكن ، وفوق كل شيء ، استمتعت بشيء غير مدرج في المنهج المدرسي ، حين اهداني صديق لوالدي سيارتي الاولى ، لونها ازرق سماوي من طراز روفر . كنت قد تعلمت قيادة السيارات في عمان ، لكنني لم أشعر بالقناعة قط ، لأني كنت أضطر دائماً الى استعارة سيارة العائلة . وأخيراً ، اصبح لدي سيارتي الخاصة . كان أول شيء فعلته

هو الحصول على رخصة قيادة . ورغم أن هذا قد يبدو سخيفاً ، فإنني لم اكن لاستطيع الحصول على رخصة قيادة في عمان ، لأن احداً لن يجروء على تحمل مسؤولية السماح لي بالقيادة . كانوا يعرفون انني أقود سيارات ، اما اعطائي الإذن فشيء آخر . في الحقيقة ، كان عليّ الذهاب الى بريطانيا للحصول على رخصة تخولني القيادة في الأردن! وحين عدت الى عمان ملكاً ، كنت احمل رخصة قيادة بريطانية .

أثار ايجاد مكان لمبيت السيارة مشكلة . فليس في الإمكان وضعها في مرآب المدرسة ، لكن بعد قضاء يوم في لندن ، اقترح عليّ السفير الأردني ، والذي كان يقود السيارة في طريق العودة الى المدرسة ، أن نبحث عن مرآب يكون قريباً من المدرسة بقدر الامكان .

وجدنا المرآب في مكان اسمه سدبري ، على بعد ميل تقريباً من المدرسة . وقابلت هناك ، للمرة الاولى ، موريس رينور ، الذي عمل في الأردن منذ ذلك الحين . كان رينور رجلاً شغفه الوحيد في الحياة هو السيارات . وكنت فتى يشاركه ذلك الشغف بالذات . وجد رينور ساحة صغيرة مقفلة بجانب المرآب الرئيسي الذي عين مديراً له . وسرعان ما اعتدت الذهاب الى سدبري في اوقات فراغي ، لمجرد الجلوس والثرثرة معه . بدأنا معاً في اختراع أفكار جديدة تجعل سيارتي الجميلة اكثر جاذبية . وضعنا بعض المصابيح الصغيرة في كل مكان تقريباً ، وركبنا تماثيل على شكل نسور على الجوانب كانت تضيء في الليل . وبلغ من حماسي انني كنت اتصل به هاتفياً حين لا اتمكن من الخروج ، او يأتي هو لزيارتي لنجلس ونتحدث عن السيارة .

حين حصلت على رخصة قيادة ، قلت لرينور : «انت خبير ؛ هل تعتقد حقاً أنك تستطيع القيادة أسرع مني؟»

جفل رينور وقال لي بشيء من الحذر : « سيدي ، صدقني انني لا أعرف .»

قلت :«دعنا نتبين الامر ، هيا أخرج الروفر .»

قدنا الروفر الى أن وجدنا طريقاً ممتداً غير بعيد عن سدبري . قدت السيارة من النقطة أ الى ب ، في حين قام رينور بتوقيت المدة بساعة توقيت . وحين وصلت الى

النقطة ب ، درنا بالسيارة وقمت بالتوقيت لرينور وهو يقود السيارة عائداً الى النقطة أ . وفزت انا!

كان ذلك بداية عشقي للسيارات السريعة ، وسرعان ما بدأت أفكر في السيارات الاكبر والاسرع . ثم واتاني الحظ . تلقيت هدية رائعة اخرى ، سيارة جميلة من طراز بريستول هذه المرة ، لونها كستنائي ـ وهو اللون المعروف باسم لون بريستول الاحمر ـ وكان في وسعها الانطلاق بسرعة ٩٠ ميلاً في الساعة بكل بساطة .

أصطحبت ابن عمي فيصل ذات مرة فيها ـ خلافاً للاوامر الصريحة . كنا نحن الاثنين «مختلفين» بعض الشيء عن باقي الطلاب وهذا ما قرب بعضنا لبعض ووثق عرى صداقتنا . لم يكن يُسمح للمرحوم فيصل ابداً بترك المدرسة بين الفصول . بدا لي ذلك ظلماً صارخاً ، لذلك قمت بتهريبه خارجاً وذهبنا في نزهة بالسيارة . كان يحب السيارات ، لكن والده قُتل في حادث ، وكانت السرعة ممنوعة منعاً باتاً حين يكون فيصل في السيارة . ومع أخذ ذلك بعين الاعتبار ، فكرت أن من الافضل الاّ أسوق السيارة بنفسي ، لذلك تركت رينور يقود السيارة وجلست مع فيصل وأبعدت عيني عن عداد السرعة ، التي وصلت رقماً أُفضّل أن أنساه ، يماثل سرعتنا حين تسابقنا على الطريق المستوي وتجاوزنا مطار نورثولت .

لم تقتصر الحياة في هارو على قيادة السيارات السريعة واكل الدراق المعلب . كان علينا أن ندرس بجد . لكن اكثر شيء اعجبني في هارو ، هو أنه رغم صرامة النظام في بعض النواحي ، كان يسمح للفتيان من سن ستة عشر عاماً بقدر كبير من الحرية شريطة الايسيئوا استخدامها . وأنا احبذ المدرسين الذين يسمحون للطلاب بتنظيم انفسهم ومنحهم فرصة اثبات انهم قادرون على التصرف كرجال . فاذا بذل طالب في هارو جهداً كبيراً في الدراسة وحقق تقدماً فانه يكتسب الحق في استخدام وقت فراغه كما يحب . ولا شك في أن هذا هو السبب في أن للمدارس الخاصة البريطانية ذلك التأثير الكبير في تكوين شخصية الطالب . وليس من قبيل الصدفة أن العديد من الزعماء البريطانيين قد تخرج من مدارس خاصة .

اما الجانب الاكاديمي من الدراسة في هارو فكان من اعلى المستويات ، وكنت اتلقى قدراً كبيراً من الاهتمام . وبنفس القدر من الاهمية يكن يُتوقع مني ، حقيقةً ، أن ادرس بجد وحسب ، بل أن اتقبل العقوبة ، وأن أواجه بشجاعه صعوبات الحياة . كان على صغار التلاميذ ، ومهما بلغ ثراؤهم ، أن يخدموا الطلاب الكبار . وكان على الطلاب الكبار أن يتعلموا التسامح في تعاملهم مع التلاميذ الصغار العاملين في خدمتهم . وهذا تدريب جيد . وكذلك الامر بالنسبة لحقيقة أن ثمة فرصاً متساوية لكل طالب في هارو . يدرس أخي الاصغر الآن في مدرستي القديمة . وانا أومن بشدة أن الاولاد الذين قد يرثون مسؤولية ما عليهم التعرف على مختلف أوجه الحياة . ولا أفهم كيف يمكن لحاكم ، في عصرنا هذا ، أن يحكم بلده ما لم يعرف عن شعبه شيئاً اكثر مما قد يعرفه من مستشاريه . كما لا يمكن للمرء أن يصبح ضابطاً جيداً ما لم يتدرج في الرتب ويفهم مشاكل الرجال الذين يقودهم ويتعاطف معها .

أنظر الى ايام دراستي في هارو على أنها من أهم فترات تدريبي على تحمل المسؤولية التي توليتها فيما بعد . واتذكر اليوم الكثيرين من زملاء الدراسة في هارو واعتبرهم اصدقاءً . وما زلت أحس باعتزاز عظيم لأني درست فيها . وكان من دواعي سروري حقاً ارتداء ربطة عنق كلية هارو ، وسوف أشعر بالغبطة على الدوام انني كنت في يوم من الايام طالباً في واحدة من اعظم المدارس في العالم .

إن كان لي من انتقاد على المدارس الخاصة البريطانية فهو الآتي : أعتقد أن الطريقة التي ينقطع فيها الطلاب عن العالم الخارجي في أوقات الدراسة تؤدي الى زيادة الحياء الطبيعي لديهم وتبعدهم كثيراً عن الحياة اليومية . فلا يمكنك توقع أن يعيش طالب في السادسة عشرة كراهب طوال عدة أشعر ، ثم يطلق سراحه ليخرج الى العالم لبضعة اسابيع ثم يعود الى الدير . الاقوياء فقط يمكنهم التغلب على هذه الحياة غير المتوازنة . لكن يوجد في المدرسة طلاب متوسطو القدرات ، كما أن ثمة قادة واعدين يمكنهم أن يفيدوا اذا جرى اعدادهم بشكل مناسب للمستقبل بدلاً من ابقائهم معزولين .

أعلم أنني كنت اتوق لتنفس العالم الحقيقي ، لا لأمتع نفسي بل للتخلص من عزلة هارو . وأعلم أن فيصلاً كان يحمل الشعور نفسه .

بعد تفكير ، اعتقد ايضاً أن ثمة الكثير من«تخشين» الطلاب في المدارس الخاصة

البريطانية ، يمكن أن يكون مرهقاً . أنا أومن بأن يعيش اليافعون حياه قاسية لتوعيتهم بما تخبئه لهم الايام فيما بعد ، لكنني اشعر بضرورة عدم المبالغة في ذلك .

المرة الوحيدة التي كنا أنا وفيصل نتمتع فيها بامتياز خاص كانت حين يقاطع ديبلوماسي زائر دروسنا . فكنا نُستدعى من الصف ـ وكم كنا نرحب بهذه الزيارات لانها تكسر روتين دراسة الفرنسية او الرياضيات !

في احدى المرات أفلتنا من الدروس حين قابلتنا مجموعة من الصحفيين المصريين . وكانت سفارتنا ترتب هذا النوع من اللقاءات ، وكنا نفعل كما يطلب منا (عن طيب خاطر) . وقد ذهب الصحفيون لمقابلة فيصل أولاً ، وساله احدهم إن كان لي لقب .

فرد فيصل : «بالتأكيد له لقب ، فالطلاب ينادونه (هوسي) .»

بعد ذلك حضر الصحفيون لمقابلتي . أخذتهم إلى غرفتي ، وأريتهم سريري الرائع (الذي اثار اهتمامهم بقدر ما أثار اهتمامي) ، ثم ألمح أحدهم : «سمعت أن الاولاد ينادونك بلقب «هوسي» » .

رددت : «هوسي؟ لم أسمع قط بهذا الاسم .»

قال آخر : «لكن هذا ما سمعناه .»

سألت : «من اخبركم ؟»

قال ثالث : «فيصل!»

«حقاً؟» ، مر بعض الاولاد في تلك اللحظة فصرخت عليهم قائلاً : «بماذا تنادونني؟»

فاجابوا جميعاً : «حسين .»

«وبماذا تنادون فيصلاً؟»

فرد احدهم : «فظ؟» (فز .)

واصبح «فظ» هو اسم الملك فيصل في احدى الصحف المصرية في اليوم التالي . أعتقد أن ليس من الحكمة اخبار باقي الطلاب عن معنى كلمة فظ .

الا أن معظم زوارنا كانوا من السلك الدبلوماسي . كنت قد اصبحت الآن وريثاً

للعرش ، لذلك كان مسؤولو الحكومة الأردنية يقومون بزيارتي في كل مرة يزورون فيها انجلترا . وكانوا يطلعوني دائماً على الحالة الصحية لوالدي ، وكان لدي في البداية أمل كبير في أن يشفى من مرضه العقلي .

كان في الحادية والاربعين ولديه الكثير مما يمكن أن يهبه لوطنه . ولد في مكة وتدرب في ساند هيرست ثم التحق الى الفيلق العربي برتبة ضابط في سلاح الفرسان . وعمل في بعض الفترات قاضياً في المحاكم العشائرية نائباً عن جدّي في فترات غيابه .

كم كان رائعاً لو أن صحته سمحت له بتولي الحكم فترة أطول ، لكن الاشارات التي كانت تظهر بين الحين والآخر اغرقتني في الشك . في احدى المرات استأذنت بالانصراف لفترة من الوقت لتلقي مكالمة هاتفية من عائلتي في عمان تسألني عما اذا كنت ساذهب للقائها في باريس . كان من الواضح أن الحالة الصحية لوالدي باتت مقلقة للغاية ، وكنت أعلم أنه لو حدث أي شيء فان عليّ أن أعود .

كرهت الفكرة . كنت أحب عائلتي ، وأحب بلدي ، لكنني شعرت أن مسؤولية قيادة الأردن وخدمته اكبر بكثير مما أستطيع حمله . في تلك الفترة لم اكن أريد أن أصبح ملكاً . ليس فقط لانني تحررت من الاوهام برؤية الطريقة التي تصرف بها الرجال تجاه موت جدّي وحسب ، بل لأنني ، وقبل كل شيء ، كنت أريد أن احيا حياة طبيعية قبل فوات الاوان .

انتهى الفصل الدراسي الصيفي في هارو ، ورغم أنني كنت قد بدأت أستمتع بالمدرسة ، فإنني كنت فرحاً بقدوم العطلة ، مثل اي طالب مدرسة آخر . وما أن تفرقنا حتى ذهبت الى فندق بوريفاج على بحيرة جنيف ، حيث كانت امي التي كانت تتلقى العلاج ، واخواي واختي ينتظرون لقائي . كانت الايام الاولى تبدو وكأننا في الجنة . وكان صيف العام ١٩٥٢ رائعاً ، وبدت احداث العالم بعيدة عن هذه الزاوية من العالم حيث يسير كل شيء بانتظام .

صبيحة يوم ١٢آب/ أغسطس خرجت أمي والآخرون للتسوق في شارع متفرع عن بلاس سان فرانسوا . وكنت وحيداً في غرفتي أنظر الى البجع في البحيرة ، وباخرة بيضاء تدخل الميناء حين سمعت طرقاً على الباب ، دخل أحد خدم الفندق يحمل طبقاً فضياً

عليه مغلف . لم أكن بحاجة لفتحه كي اعلم أن أيامي كطالب مدرسة قد ولت . فنظرة واحدة الى المغلف كانت كافية . فقد كان معنوناً الى«حضرة صاحب الجلالة ، الملك حسين» .

كانت الساعة ما زالت التاسعة صباحاً ، ولم يكن الدفء قد عم النهار بعد . تنهدت وفتحت المغلف . كانت الرسالة من رئيس الوزراء يعلمني فيها ، باللباقة الديبلوماسية المعتادة ، أنه يأسف لاعلامي أن والدي قد تنحى : اصبحت الآن ملك الأردن . ويعلمني بأن القرار قد اتخذه مجلسا الاعيان والنواب ، وأنهم يتوقعون حضوري الى الأردن باسرع ما يمكن . جاءت اللحظة التي كنت أخشاها . وانتهت حياتي كطالب مدرسة الى الابد . وهل سأحيا حياة شخص عادي بعد اليوم؟

كافح والدي للتغلب على مرضه العقلي بشجاعة ، ليس من أجل نفسه وحسب ، بل لأنه كان يعرف أن بلده بحاجة اليه . سرحت بخيالي من غرفة النوم التي كانت على طراز لويس كوينز واثاثها المتكلف ونوافذها الواسعه المطلة على مياه البحيرة الساكنة ، ووجدت نفسي في عمان ، المختلفة جداً ، ولون ارضها البني بدلاً من الاخضر ، وجبالها العالية ، والغبار يعصف في شوارعها ، والحشود المتناثرة من الناس . في وسعي تخيل الاضطراب في قصر بسمان حيث سأكون بعد وقت قصير . فجأة شعرت بالخجل من نفسي لأني انغمست في الرثاء لنفسي في حين أن والدي يعاني الآلام بعيداً .

من الصعب ادراك المأساة والحزن الكبير لما قد جرى في اليوم الذي سبق . لم اعلم بما جرى يوم ١١ آب الاّ فيما بعد . كنت اعرف في قرارة نفسي ـ كما عرف الجميع ـ بأن حال والدي العقلية هي من السوء بحيث لم يعد في وسعه حكم البلاد فترة أطول . لقد تفاقم مرض انفصام الشخصية لديه بشكل خطير خلال الاشهر الاثني عشر التي تولى خلالها العرش : لكن مثل أي زوجة وابن ، كنا أنا وأمي نأمل في أن يتحسن ، الى أن تبخرت الآمال . كانت شعبيته كملك هائلة ، لكن لابد أنه كان يعرف ، قبل عودته الى الأردن ، أن مستقبله موضع شك ، حيث بعث ببرقية الى رئيس الوزراء تقول ، «إني عائد الى بلدي لاضع نفسي تحت تصرفكم» ـ التمعن في البرقية يبين مدى اخلاصه ، ورنة الحزن فيها .

في صبيحة يوم ١١ آب اجتمع مجلسا النواب والاعيان في جلسة خاصة استمرت عشر ساعات ، وكان الملك يستريح في قصره . خاطب رئيس الوزراء ، توفيق باشا ابو الهدى ، المجلس بصوت متهدج أن والدي لم يعد قادراً على ممارسة سلطاته الدستورية ، وقال : «بقدر ما أكره أن أقول ذلك ، فاني اخشى الاّ فائدة من انتظار شفاء صاحب الجلالة من مرض انفصام الشخصية» . ثم عرض على مجلسي الاعيان والنواب تقارير عن حال والدي الصحية وضعها في وقت سابق اثنان من الاطباء الاجانب وتقارير اخرى وضعتها ثلاثة من الأطباء الأردنيين .

يشتمل دستورنا على بند ينص بشكل خاص على أنه في حال ما اذا اصبح اي ملك أردني عاجزاً عن ممارسة سلطاته بسبب مرض عقلي فان لمجلس الوزراء الحق في دعوة البرلمان الى الانعقاد . واذا تأكد مرضه العقلي فان للمجلس الحق في تنحية الملك ونقل الصلاحيات الملكية الى وريثه .

وكان ذلك ما حدث . جرى تبني قرار مجلس الوزراء وصوتت الاغلبية لصالح انهاء ولاية والدي . وهكذا ، اصبحت ملكاً على الأردن وانا في سن السابعة عشرة ، وبعد بضعة أشهر من ذهابي الى هارو . وحيث انني كنت اصغر من أن اكون ملكاً في اي شيء سوى الاسم ، فقد تشكل مجلس وصاية على العرش مكون من ثلاثة اشخاص .

ورغم ذلك ، كان عليّ أن اعود بسرعة الى عمان . وضعت المغلف في جيبي ونزلت درجات الفندق الى القاعة ثم الى سيارتي . ولم يستغرقني الامر سوى بضع دقائق للوصول الى بلاس سان فرانسوا في وسط المدينة ، حيث اوقفت سيارتي ، وبحثت في متجر او متجرين الى أن وجدت والدتي .

ناولتها البرقية قائلاً : «لقد وصلت .»

وضعت ذراعها على كتفي وعادت معي الى الفندق . جلست امام منضدة الكتابة الفرنسية الطراز ودبجت برقية الى رئيس الوزراء أُعلمه فيها أنني سأعود في اسرع وقت ممكن ، وأنه يسرني ويشرفني أن اخدم بلدي والعالم العربي بكل ما أوتيت من إمكانات .

وفي غضون ايام ودعت اوروبا وعدت الى عمان .

٣

١٩٥٢ - ملك في ساندهيرست

مرة واحدة فقط عوقبت بالحجز في الثكنة

طرت عائداً الى عمان في طائرة الخطوط الجوية البريطانية عبر البحار . متعجلاً الوصول بعد الانباء عن تنازل والدي عن العرش . وحين لامست عجلات الطائرة مدرج مطار المفرق ، لم اكن أعرف ما ينتظرني من حياتي الجديدة . كنت قد غادرت الأردن اميراً ، وها أنا اعود اليها ملكاً .

كان مساءً قائظاً تجمهر فيه العديد من المسؤولين لاستقبالي . استعرضت حرس الشرف وصافحت العشرات من كبار الشخصيات . واذكر رؤية غلوب باشا قائد الفيلق العربي واقفاً هناك يداعب حبات سبحته .

كان ذلك هو الترحيب الرسمي بعودتي الى الوطن ، وكان استقبالاً حاراً وصادقاً ، رغم سيطرة البروتوكول والرسميات عليه . فكرت ونحن نسير بتؤدة ناحية السيارات المنتظرة : «هكذا سيكون الحال على الدوام ، أنا الآن ملك ، ولن يكون في استطاعة الناس التحلل من الرسميات» . لكنني اتذكر أيضاً اني قلت لنفسي : «لا بأس ، ساقوم بمحاولة جادة لجعلهم يتحللون من الرسميات .»

حين استدارت السيارة الملكية للخروج من المطار ، الذي كانت تحيط به حراسة مشددة ، واتجهنا الى عمان ، حدث شيء ، فرغم اصطفاف جنود الفيلق العربي على جانبي الشارع ، وجدت نفسي فجأة وسط حشود هائجة من الناس يرقصون ويهتفون : «يعيش الحسين! اهلاً بالحسين!» لم يكونوا يعرفون شيئاً عن البروتوكول او الكياسة الديبلوماسية . حاول بعضهم إيقاف السيارة بتسلق العتابات على جانبي السيارة . وحين رأى الجنود انعدام حيلتهم في الحفاظ على النظام ، انضموا الى الزفة ، وكان استقبالاً رائعاً .

بدت لوزان وانجلترا بعيدتين جداً عن البيوت الحجرية ذات اللون البني الباهت والصحراء الممتدة على مدى الافق . في أثناء الرحلة بالطائرة شعرت بالوحدة والاكتئاب ، لكن تبخر كل ما توقعته من تعاسة وأنا جالس في السيارة المتجهة الى قصر بسمان ، ولم استطع تفسير السبب ، و رغم ان الهتافات اثارتني فانني لم أكن في ذلك الحين ، متمكناً من فهم نفسية الجماهير كما افهمها اليوم . ومنذ ذلك اليوم اصبح لدي الكثير من الخبرة في الجماهير - الجيد منها والسيء - وبات بوسعي وبشكل غريزي الحكم على مزاج حشود الناس بسرعة . لم ادرك ، في ذلك اليوم ، أن الناس لم يكونوا يهتفون وحسب ، بل كانوا يبعثون بموجات من التعاطف والتشجيع لفتى في السابعة عشرة من عمره اصبح ، على حين غرة ، ملكاً . كان شعوراً غريباً مبهجاً معرفة أن مواطنيّ كانوا يشاركوني فرحة ذلك اليوم باكثر من مجرد التصفيق .

الى جواري جلس رئيس الوزراء وحين استدرنا لصعود التل المتجه الى القصر الحت قائلاً : «لا يمكن لاي شخص ان يستقبل مثل هذا الاستقبال الا أن ينذر نفسه امام الله بأن يفعل أي شيء ليبرر ثقتهم وارجوا أن يدرك الناس أني سافعل هذا .»

رغم ان رحلتي من لوزان كانت مرهقة من الناحية البدنية والذهنية ، فقد آويت الى سريري في تلك الليلة وأنا في غاية السعادة ، واستيقظت في الوم التالي منتعشاً ومتحمساً لمواجهة المشاكل التي ستطرح امامي .

لم اعرف ما هية واجباتي الآنية ، لان عليّ الانتظار بضعة اشهر قبل تولي سلطاتي الدستورية في سن التاسعة عشرة (في الواقع ، قبل الثامنة عشرة بقليل ،حيث أن سني حدد بموجب التقويم العربي .) وسيواصل مجلس الوصاية الحكم خلال الاشهر الباقية ، فقررت الافادة من هذه الفترة بالتعرف بشكل أفضل على شعبي والتغلب على التعقيدات التقنية لحياتي الجديدة .

في البداية ، حدث ما يأتي بالضبط . كي أتقرب من مواطنيي قمت بجولة مدتها ثلاثة اسابيع زرت خلالها جميع المدن الكبرى والعديد من القرى . قابلت الالوف من الأردنيين . كنت اسافر بالطائرة في بعض الاحيان ، واحياناً بالسيارة ، الى أبعد زاوية في المملكة . وكم كانت تجربة بهيجة ان يرى المرء بنفسه مدى حب

الشعب ، الذي شكل العمود الفقري للأردن ، لملكة وبلده .

في احد مضارب البدو التي زرتها ، حيث قدمت المناسف ، رقص المئات من ابناء العشيرة واطلقوا نيران بنادقهم في الهواء وأجبروني على مشاركتهم الرقص . في اثناء وقوفي هناك ، بين المضارب البنية اللون التي يختلط لونها بلون الصحراء ، قلت لنفسي : «إن كان هناك رجال مثل هؤلاء ، فسيبقى الأردن على الدوام بخير .»

لكن ماذا بعد انتهاء الجولة؟ أنا شخص كثير الحركة ولا اطيق القعود . فماذا سافعل؟ ما حدث كان أحد الاشياء التي طالما حلمت بها ، لكني لم اعتقد انه سيتحقق في يوم من الايام .

في صبيحة احد الايام ، جاء اليّ خالي الشريف ناصر ورئيس الوزراء . تحدثنا في البداية عن عدد من الامور غير المهمة . واحضر الخدم اكواب صغيرة من الشاي المحلى وبها اوراق من النعناع طافية على الوجه . عندما التفت اليّ خالي وهو رجل عطوف حكيم ، وقف الى جانبي طوال مدة حكمي ، وقال : «هل تعتقد يا صاحب الجلالة أنك تستخدم وقتك بشيء مفيد اذا بقيت هنا حتى موعد تتويجك؟»

فسألته : « هل تقترح لي شيئاً افضل أعمله؟»

فاجاب : « نعم لدي ما أقترحه ، شيء أفضل بكثير . شيء أعرف ان والدك كان يحب أن تفعله ـ وشيء كان جدك سيتمناه لك لو كان حياً .»

ادركت فجأة ما يقصده خالي ، احسست قلبي يقفز بين ضلوعي .

هتفت : «تقصد ساندهيرست؟»

هز خالي رأسه وقال : « ولم لا؟ والدك ذهب الى ساندهيرست . وأتذكر قوله لي ان ساندهيرست هي اعظم اكاديمية عسكرية في العالم ، وافضل مكان للرجل كي يتعلم كيف يصبح ملكاً .»

عدت بذهني الى يوم مضى قبل سنوات عديدة . كنت العب بتماثيل لجنود على سجادة مبسوطة امام المدفأة حين التفت اليّ والدي وقال : « لا يمكن لاي رجل ان يحكم

بلداً من دون نظام . ولا يمكن لأي شخص ان يصبح جندياً جيداً من دون نظام . وليس ثمة مكان في العالم يتعلم فيه الرجال النظام مثل ساندهيرست .»

يا للفرصة الرائعة! رغم استعدادي لفعل أي شيء تطلبه بلادي ، فان قبولي كان مفاجئاً للغاية ، فقد كنت صغير السن ، وكان فرحي مضاعفاً لفكرة أنني ساعيش فترة أطول قليلاً كشخص عادي . كانت مهلة اضافية ، فرصة اتنشق فيها الهواء . وفي سن السابعة عشرة ، فإن الستة أشهر مدة طويلة .

تابع رئيس الوزراء والجنرال غلوب التفاصيل ورتبوا مع وزارة الحرب البريطانية امر متابعتي لدروة خاصة مختصرة ، تضغط المنهج العادي في ستة اشهر . وبعد شهر تقريباً من تلقي البرقية التي تنادي بي ملكاً في لوزان ، تغير لقبي الملكي ليصبح مرشح الضباط الملك حسين في الاكاديمية العسكرية الملكية ، ساندهيرست . كان ذلك يوم ١٩ أيلول /سبتمبر ١٩٥٢ . واذكر انه خصصت لي الغرفة ١٠٩ ، سرية انكرمان ، الكلية القديمة .

عالم جديد تفتح امامي في ساندهيرست . حين أعود بذاكرتي الى تلك الايام الخالية من الهموم (خالية من الهموم إن لم اخالف النظام) ، أرى أنها ، ومن نواحٍ عدة ، أكثر ايام حياتي أثراً في صقل شخصيتي . فثمة فارق كبير ما بين ساندهيرست وهارو . لقد احببت هارو ، لكنني عوملت فيها وكأنني صبي صغير . اما في ساندهيرست فقد عوملت كرجل ـ كرجل عادي . وأُعطيت مسؤوليات وكنت موضوع ثقة . وكان عليّ أن أدرس بجد ، كما أن دروسي هنا أكثر إمتاعاً مما في هارو . نحن العرب من عرق عسكري ، وربما لهذا السبب تحملت بسهولة خشونة حياة طلبة الكلية الحربية . احببت النظام والتدريب العسكري والاجواء السائدة في ساندهيرست .

في يومي الاول هناك ، رحب بي قائد الكلية ، والقى عليّ محاضرة قصيرة عن التقاليد المتبعة في ساندهيرست ، وأعرب عن أمله في ان أفيد منها . ثم حدق في عيني وقال : « أود ان أعطيك أحد خيارين ، ساندهيرست مكان يحتاج لخشونة . وعلى الرجال الذين يحضرون الى هنا ان يعملوا بجد ـ ربما اكثر من اي مكان أخر في العالم . فالحياة

شاقة وصعبة ، وتحتاج الى رصيد كبير من القوة وقوة الارادة . هل تعتقد أن في وسعك تحمل ذلك - أم تفضل متابعة دورة خاصة ليس فيها الخشونة والحركات التي نعطيها لبقية مرشحي الضباط؟ على أنك اذا أخترت الطريق الصعب ، فسوف تعامل مثل أي شخص عادي .»

اخترت ، بالطبع ، الطريق الصعب . فلم أحلم بأي شيء آخر ، حيث كنت مصمماً على الاستفادة بأكبر قدر ممكن من هذه الفرصة التي أرسلتها لي السماء . ونظراً لقصر مدة دورتي كان عليّ أن اقضي فترات أطول في التمرين والسير . وشاركت في هجمات ليلية سرنا فيها عبر اراضٍ وعرة ، وتعلمت اطلاق النار من الاسلحة الحديثة ، وبذلت غاية جهدي لفهم أساسيات العلوم العسكرية .

بعد مرور اكثر من شهرين على أول يوم لي أُستدعيت الى مكتب القائد . كانت الساعة العاشرة والنصف صباحاً . وحيث انني قد اندمجت في حياة ساندهيرست (والتي تعني المتعة اضافة الى العمل) وروحها ، كان أول ما تبادر الى ذهني : «يا الهي! ماذا فعلت؟» لم اتأكد مما تعنيه التلميحات المكتومة التي أشار بها زملائي الطلاب .

دخلت بعصبية والقيت التحية . بدا لي متجهماً ، لكن ربما كان مشغول الذهن بامر ما ، لانه نظر اليّ فجأة وقال : «حسين ، انا سعيد بأدائك هنا . كنت اراقبك ، واعتقد انه حان الوقت لترقيتك الى رتبة تلميذ مرشح متوسط . اذا واصلت العمل بهذه الطريقة فسوف ترقى بعد شهرين وتصبح'طالباً في صف التخرج . حافظ على مستواك ، فانت تقوم بعمل جيد .»

واصلت العمل بجد ، ورغم أني كنت استمتع كثيراً بوجودي في ساندهيرست - وأي طالب لم يكن يستمع بوجوده؟- كنت أحس ، في قرارة نفسي ، أن ثمة فارق واحد بيني وبين باقي الطلبة العسكريين . فقد يرفعوا ليصبحوا ضباطاً ، وربما جنرالات ، لكنني سرعان ما أصبح القائد الاعلى لجميع القوات المسلحة في بلدي ، وكنت مصمماً على تعلم اكبر قدر ممكن عن المسائل العسكرية بحيث لا يكون في وسع أي رجل في الفيلق العربي أن يخدعني ، في الاقل الا يخدعني بسهولة .

كما عرفت أن انضباط ساندهيرست لا يساوي شيئاً مقارنة بالانضباط الذاتي الذي ساحتاجه للحفاظ على عرشي في السنوات القادمة . لقد رأيت في أوروبا ، رغم اني لم اتجاوز السابعة عشرة ، ما يكفي لأعرف أن ملاعبها ملأى بالملوك السابقين ، وأن بعضهم فقد عرشه لأنه لم يدرك أن واجبات الملك تستوعب وقته كله ، ولن اصبح عضواً دائماً في حفلات السباحة في جنوب فرنسا .

الشيء المدهش في أكاديمية ساندهيرست هو ، انه رغم صرامه النظام وضرورة أن يعمل المرء بجد ، فما أن يخرج مرشح الضباط في اجازة حتى ينسى كل شيء عنه . ولم يكن مثل هذا الاسترخاء ممكناً حين توليت العرش ، فلم يكن في وسعي كملك أخذ اجازة . اما في ساندهيرست ، فما أن تبدأ فترة الاجازة ، حتى أنسى كل القلق والهموم الى أن أعود من اجازتي .

بعض اجازاتي القصيرة كانت شبه رسمية ، كانت تقدم لي خلالها تسهيلات خاصة لأطلع على العالم الخارجي ، تكون في بعض الاحيان مربكة للغاية ، كما حدث حين وجدت نفسي اجلس الى يسار قاض في« اولد بالي» . وقد سرني أن احظى بهذا الفرصة للاطلاع على العدالة البريطانية في اثناء عملها ، فجلست وراقبت ما يحدث باهتمام .

كان الجو مشحوناً بهيبة القانون عند بدء النظر في القضية . كان القاضي متجهماً للغاية ،لكنه كان يلتفت اليّ بلطف بين الحين والآخر لشرح بعض النقاط القانونية الصعبة . سار كل شيء على ما يرام الى أن وصلت القضية الى اللحظة الحاسمة ، وكان في وسع المرء الاحساس بالتوتر؟ ثم ومن دون سابق إنذار ، مزق الصمت المطبق رنين حاد من ساعة منبه .

استرقت نظرة خاطفة الى القاضي ، ورأيت وجهه المذهول والمستنكر تحت شعره المستعار . وبدا المحامون وكأنما اصابتهم صاعقة . وحيث بدا واضحاً المكان الذي انطلق منه الرنين ، فقد توجهت كل العيون الى ملك الأردن .

تمتمت باعتذار للقاضي ، وبيدي اليمنى حاولت بعصبية أن اوقف منبه الساعة التي

اعتبرها أثمن مقتنياتي ، وهي ساعه يد مع منبه . وحين أعاد القاضي النظام للقاعة ، نظرت خلسة الى الساعة . كنت اضبطها دائماً على وقت استيقاضي . فلماذا ترن الآن والساعة ١١,٣٠ ظهراً ؟

كان بعض الطلاب يعرف ، بالطبع ، بأني سأذهب الى«اولد بالي» فقام بضبط الساعة على ذلك الشكل بعد ان تسلل الى غرفتي في أثناء استحمامي . وكان عليّ أن انتظر كي أخذ بثأري . وجرى ذلك على الشكل الآتي : كان لدى جميع الطلاب دراجات مستأجرة او مخصصة لنا ، كنا نستخدمها للانتقال من صف الى آخر . ولمنع الطلاب الآخرين من«استعارتها» ، كنا نضع اقفالاً على عجلاتها . في صبيحة أحد الايام لم أترك لنفسي سوى دقيقتين كي أصل الى الصف لحضور محاضرة عن العلوم العسكرية . هرعت الى دراجتي لأجد أن العجلة قد أفرغت من الهواء . وكانت نظرة واحدة الى الصمام ـ الذي نزع من مكانه ـ كافية لأعرف أن هذه طريقة أحدهم في المزاح . فركضت الطريق كلها الى قاعه المحاضرات . فوصلت وأنا الهث من التعب ـ ومتأخراً . فنظر الي المحاضر وقال بسخرية ،« آه ، حسين! صباح الخير! جميل منك أن تحضر!»

حاولت بعد انتهاء المحاضرة اكتشاف من فعلها ، من دون جدوى . لذلك ، في المساء ، وبعد أن اطمأنيت الى عدم وجود احد في الجوار ، تسللت من غرفتي الصغيرة تحت جنح الظلام ونزعت صمامات ما لا يقل عن ثلاثين دراجة ، واحتطت أن اخفي دراجتي خلف غرفة الحارس . ربما اشتبهوا بأنني الفاعل ، لكن لم يكن في وسعهم اثبات ذلك .

مرة واحدة عوقبت بفترة حجز في الثكنة في ساندهيرست . لكني تمكنت من الافلات بالاعتراف بجريمة لم ارتكبها .

بدأت المشكلة في مساء أحد ايام الجمعة . ولم أكن موجوداً في الاكاديمية ، بل أقضي الأمسية في لندن للاحتفال بعيد ميلادي . كان الفصل قد شارف على الانتهاء ، وكان الطلاب يحتفلون به بالقيام بمعارك صورية . فقام أحد الطلاب من غير قصد ، او

بشكل متعمد ، بقرع جرس انذار الحريق في الاكاديمية . فقامت القيامة ، وخلال بضع دقائق هرع اسطول من سيارات الاطفاء من كامبرلي ، وجاءت سيارات اخرى من محطات الاطفاء المجاورة . وسرعان ما طوقت الكلية بالسيارات ورجال الاطفاء المتحمسين وهم يرتدون خوذهم واحذيتهم الطويلة ويستعدون للعمل . ولم يكن ينقص هذا المشهد شيء سوى النيران . لكن بدلاً منها كان ثمة اكبر صف شهدته ساندهيرست من سنين عديدة . وبدا آمر الكلية شاحباً . وحين عدت متأخراً في تلك الليلة ، ووقعت مؤذناً بعودتي ، كانت سيارات الاطفاء قد ذهبت ، وساندهيرست قد نامت ، وبدا كل شيء طبيعياً ، ولم يكن لدي ادنى فكرة عن البلاء الذي سيحل علينا جميعاً صبيحة اليوم التالي .

جرى استعراض طابور الصباح ، والافطار ، والدروس الاولى في حالة من التوقعات الصعبة . وحيث أن اليوم هو السبت ، فقد كان لدينا جميعاً تصاريح بالخروج في عطلة نهاية الاسبوع . وكان معظمنا قد أعد الخطط لقضاء تلك العطلة . وخلال الحصة الاخيرة وقبل الغداء (ثم المغادرة) ، وقعت الواقعة . أُمرنا جميعاً أن نصطف في طابور أمام آمر الكلية في الساعة الواحدة ظهراً .

لم أر آمر الكلية متجهماً كما رأيته في ذلك اليوم . دخل في الموضوع مباشرة قائلاً : «حسناً ، فليخطُ تلميذ الضابط الذي قرع جرس إنذار الحريق خطوة الى الامام» .

سادت فترة صمت ، ولم يتحرك احد .

انتظر آمر الكلية فترة أخرى ، كان من الواضح انه يزداد غضباً ، ويحاول أن يتمالك نفسه .

ثم كرر الامر ، «رجاء» تقدم خطوة ، الشخص الذي قرع جرس انذار الحريق .»

ولم يتحرك أحد .

«حسناً» ، قالها آمر الكلية وهو يغلي من الغضب ، «جميع الطلاب الكلية سيُحتجزون في الثكنات ابتداءً من منتصف هذه الليلة وحتى يقر الطالب المسؤول عن

فعلته . ايها السادة ، انصراف .»

لا أحد يعلم من فعلها . انتظرنا جميعاً بقلق نعدّ الدقائق وما زلنا نأمل في الخروج الى لندن . لكن احداً لم يعترف . شعرت أن الامر أكثر صعوبة على الطلاب من أمثالي ، الذين كانوا خارج الكلية ساعة وقوع الحادث ـ وهم قلة ـ ولا يمكن أن يكونوا مذنبين . لكن لم يكن في وسعنا عمل شيء .

انتظرنا طوال صبيحة يوم الاحد . وعند المساء بات واضحاً أن احداً ما لن يعترف بهذه الفعلة ، وقررت أنه لا بد من عمل شيء بخصوص ذلك . طلبت الإذن بمقابلة آمر الكلية . ارتديت افضل بزة لدي ، وبعد فترة وجيزة استُدعيت لمقابلته . وحين دخلت واغلقت الباب خلفي ، أديت أفضل تحية علمتها لي كلية ساندهيرست وقلت : «مساء الخير ، سيدي» .

«حسناً ، حسين ، ماذا تريد؟»

«انا فعلتها ، سيدي!»

«فعلت ماذا؟»

«اطلقت جرس انذار الحريق ، سيدي .»

فنظر اليّ بدهشة : «ما الذي تقصده بالله عليك؟»

قلت بإصرار : «أطلقت جرس انذار الحريق .»

«هل لي أن اسأل ، ايها الطالب حسين كيف تمكنت من قرع جرس انذار الحريق وانت في لندن؟» قالها وفي صوته رنه سخرية .

«هذا صحيح تماماً ، سيدي ، هذه هي القضية ، سيدي ، كان في لندن العديد من تلاميذ الضباط ايضاً .»

للحظة بدا أنه سينفجر . ثم تبين له الجانب الفكاهي من الامر .

تمخض «اعترافي» عن نصر لجميع تلاميذ الضباط الذين كانوا خارج الكلية في ذلك الحين ، فقد الغي حجزنا في الثكنة . وما زلت أشعر بالرضى عن نفسي كلما فكرت في

تلك الواقعة .

كان لدي أسبابي الخاصة للرغبة في الخروج ، لاني كنت استعد لتجربة سيارتي الجديدة في مضمار جودود للسباق . وكنت قد قطعت شوطاً بعيداً عن فترة سيارتي الروفر والبريستول . وبقيت على اتصال مع موريس رينور ، ومعه ايضاً اشتريت اسرع سيارة من بين هذه السيارات جميعاً . وحين استقر بنا الحال في ساندهيرست اتصلت به هاتفياً .

سألته : «لم لا تأتِ لتراني ؟»

فوجىء قليلاً ، ربما لأن ساندهيرست تبعد نحو ٣٠ميلاً عن هارو ، لكن وحيث أني ما زلت احتفظ بسيارة الروفر في المرآب في هارو ، اقترحت عليه أن يقودها ويحضر اليّ . وحين وصل قلت له : «اعتقد أن علينا أن نحاول شراء سيارة من أوستن مارتن» .

بان السرور على وجهه . لم يكن قد قاد ذاك النوع من السيارات . وسرّه أن اطلب منه متابعة عملية الشراء . ورتبت الأمر بحيث يكون رقم لوحة التسجيل B3(للإشـارة الى أنها السيارة البريطانية الثالثة التي أحصل عليها) ، وحين وصلت بلونها الأسود الجميل ، وقدرتها على الانطلاق بسرعة تصل الى ١٢٠ ميلاً في الساعة ، بعثت وراء رينور مرة أخرى .

وسألته : «لم لا نسابق بها؟» كنت أعرف دائماً أن رينور يحلم بسيارات السباق .

قلت له : «قم بجميع الاستفسارات ، وادخلها باسمي في سباق جودود التالي ، على أن تكون أنت السائق .»

أخذ رينور السيارة الى جودود وقام ببعض التدريبات هناك . وقبل اسبوع من بدء السباق ، اقترحت اجراء بعض التعديلات عليها لمواجهة الحدث الكبير . الاّ أن خطأ ما حدث . أصر رينور على أن السفارة الأردنية التى كانت تخشى عليّ من السرعه التي اقود بها ، ضغطت على ورشة التصليح وطلبت تخفيض سرعه السيارة . فمن المؤكد أن السيارة كانت في حال ممتازة حين ادخلناها الورشة لإجراء بعض التعديلات . لكن حيث اتصل بي رينور صبيحة يوم الخميس ، قبل السباق ، قال لي إن الورشة اخبرته أن السيارة ليست جيدة بما يكفي لخوض السباق . خابت آمال رينور وقال لي بكآبة حين ذهبنا الى المضمار

معاً ، «كنت آمل أن أريك سيدي ، مدى براعتي .»

قدت سيارة الاوستن مارتن بضع دورات في المضمار ، لكننا لم نسابق بها قط .

اصبح اسم السيارة التي احتفضت بها في ساندهيرست ،«سيارة الشعب» ، لأنها كانت تمتلىء بتلاميذ الضباط المجازين في عطلات نهاية الاسبوع . في الواقع أنني اصبحت سائقاً لهم ، واصبحت «سيارة الشعب» احد المعالم الشعبية في ساندهيرست .

بشكل عام ، كنت أقود بانتباه ، ورغم ذلك تعرضت لحادث سيارة جسيم ـ وكما حدث في مسألة الحجز في الثكنة ، فقد وُجه اللوم اليّ رغم أنني لم اكن السائق . كانت اجازة نصف الفصل ـ وثلاثة ايام رائعة من دون تمارين رياضية او مسيرات او دروس . قرر بعضنا زيارة لندن . وكان من ضمن المجموعه بعض تلاميذ الضباط الماليزيين ، وهم زملاء محبوبين للغاية . طلب مني بعض الاصدقاء أن يقود السيارة . «بالطبع!» قلت له . كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل والمطر ينهمر ونحن نقود السيارة على طريق نايتسبردج ، نقوم بايصال الطلاب الى شققهم ومنازلهم . فجأة انزلقت «سيارة الشعب» على الارض الملوثة بالشحم ورأيت امامي عمود اضاءة او موقف حافلة فملت بجسدي وامسكت المقود . وفي الوقت نفسه صرخت : «اضغط على الفرامل بحق الله!»

لسوء الحظ ، ضغط صديقي على البنزين بدل الفرامل! دارت السيارة على نفسها في منتصف طريق نايتسبردج ـ لحسن الحظ أن الطريق كان خالياً ـ واتجهت السيارة ، التي خرجت عن السيطرة تماماً الى لوحة اعلانات ضخمة . ولم يكن في وسعنا فعل شيء . خفضنا رؤوسنا و اخترقت السيارة لوحة الاعلانات تاركة فجوة بحجم سيارتي وشكلها ، قطعت بكل وضوح في اللوحة . توقفت السيارة و اصيبت ساقاي بضربة قوية .

صرخت في صديقي الجالس خلف المقود : «غير الاماكن بسرعه ، واذا سأل احدهم أي سؤال ، تذكر أنا من كان يسوق ، فهذا أسهل .»

زحف بعضنا فوق بعض قبل وصول الشرطة . وبدا اننا في ساحة مهجورة لصنع الطوب . داعبت الباب لمعرفة ما إذا كان صالحاً ، لكنه فُتح أمامي .

« من الافضل أن أرى أين نحن» ، قلت ذلك ونزلت مباشرة في حفرة ضخمة نصف

ملأى بالماء ، تسلقت خارجاً منها وقد غطى الطين سترتي ، ونظرت مترقباً قدوم أثنين من رجال الشرطة . وبالصدفة ، كان احدهم قد خدم في البوليس الفلسطيني ، وسبق لهُ أن قابل جدّي ، لذلك ، وبعد الاجابة على الاسئلة قضيت بضع لحظات ، في الساعة الثالثة فجراً ، وانا اوقع «الاوتوغرافات» .

كانت الشرطة في غاية اللطف وقدروا الحقيقة - بأنه لم يكن في وسع أحد تجنب الانزلاق (واعتقدت أنه كان من الافضل عدم ذكر الفرق ما بين بدالة البنزين والفرامل!) ، لكن ثمة أمر اقلقني بالفعل . وهو احتمال حدوث جلبة مخيفة حين تأخذ الصحافة خبراً بالحادث .

اعتصرت ذهني مفكراً فيما يجب أن أفعله . لم اصدق حين وجدت السيارة ما زالت تعمل . كانت مقدمتها مهشمة ، لكن كان في الإمكان سوقها ببطء ، وبعد أن قمنا بتحرير السيارة واعادتها الى الشارع ، استقر قراري على خطة عمل .

قدت السيارة بلطف الى دورشستر ، وبمجرد وصولي الى غرفتي ، اتصلت برينور ، الذي كنت ما زلت احتفظ بسيارتي الروفر في مرآبه . ابلغته قائلاً : «لقد تعرضت لحادث ، لا وقت للأسئلة ، هل يمكنك تجهيز الروفر؟ وسوف آتي لآخذها خلال نصف ساعة .»

قال رينور إنه يستطيع تجهيزها . اخذت حماماً سريعاً ، وشربت عدة اكواب من القهوة . وقدت السيارة المحطمة الى مرآب رينور . أخرجت سيارة الروفر ،لاحظت بعجة صغيرة في أحد أجنحتها ، وقدت السيارة عائداً الى السفارة الأردنية . وما توقعته حدث . كانت درجات السفارة مكتظة بالصحفيين . وخرج السفير لاستقبالي قائلاً :

«هل انت بخير ، سيدي؟»

رددت : «بالطبع!» ، واستدرت الى الصحفيين مضيفاً : «كما ترون يا سادة ، انها مجرد ضربة خفيفة على الجناح .»

بقدر ما كنت أحب قيادة السيارة بسرعة ، كان لها دائماً المركز الثاني بعد المشي .

ومن الحقائق الواقعية أنه لم يكن لدى وقت كثير في ساندهيرست فيما عدا اجازات نهاية الاسبوع . وكان عليّ بذل الكثير كي ألحق بالآخرين بحيث كنت كثيراً ما اضطر الى أخذ دروس اضافية حين يكون زملائي غير مداومين ، وخاصة عند اقتراب نهاية الفصل ، حين كان يأتي دورنا في تولي مهمات عدة لمعرفة مقدار ما تعلمناه .

تملكتني الخشية من اللحظة التي قد أُعين فيها عريفاً مناوباً ، طوال اسابيع عدة . كان ذلك يعني النهوض من الفراش قبل الخامسة صباحاً ، واعداد قائمة بالطلاب المرضى قبل الافطار ، وجمع البريد وتوزيعه ، وفتح المكاتب وعدد من الاعمال الاخرى ، والتواجد طوال النهار لمعالجة المشاكل الطارئة .

لحسن الحظ ، لم تدم فترة خدمتي كعريف مناوب طويلاً . في الامسية الاولى علمت بشكل غير رسمي أنه لن يكون ثمة طابور مبكر صبيحة اليوم التالي . وكان معنى ذلك وجود ساعة اضافية لجميع تلاميذ الضباط ، والخروج مباشرة الى الافطار ـ ما عدا مرشح الضابط حسين ، الذي يجب أن ينهض في الساعة الخامسة .

حسنا ، لم يخبرني احد بذلك رسمياً ، وبوصفي مرشح ضابط جيد كنت اعلم أن الجيش لا يدار الا بالتعليمات الرسمية . فماذا كان يسعني أن افعل سوى القيام بواجبي؟

عند الساعة ٦,٤٥ ، وبعد أن انهيت واجبات مكتبي العامة ، تجولت نزولاً وصعوداً في الممرات وأنا انادي بأعلى صوتي : «الساعة السادسة وخمس واربعون دقيقة! سرية انكرمان ، حان وقت النهوض . السادسة وخمس واربعون دقيقة! هيا ، انهضوا من الفراش!»

لاحقني سيل من الشتائم ، تجاهلته بكل اعتداد ووصلت المناداة مرة كل خمس دقائق حتى بلغت الساعة ٧,١٠ . تحول سيل الشتائم الى فيضان مع وابل من الاحذية . كنت اخفض رأسي وهي تتطاير من حولي وأهرب صوب الباب . ولم يوقظ صوتي الذي دربته ساندهيرست افراد سريتي وحسب ، بل افراد السرية المقيمين في الطابق الاسفل .

كما ايقظت الرقيب المسؤول الذي بعث في طلبي بعد الافطار . نظر اليّ بحدة وأنا أقف بانتباه امامه .

قال لي بشيء من السخرية : «حسين ، الواضح أنك قمت بواجبك على أكمل وجه . ليس لديك ما تتعلمه كعريف مناوب . تستطيع أن تعود الى وضعك العادي» .

وكانت تلك نهاية فترات استيقاظي في الخامسة صباحاً في ساندهيرست .

قبل نهاية فترة دراستي في ساندهيرست اكملت دورة في قيادة الدراجات االنارية . وبوصفي تلميذاً ضابطاً في سنة التخرج كان لدي على الدوام طموح في أن استعير دراجة نارية واقودها الى لندن ، لكنني لم أحظَ بذلك قط . الا أنه قبل بضعه اسابيع من نهاية الفصل ـ وقبل استعراض انهاء التدريب العسكري ـ كنت اقود دراجة نارية في أرض وعرة وطقس سيء للغاية . حاولت الالتفاف على منحنى بسرعة زائدة في ارض وعرة وطقس سيء للغاية ، فانزلقت الدراجة وسقطت فوقي . وحين خلصت نفسي من تحتها شعرت بألم شديد . كان ذراعي الايسر قد اصيب ، الا أني لم أجرؤ على الابلاغ عن الاصابة خشية على قائمة المرضى ويفوتني استعراض انهاء التدريب العسكري . وحين وصلنا الى نهاية الفصل ، ازدادت حالة ذراعي سوءاً والألم لا يتوقف . وفي صبيحة الاستعراض لاحظ رقيب اول من السرية ما انا فيه وقال لي :

«حسين لن تستطيع اكمال الاستعراض بهذه الحال . انتظر لحظة وسوف أعطيك شيئاً يساعدك .»

عاد بعد دقائق وناولني شيئاً وهو يقول : «إنه خليط خاص ، كما تعلم . لن اخبرك ما فيه ، لكني اخمن لك أن تكمل الاستعراض .» وقد أكملته بالفعل .

لم اعرف ابداً مما كان يتكون ذلك الخليط الخاص ، لكنه قضى على الالم في جسدي لمدة ثلاث ساعات .

في الواقع أن ذراعي كانت اسوأ بكثير مما توقعت . فبعد تخرجي في ساندهيرست ، خرجت في جولة في انحاء انجلترا ، وويلز ، واسكوتلندا مع خالي الشريف ناصر . وحين وصلنا الى مقاطعة ليك تزايد الالم الى درجة أنني بعثت في طلب طبيب . فوجد تمزقاً في احد الاوردة ، وقرر على الفور وضع ذراعي في الجص .

«يجب أن تبقى في الجص لمدة شهر» قالها لي مشدداً .

بدا ذراعي في الجص مؤثراً ، لكنه كان مصدر ازعاج فظيع . فقد عملت بجد لمدة ستة أشهر وأريد الآن أن أستمتع بأول عطلة لي .

وبعد يوم واحد من وضع الجص قلت لخالي : «هذا غير جيد ، لا أستطيع الاحتفاظ بهذا الشيء بعد الآن»

«من المؤكد أن الطبيب لن ينزعها ابداً .»

«سننزعها نحن اذاً . لن يكون الامر أشد صعوبة مما أنا فيه . انتظر حتى نصل الى المحطة التالية .»

حين وصلنا الى فندق مناسب ، وقعنا اسمينا كنزلاء ، وطلبت من القائم على الفندق بطريقة مهذبة لا تنم عن نية ما :«هل يمكنك أن تعيرني زوجاً من المشابك ومقصاً للاعشاب ، رجاءً؟»

نظر اليّ بدهشة وأنا اضيف : «لن احتاجها لفترة طويلة .»

بعد فترة جرى صنع مشبكين على عجل ، «ممتاز ، اشكرك .» ثم التفت الى خالي قائلاً : «الآن رجاءً ، هلا قصصت الجص لي؟»

نزعنا الجص بينما الرجل ينظر الينا برعب . وقضيت جولة ممتعة : هي آخر أيام ما وصفته برحلة ساندهيرست من حياتي .

بعد ايام حان وقت العودة الى عمان من أجل تتويجي ، فتوجهنا بالسيارة الى لندن استعداداً لرحلة وبداية حياة جديدة .

لكن لو اتيح لذلك الطبيب من مقاطعة ليك الذي وضع ذراعي في الجص أن يقرأ هذه الكلمات ، استطيع أن اؤكد له أنه كان على صواب . فذلك الذراع ما زال مصدر ازعاج لي حتى اليوم ، لأنني لم أُطع أوامر الطبيب .

٤

١٩٥٣ - تتويجي ملكاً - الحياة في الأردن - زواجي الاول

معظمنا يحيا حياة بسيطة

لم اكن قد بلغت الثامنة عشرة حين توليت سلطاتي الدستورية يوم ٢ ايار / مايو ١٩٥٣ ، وهو اليوم ذاته الذي تولى فيه ابن عمي الملك فيصل مسؤولياته في بغداد . كان قد مضى ما يقارب السنة على تنحي والدي عن العرش ، وحين اقسمت اليمين الدستورية في مبنى البرلمان في عمان كخطوة أولى لتتويجي ملكاً ، نصبت اقواس ضخمة ، بالوان زاهية على الشوارع الرئيسة الممتدة ما بين القصر والبرلمان . وقبل أن استيقظ من نومي بفترة طويلة ، كان ألوف الناس يصطفون في الشوارع لمشاهدة الموكب . وارتفعت الاعلام فوق كل مبنى .

استيقظت باكراً صبيحة ذلك اليوم ، وبقيت في الفراش فترة قصيرة ، سعيداً بأن أُترك وحدي مع افكاري . فاليوم هو أهم يوم في حياتي . سأكلَّف عند انتهائه بحمل مسؤولية قيادة بلدي وخدمته . وأتذكر فكرة مرت بذهني وانا مستلق هناك قبل الافطار : «هل انا مختلف اليوم عما كنت عليه بالامس؟ في الأمس لم يكن في وسعي اتخاذ أي قرار . وابتداءً من اليوم ستكون حياتي عبارة عن اتخاذ قرار بعد الآخر ، كلها حيوية بالنسبة للأردن .» ابتهلت الى الله أن أتخذ القرارات الصحيحة .

بالكاد تمكنت من تناول أي شيء على مائدة الافطار . لم يكن توتر الاعصاب وحده هو ما افقدني شهيتي ، بل ايضاً ذلك الشعور بالمتطلبات الهائلة للخطوة التي أنا مقدم عليها .

كانت بزتي الرسمية قد وضعت لي ، وبدأت في ارتدائها ، وكانت ملابسي الرسمية تصنع من قماش ثقيل ، ابيض للصيف ، وازرق غامق للشتاء . ولها كتافيات مقصبة ذهبية ، لا تستخدم الا في مناسبات الدولة الرسمية . بعد التاسعه بقليل كنت جاهزاً ،

وفي الساعة ٩,٣٠ صعدت الى سيارتي في قصر بسمان وسرت في موكب رسمي . كانت سيارتي محاطة بفرسان من الحرس الملكي وجنود مسلحون على ظهر دراجات نارية ، اضافة الى جنود حراسه آخرين . شققنا طريقنا ببطء وسط هتافات الوف الأردنيين . وكان الجنود المصطفون على جانبي الطريق يجدون صعوبة كبرى في حجز الجماهير . كنت أعلم أن عليّ التصرف برباطة جأش ، لكنني اعترف أنه كان في حلقي غصة .

حين دخلت مبنى البرلمان ، جلس رئيس الوزراء ، ومجلس الوصاية ، ومجلس الوزراء الى يساري ، في حين جلس أخي الاصغر ، وخالي ، وكبار المسؤولين في االقصر الى يميني . أعرب رئيس الوزراء ورئيس مجلس الأعيان عن املهما في أن أتمتع بفترة ولاية كلها سعادة وازدهار ، ثم نهضت وأقسمت قسم الأردن : «اقسم بالله العظيم أن احافظ على الدستور وأن اكون مخلصاً لشعبي .» إنه قسم آمل ألاّ أحنث به ابداً . وبعد اداء قسم الولاء ، اطلق جنود الفيلق العربي ١٠١ طلقة تحية معلنين ارتقائي للعرش وتسلمي للسلطات الدستورية كاملة .

اتجهت من مبنى البرلمان الى المسجد لاداء الصلاة ، ومن هناك مباشرة الى ضريح جدّي . وحين ذهبت لزيارة امي وتلقي تهانيها طوقتني بذراعيها واخبرتني عن مدى افتخارها بي والآمال التي تعلقها عليّ . وقالت لي : «لن تنسى ابداً هذا اليوم ، وحين تواجه صعوبات في المستقبل - ومن المحتم أن تأتي عاجلاً أم آجلاً - عد بنظرك الى هذا اليوم . تذكر كيف ابدى شعب الأردن - ألوف الألوف منهم - ولاءه ومحبته لك وثقته بك . وتذكر ايضاً ياولدي ، الاّ تجعل المسؤولية والسلطة تطغى على تفكيرك . رعاك الله .»

كان ذلك اليوم الاول من الاحتفالات . فبعد فترة وجيزة ، تلقيت التحيات من جمهور غفير ، تجمع هذة المرة في المطار البني اللون الواقع على منبسط من الارض تبعد بضعة أميال فقط عن عمان نفسها . احتشد أكثر من مئة ألف انسان في ذلك المطار حين دخلت بسيارتي لتلقي تحية استعراض عسكري شارك فيه خمسة آلاف جندي من الفيلق العربي . لم استطع الاّ أن اقارن بين ساندهيرست وما اراه امامي ، وذلك الفرق

الشاسع ما بين القديم والحديث ، حين قمت بتحية طواقم المدفعية والسيارات المدرعة ، وهي تمر امامي بتشكيل غاية في الدقة ، يتبعها جنود من حرس البادية على ظهور الجمال ، وفرسان على خيول بيضاء ، ومدرعات ، ومدافع ، حتى فتية صغار من طلاب مدارس الفيلق العربي ، قامت كل جماعة من هؤلاء بدورها ، وكانت الاولى من جماعات كثيرة استعرضتها بعد أن اصبحت ملكاً .

* * *

الكثير مما يعمله الملك روتيني . وقد بدأت ولايتي وأنا أنوي الاستمرار فيها ـ بالذهاب في كل صباح الى «مكتبي» في قصر بسمان ، مثل أي شخص لديه دوام يومي ، واجلس هناك حتى انتهي منه . كان العمل الذي اقوم به شديد التباين . وحيث أنني خططت منذ البداية أن اصبح رب اسرة ، إضافة إلى كوني ملك البلاد ، فقد أبقيت بابي مفتوحاً للجميع . وكنت اقضي فترة طويلة من الوقت في مقابلة رجال من مختلف مشارب الحياة ، وكان شيوخ العشائر يقومون بزيارتي في مواعيد منتظمة ، وكانوا جميعاً موضع ترحيب .

قبل فترة ليست طويلة زارتني جماعة من البدو ، صافحتهم فرداً فرداً . وفي نهاية الصف الطويل المبعثر لمحت ولداً صغيراً .

حين جاء دوره قال بصوت باكٍ متقطع الانفاس : «سيدي ، هلا ساعدتني؟ اريد أن اذهب الى المدرسة .»

كان قد حضر مع البدو الآخرين . وثمة خلاف حوله بسبب السن ، جعل المدرسة المحلية ترفض قبوله . وحيث أن معظم الوزراء كان يزورني بشكل منتظم ، فلم يكن مفاجئاً وجود وزير التربية والتعليم في القصر صبيحة ذلك اليوم . هكذا هي العلاقات الأُسرية الحميمة في الأردن ، خلال ثلاثة ايام قُبل الولد في المدرسة .

الروتين في القصر يسير بسلام ويسر . والمسؤول عنه هو رئيس الديوان ، وهو مستشاري الخاص وصلة الوصل بيني وبين الحكومة . لكن كلمة ديوان تعني أشياء أخرى . فهي في الاصل تعني «اريكة» ، ثم اصبحت غرفة فيها اراثك ، ثم مكتباً .

واخيراً ، اصبحت تعني مكتباً او قاعة استقبال . ومن ثم ، بات في وسعي أن اقول : «أنا ذاهب الى الديوان» ، لتعني «أنا ذاهب الى مكتبي .» أو أين رئيس الديوان؟ ليكون معناها «أين رئيس مكتبي الخاص؟»

كان التدقيق في طلبات مقابلتي يجري من قبل رئيس التشريفات ، لكن ، ونظراً لأن مكتبه في القصر يلي مكتبي ، فقد كان في وسع «أي شخص» أن يصعد درجات القصر وأن يطلب منه الإذن بمقابلتي ، او أن يتصل هاتفياً طلباً للمقابلة .

فاذا ما رُفض طلب لمقابلة ، فان السبب هو برنامجي المكتظ بالمواعيد . وقد كان جدولي كذلك . في بعض الاحيان لم اكن أعرف الى اي اتجاه ادير وجهي . وفي الايام العادية الاخيرة صرت أتناول افطاري في البيت ، واطير بالهيلوكبتر الى القصر ـ مكتبي ـ وفي الساعة التاسعة أستقبل أول سفير من ثلاثة سفراء . وفي الساعة ١٠,٣٠ صباحاً اعقد اجتماعاً للحكومة ورؤساء الدوائر الاخرى لبحث مسائل تتعلق بالجيش وسلاح الجو . ثم اناقش مسائل تتعلق بمحطة الاذاعة ، وفي الساعة الواحدة (حين ابدأ التفكير بطعام الغداء) يتنحنح رئيس التشريفات ويذكرني بأن جماعة من ٤٠ طالباً من طلاب الجامعات البريطانية وعدوا بمقابلة معي . اصافح كل واحد واقول بضع كلمات . فيكون وقت الغداء قد فات ، وانا على موعد مع جلسة لمجلس الوزراء للاستماع الى خطط التطوير الاقتصادي . وقبل أن أغادر في الساعة السابعة مساءً ، أقابل بعض الزوار لفترات قصيرة . واقوم بتوقيع بعض الرسائل ، ودراسة بعض الوثائق . ويكون الظلام قد حل ولا استطيع الطيران ، ويصبح لزاماً عليّ الذهاب بالسيارة مسافة ١٥ميلاً الى المسكن الصغير الذي اقيم فيه .

كتب الكثير من الترهات عن القصور المترفة في العالم العربي . وفي الحقيقة أن معظمنا ينحدر من اصول بدوية متقشفة ، ونعيش ببساطة شديدة . أنا شخصياً لا امتلك أية ثروة شخصية ، وكما ستقرأون في الصفحات التالية ، فان منزلي الحقيقي ، الذي اعود الى زوجتي كل ليلة فيه ، هو منزل من طابقين حيث اقوم انا وزوجتي باعداد الافطار كل صباح بالتناوب .

القصر الملكي ليس ملكاً للملك ، فهو من املاك الدولة ، ومن ثم ، ليس له صفة الملكية الشخصية . وتمتلك العائلة المالكة في الأردن ثلاثة قصور . بنى الاول جلالة الملك عبدالله حين حضر الى الأردن للمرة الأولى ، واسماه قصر رغدان . وكان جدّي قد بدأ في بناء قصر بسمان ، الذي اعمل فيه حالياً ، لكنه لم يسكنه قط . ويعيش والدي اليوم في تركيا ، ولوالدتي ، الملكة الوالدة ، قصر تعيش فيه مع اخي صاحب السمو الملكي الامير محمد ، وافراد العائلة الاصغر سناً ، هو قصر زهران ، وهو ملك العائلة . واسكن أنا في منزل صغير في الحُمّر ، ولدينا فيلاً شتوية صغيرة في الشونة في وادي الأردن ، بناها جدّي ، كنت اقضي فيها يوماً خلال فصل الشتاء احياناً .

لكن لا تتخيلوا أن قصورنا واسعة مثل القصور الاوروبية . فقصر بسمان مقسم الى ثلاثة اقسام : القسم الأول هو الذي سكنت فيه قبل أن أتزوج . مكان الاقامة الخاص بسيط للغاية - غرفة نوم رئيسة ، اربع غرف صغيرة للضيوف ، غرفة طعام ، ثلاث صالات ، واحدة كبيرة تكفي لاستقبال ٢٥ شخصاً ، والاخريان صغيرتان للغاية . القسم الثاني هو مكتبي ، الذي أداوم فيه كل يوم ، مع غرف للعاملين معي . القسم الثالث ، الذي اضيف الى القصر فيما بعد ، مكون من قاعة طعام واسعة للمناسبات الرسمية او المآدب لكبار الزوار مثل الملوك والرؤساء الاجانب . يمكن أن تتّسع لما بين ١٥٠ الى ٢٠٠ مدعو . وفي هذا القسم ايضاً قاعة اخرى تستخدم للقاءات الجماعية او المؤتمرات الصحفية ، ونستخدمها في بعض الامسيات كدار خاصة للسينما .

قصرا زهران وبسمان في مثل بساطة قصر رغدان ؛ الاخير هو القصر الاصلي لجدّي ؛ وما زلت استخدم نصفه في بعض المناسبات - خاصة غرفة العرش - لاستقبال السفراء في اثناء تقديم اوراق اعتمادهم ، او في الاعياد الوطنية وحضور اعداد كبيرة من الناس لتهنئتي . اما الجزء الاخير فتستخدمه أرملة جدّي .

لو كان عليّ الاقرار بهواية واحدة ، فهي السيارات السريعة ، فبعد أن استقر بي الحال في الأردن طلبت من موريس رينور ، الذي كان يدير المرآب القريب من هارو ، الحضور الى عمان كرئيس لمرآب القصر . جفل في البداية وتردد ، لكن زوجته اقنعته بأن

يجرب في الاقل الحياة في الأردن ، وطلب من رب عمله اجازة من دون راتب لمدة سنة . فوافقوا على الاحتفاظ له بموقعه مديراً للمرآب عند نهاية السنة إن كان ما زال راغباً فيه . لكنه بقي في الأردن منذ ذلك الحين ، ويعيش في بيت داخل محيط القصر ، حيث قضيت الليل فيه ، كما ستقرأون في الفصول التالية ، بعد محاولة لاغتيالي .

حين أعود بذاكرتي الى سنواتي الاولى ملكاً ، فان اكثر ما كان يزعجني الصعوبة التي واجهتها في محاولة التقرب الى الشعب . فلأني كنت لا أزال صغيراً ،كان االمستشارون يحاولون أن يديروا لي حياتي . وكنت اريد العكس بالضبط ـ وقد حصلت عليه! فكيف يمكنني حتى محاولة أن اكون ملكاً جيداً إن كنت لا اعرف رعيتي معرفة جيدة؟ كنت اتطلع بشوق لرحلاتي الدورية الى الصحراء لزيارة العشائر . فيالها من حياة مختلفة! كنت ملكهم ، لكني لم اكن أشعر معهم بالوحدة ، كنت أحس كأني واحداً منهم . كنت بالنسبة اليهم «حسين» ، البروتكول الوحيد بالنسبة للبدوي ، الذي تقوم حياتهُ على ثلاثة مفاهيم ـ الشرف ، الشجاعة ، والكرم نحن نؤمن بأنه كي تكون رجلاً شريفاً يجب أن يكون لديك الشجاعة . ونحن نؤمن بأن عليك دوماً أن تبدي كرمك . وما هو لك ملك لضيفك ايضاً . حتى العدو يحصل على مأوى ومأكل حين يصل الى مضارب عشيرة اخرى .

حين كنت أزور عشائري كنت اجلس في صدر الخيمة مع الضيوف الآخرين حولي . ويقف افراد العشيرة امامي يرقصون رقصاتهم ويغنون اغانيهم التقليدية . وحين يرد اسمي في مقطع من مقاطع الاغنية كانوا يطلقون رصاص بنادقهم في الهواء تحية لي (قبل عصر البندقية والمسدس كانوا يلوحون بالسيوف والرماح .) وبعد أن اجلس تقدم القهوة . ثم يلقي شيخ العشيرة كلمته الترحيبية التقليدية ، المرتجلة : ويعتبر عدم القاء الخطب او الاغاني المرتجلة امراً مشيناً . ثم يبرز شاعر من بين الصفوف يلقي أبياتاً من الشعر . ثم يقدم طعام الغداء ، وهو في العادة «منسف» يتكون من أرز وحَمَل يطبخ في أوعية ضخمة . الترجمة الحرفية لكلمة منسف هي «طبق كبير» . وفي بعض الاحيان قد يذبح عدد من الحملان . كنا نتكىء على مساند من حرير في خيمة طولها خمسين ذراعاً ولا

يُسمح للنساء بالدخول علينا ، كما لا يجوز لأي فرد من أفراد العشيرة - ولا حتى شيخ العشيرة ـ بأن يأكل إلا بعد أن ينتهي الضيوف من تناول الطعام .

كنت احب ذلك الاختلاف عن الوقار المتزمت للحياة في القصر . واعتقد أنني كنت اراقب بشكل خاص احتياجات البدو . فالكثيرون منهم فقراء للغاية ، لكن رغم ذلك ، على المرء أن يبحث ويدقق كي يكتشف حاجاتهم ويتعامل معهم ، لأن كبرياءهم تمنعهم من طلب المساعدة . كان رجال العشائر يتقدمون اليّ بالتماسات في بعض الاحيان ، وكانت في الأغلب بسيطة للغاية بحيث كنت اعالجها في الموقع نفسه . فواحد يريد الحصول على عمل ، واخر بحاجة لعلاج ـ وكانوا جميعاً بحاجة لمدارس ، وعيادات ، وماء . احببت هذه البساطة في المتقرب مني ، لانها تعني بأن البدو يعتبرونني في مقام رئيس العشيرة . وكل ما كان البدو يريدونه ، يعتقدون أن الطريقة الصحيحة للحصول عليه هي أن يطلبوه مني .

حاولت ، بقدر من النجاح ، توطين البدو ـ وقف ترحالهم من مكان الى آخر طلباً للماء والعشب ـ بوضع برنامج يعطيهم ارضاً يعيشون عليها ، ومساعدتهم في بناء مستوطنات حديثة حيث الماء متوفر طوال ايام السنة . وآمل أن يجري توطين معظم البدو في المستقبل القريب .

لم تكن الاشهر الاولى سهلة . فمن اوجه عدة كانت وقتاً مربكاً بالنسبة لي ، ربما لاني أملك مقياساً يمكنني من قياس مدى نجاح عملي . هل أؤدي مهمتي بنجاح؟ هل الطريقة التي بدأت بها هي البداية الصحيحة؟ كان من الصعب عليّ ان أعرف وانا ما زلت فتى في الثامنة عشرة ، وبالنسبة لي بوصفي ملكاً ، مدى صعوبة الحصول على رأي غير متحيز .

الاّ أنه في بعض الاحيان ، حتى الملك يحصل على كلمة تشجيع من جهة لا يتوقعها . في أحد الايام زرت قرية صغيرة هاجمها الاسرائيليون وقضيت الليل في مخيم . كان القمر ساطعاً وخرجت للسير وحيداً ، لتنفس هواء الليل وحسب . من خلال نسيج الخيمة ، التي كان يستريح فيها عدد من المسنين الأردنيين ، سمعت اصواتاً تتمتم .

كانوا يتحدثون عني . فجأة رنت جملة في أذني بكل وضوح . ولك أن تتخيل دفق الاعتزاز والامتنان الذي احسست به حين قال صوت لم اتبين صاحبه : «كان عبد الله سيفخر بحفيده .»

لكن البدو ليسوا سوى جزءاً من الشعب . فكيف لي أن أعرف سكان المدن؟ كنت أخرج للاختلاط بهم كلما امكنني ذلك ، اختلط بالشبان في مدارسهم . وأبذل كل ما في وسعي لاختراق الجماعة التي يجدها المرء في كل بلد«الطبقة الوسطى» . رغبت دائماً في فعل المزيد . في أحدى الليالي ، كنت وحيداً في القصر ، طرأ لي ما بدا خطة جيدة ـ أن أتنكر وأتحرك بحرية أكبر بين ابناء شعبي . لكن كيف؟ بالطبع ، لم يكن في وسعي أن أخبر أحداً ، ولا أريد ان أخاطر بمواجهة رد الفعل الرسمي المرتعب . ثم واتتني الفكرة ، أن اصبح سائق تاكسي .

قررت أن أفضل مكان العب فيه دور سائق الاجرة هو ما بين عمان والزرقاء ، وهي منطقة عسكرية على بعد ١٧ميلاً من العاصمة . ويمكن لليل أن يكون بارداً ، حتى في الصيف ، بسبب الارتفاع ومناخ الصحراء ، لذلك تلفعت بمعطف ووضعت كوفية حمراء على رأسي لففته بشكل جيد حول رأسي ووجهي . ولم يكن في الإمكان التعرف عليّ ابداً . ومن سيهتم بالنظر الى سائق تكسي؟

عند الساعة الثامنة مساءً ، ولليلتين متتاليتين ، خرجت من القصر وأنا اقود سيارة فورد خضراء قديمة ، تحمل لوحة سيارة اجرة ، واعود عند منتصف الليل وأتهرب من الحرس الذين كانوا يعتقدون أنني اقرأ في غرفتي! قدت سيارة «التاكسي» الخاصة بي على طريق الزرقاء في ليلتين متتاليتين وعرفت الكثير ، وإنه لما يثير الفضول كيف يتحدث الناس في سيارات التاكسي وكأن السائق غير موجود .

احببت دائماً التحدث الى أناس لا يعرفونني ومن مختلف مشارب الحياة . أذكر مرة أنني كنت اقود سيارتي الى جرش وقابلت بدوياً يحمل كيساً ثقيلاً من الخضروات . أشار إلي للتوقف معتقداً أنني أقود سيارة تاكسي ، فتوقفت ، وبعد المساومة على الاجرة صعد الى السيارة ، وسألته : «كيف هو الموسم؟ هل كان الحصاد جيداً؟»

اجابني : «شكراً لله وللملك . كل شيء على ما يرام»

سألته : «ما رأيك بالملك حسين؟ لقد سمعت الكثير عنه . أي نوع من الرجال هو؟ هل هو شخص جيد؟»

«إنه رجلنا بعد الله ، إنه حامينا ويعطينا كل ما نحتاجه . نحن نحبه .»

رددت : «لا أعتقد ذلك» وعندها ثار البدوي وصرخ فيّ : «اياك أن تتجرأ على قول شيء ضد ملكي ، لأنك إن فعلت فساضربك بعصاي هذه حتى يسود جسدك ويزرق!»

في تلك اللحظة لحق الحرس - الذين قضوا اكثر من نصف ساعة في مطاردتي - بسيارتي . ربما انهم انقذوني من التعرض للضرب!

في السنوات الاولى تلك كنت اسافر الى الخارج كلما استطعت ، وأبذل قصارى جهدي لاقامة أفضل العلاقات مع الدول العربية الشقيقة واصدقائنا في العالم الحر .

في احدى المناسبات زرت المملكة العربية السعودية لمقابلة الملك ابن سعود قبل وفاته بفترة قصيرة . كان قد وهن الى درجة انه لم يعد في وسعه السير في ممرات قصره الطويلة ، لذلك كان يستخدم كرسياً بعجلات .

أقمت في أحد قصوره ، حيث جاء لزيارتي في احدى المناسبات . خرجت الى البوابة للقائه . والقصور السعودية كبيرة ولها ممرات واسعة تصل ما بين البوابات وقاعة الاستقبال . حضر الملك على كرسي بعجلات . وفي الوقت نفسه حضر خادم يدفع كرسياً آخر بعجلات . لم يقل شيئاً ، لكنه دفع الكرسي بتحفظ ناحيتي .

أصبحت بحيرة حقيقية ، وقلت متسائلاً : «ارجوا المعذرة؟»

فأجابني احدهم : «إنه لك يا صاحب الجلالة .»

رددت . «شكراً جزيلاً ، إنني على ما يرام ، ولا مانع لدي من المشي قليلاً .»

ثم فجأة تنبهت للامر ، فقد كان مما يقلل من مكانة الملك أن يجلس هو بينما أسير أنا . فجلست على الكرسي ذي العجلات ، وقام احدهم بدفعي بتؤدة جنباً الى جانب مع الملك ، ووجدت صعوبة في النظر الى عيون مساعدي ، الذين بالكاد تمكنوا من إخفاء ضحكاتهم .

وهكذا سارت الحياة في هذا البلد الصغير السعيد ، وعرفت المزيد عن ابناء شعبي . واستمرت مشاكلنا الخطرة مع الاسرائيليين ، لكن اعداءنا لم يحاولوا تحطيم بلدنا حتى العام ١٩٥٥ .

لكن قبل ذلك ، ثمة حدث أود تناوله باختصار وهو أول زواج لي . في ١٩ ابريل ١٩٥٥ ، تزوجت من الشريفة دينا عبد الحميد ، وهي ابنة عم بعيدة لي ، واحدى سيدات العائلة الهاشمية ، كانت تعيش في القاهرة . وهي امرأة في غاية الذكاء تحمل شهادة الماجستير من كامبريدج ، وتكبرني بالسن بضع سنين . في البداية كان يحدوني أمل كبير في أن أتمكن من بناء حياة عائلية سعيدة من هذا الزواج ، وحين رزقت بابنتي عالية كدت أطير من الفرح .

كانت رغبتي دائماً في أن أحيا الحياة السعيدة التي يحياها أي شخص عادي ، لكن ذلك لم يحدث ـ في ذلك الحين كان زواجي فاشلاً تماماً . كان واحداً من تلك الاشياء التي لا يمكن أن تنجح رغم كل الجهود ، وكان من الافضل كثيراً ، ومن الانصاف لكلينا ، وضع حدّ له ، كانت فترة حزينة صعبة . حدثت انتقادات كثيرة لذلك الطلاق ، لكن المبدأ الاساسي في الحياة هو أن يحيا الانسان افضل حياة ممكنة ، بأمانة ، وبغض النظر عن آراء الناس . ومن الافضل للمرء مواجهة هذه الانتقادات بشجاعة وصراحة . بعد ثمانية عشر شهراً من زواجنا انفصلنا وغادرت زوجتي السابقة عمان الى القاهرة .

٥

تعلمت الطيران

في اللحظة التي ادخل فيها قمرة الطيار انسى مشاكلي

لا اذكر متى بدأ حبي للطيران . فحين كنت ولداً صغيراً ، وقبل ذهابي الى المدرسة في مصر بسنوات ، لم اكن مهتماً بالهوايات التي يحبها معظم الاولاد . كان لدي هوى واحداً ـ صور رسومات الطائرات . كنت اجمعها كلها ، أحدث المقاتلات والقاذفات ، ومختلف انواع طائرات الركاب ، الصقها على صفحات كتبي في الامسيات يوم كنت اقيم مع والدي في جبل عمان .

لكن حبي للطيران لم يكن بدافع حبي للسرعة او لنزعة ميكانيكية صرفة . فالطيران عندي جاذبية أعمق بكثير من ضغط الازرار او جذب عصا القيادة . الآن وبعد أن اصبحت طياراً فتح امامي منفذ رائع للانطلاق . ففي اللحظة التي اصعد فيها الى قمرة الطيار انسى كل مشاكلي وقلقي . وما أن احلّق في الجو حتى تتلاشى كل القيود التي تحيط بي بوصفي ملكاً . واصبح مجرد رجل .

لم احلّق مبتعداً عن نهاية مدرج مطار قط من دون أن اتنفس تنهيدة امتنان . ففي الطائرة ، خلافاً لاي مكان آخر ، احس بأنني سيد مصيري . وسيبقى التحليق عالياً في السماء رمزاً للحرية بالنسبة لي .

واجباتي على الارض كثيرة ومتنوعة ، وللحقيقة فان بعضها يتسم بالرتابة الشديدة . لدي عبء ثقيل من المسؤوليات او المهام المقلقة التي عليّ انجازها في كل يوم ، وفي وقت الازمات ، كل ليلة . ولن اكون من جنس البشر إن لم أشعر ، وانا ابن ثمانية عشر عاماً ، بحاجة شديدة للهرب ، ولو لمدة ساعة واحدة . وكان الطيران هو الذي وفر لي صمام الامان ذاك .

ذكرت في صفحات سابقة ، أنني كنت أتوق دائماً الى أن أعيش حياتي الخاصة ، وأصبت بخيبة أمل عميقة حين اضطررت لتولي مسؤولياتي في هذا السن المبكر ، وفي رأيي أني كنت سيء الاعداد لها . حاولت التعلم من الحياة ، يوماً بيوم ، وسنة بسنة . وإنه لامر مهلك بالنسبة لمن يتولى مسؤليات ضخمة أن يصل الى نقطة يعتقد فيها أنه لم يبق شيء يتعلمه . ولهذا السبب اردت دائماً أن انطلق على سجيتي حين كنت فتياً . فكل ما تستطيع عمله بنفسك ، لتثبيت شيئاً لنفسك ، هو مصدر قوة اضافية . الطيران زودني بهذا الشيء بالضبط . فالمعيار الأخير للطيار هو ، في نهاية الامر ، قدرته على البقاء . وفي كل مرة أنطلق فيها محلقاً بطائرة نفاثة أشعر أنني قد حققت شيئاً يعتمد بالكامل على جدارتي .

ثمة سبب آخر . كنت أشعر بوجود فجوة واسعه في قدرة الأردن على حماية نفسه بالنظر الى السياسات القائمة في ذلك الحين . فلدينا جيش ممتاز ـ الافضل في العالم العربي ـ لكن من دون سلاح جوي حقيقي . وفي حين أن الفيلق العربي (كما كان يدعى في ذلك الحين) قادر على حمايتنا براً ، إلا أننا كنا مضطرين الى الاعتماد على الغير للحصول على دعم جوي . ولم أكن احب أن يعتمد الأردن على مساعدة من الخارج . فقد يحدث أي شيء لمنع وصول تلك المساعدة . ومع تهديد اسرائيل المستمر لنا ، لم يكن من الحكمة البقاء تحت رحمة دول اخرى (مهما كانت صديقة) قد تتغير سياستها تجاهنا لاسباب غير معروفة .

حاول جدّي رأب هذا الوضع الشاذ فأسس نواة لسلاح جو صغير ، لكن فشلت كل محاولاته لزيادة قوة هذا السلاح . فالطائرات القديمة التي اشتريناها لم تكن جيدة ، وحين توليت السلطة ، كانت الحكومة تفكر ببيع الطائرات القليلة القديمة التي لديها .

كان لا بد من فعل شيء ما ، الاّ أنه ، وبناء على الخلفية سابقة الذكر ، كان مفهوماً الاّ يولع الشبان بالطيران بسهولة . فاذا ارادوا الانتساب الى القوات المسلحة ، كانوا ينضمون الى الفيلق ويبدلون الحصان او الجمل بسيارة لاند روفر او حاملة رشاس برن . وكنت آمل أنهم اذا رأوا ملكهم وقد اصبح طياراً ، أن يحذوا حذوه ، وكنت محقاً .

ما زلت اذكر بوضوح ذلك اليوم من عام ١٩٥٣ حين قررت التغلب على المعارضة التي سيثيرها قراري هذا . كان سلاح الجو الاردني بقيادة العقيد جوك دالجليش ، وهو الشخص ذاته الذي طار بي عائداً الى عمان يوم اغتيال جدّي في القدس («عقيد» هي رتبته ضابطاً في الفيلق العربي ، وكان قائد جناح أعاره سلاح الجو الملكي البريطاني إلى الأردن .) تحدثت معه عن الطيران وطرت معه مرات عديدة جالساً الى جانبه ، على مقعد مساعد الطيار . وفي احد الايام استدعيته وقلت له : «أكاد أُجن في هذا المكتب! عليك أن تعلمني الطيران .»

لكن حتى دالجليش ، وهو اسكتلندي صلب ، فوجىء بكلامي .

«لكن ، سيدي ، ستواجه كل المعارضة التي في العالم!»

قلت له : «لا يهمني ، سنواجه تلك الاعتراضات كل على حده . لكني اريد أن اصبح طياراً .»

استمرت الاعتراضات تتوالى عليّ بشكل يومي طوال اسبوع او اسبوعين ، من الاحزاب السياسية والجماعات الاخرى ، من افراد عائلتي ، ومن الاصدقاء . لكني اصريت على أنه ليس ثمة خطر محدد في الطيران ؛ فلا شيء في الحياة خطر اذا تقرب الانسان منه بحذر ، وكررت ما أومن به بعمق - إن جاء أجل المرء ، فسوف يموت ، مهما اتخذ من احتياطات .

في النهاية ، تغلبت على كل معارضة ، بدأت اتعلم ، رغم أن أحداً لم يخبرني في البدء أنه لن يسمح لي بالطيران منفرداً . الطيران مع مساعد طيار شيء مختلف ، لكن أحداً لن يتحمل مسؤولية تركي في الجو منفرداً .(طيف ايام شبابي - حين لم يتحمل أحد مسؤولية اعطائي رخصة قيادة وكان عليّ ان أسوق من دون رخصة!)

حل يوم أول طيران لي . وضع العقيد خطة للقيام برحلة فوق عمان بطائرة صغيرة من طراز «أوستر» . ولا اعلم إن كانت فكرته هي جعلي اتخلى عن طموحي ، لكن من المؤكد أنه اعطاني كل شيء مذكور في الكتب عن الطيران . الاوستر طائرة صغيرة للغاية ، وغير قوية ، وقد حلّق بي وقام بأكبر قدر ممكن من الألعاب البهلوانية الجوية التي

يمكن القيام بها خلال ساعة . فتحلّق وتقلب ، وهوى بالطائرة منقضاً ، وحين هبطنا على الارض شعرت فجأة بغثيان شديد جداً . كانت تلك المرة الاولى والوحيدة التي اصاب فيها بدوار الجو .(حاول داجليش مرات كثيرة ، بعد تلك المرة ، أن يجعلني اصاب بالدوار ، لكنني كنت قادراً على الدوام أن اكشر وأنا اقول له : «لا فائدة ، ايها العقيد ، لن تجعلني اصاب بالغثيان مرة اخرى .») بطريقة او بأخرى كنت اتمكن من الخروج من طائرة الاوستر ، وكان العالم كله يتراقص امام عيني . اما داجليش فكان يقفز من الطائرة من دون أن تهتز له شعرة ، وينظر الجميع الينا وهو يسألني بصوت متقطع فيه رنه خبث :«متى تريد الطيران مرة اخرى ، يا صاحب الجلالة؟»

فاجيب وانا بالكاد قادر على بلع ريقي :«غداً بعد الظهر .»

أعود بعد ذلك الى القصر وأنتظر اليوم التالي . وأنسى على الفور تقريباً دوار الجو الذي اصابني . ومع ذلك قررت أن ذلك السلوك غير اللائق يجب الا يتكرر ، لذلك كانت مهمتي في تلك الأمسية البحث عن افضل حبوب لمنع الغثيان يمكن العثور عليها في عمان . واعتدت ، طوال فترة لا بأس بها بعد أول طيران لي ، أن املأ بطني بحبوب منع الغثيان ، واكون من ثم قادراً على تقييم اداء داجليش بشكل أفضل .

داومت على الذهاب الى المطار يومياً ، خمسة ايام في الاسبوع ، طوال شهري حزيران وتموز / يونيو ويوليو . واخبرني العقيد بأنني طيار بالسليقة ، لكنني لم اوافقه على ذلك . فبعض الناس يجد مشاكل كبيرة مع الآلات . فمن الصعب عمل كل هذه الاشياء في الوقت نفسه . وكنت في البداية قلقاً من رد فعلي البدني ، فالطيران لا يتفق ومشاكل الجيوب الانفية التي كنت اعاني منها منذ الصغر .

طرت ما يقارب عشر ساعات في طائرة الاوستر قبل الانتقال الى طائرة مريحة اكثر بمحركين من طراز «دوف» . اذكر أنني في مرحلة من المراحل اصبح ادائي مثيراً للشفقة . بدأت بالقيام بعمليات هبوط ممتازة ، ثم فجأة انقلب الوضع ، فاضطربت وقلقت ، الى أن جاءني داجليش ذات يوم وقال لي : «لا تقلق يا صاحب الجلالة ، لن تستطيع القيام بهبوط جيد ابداً ، ما لم تقم بعدد من عمليات الهبوط السيئة .»

بعد شهر ، اصبحت جاهزاً للطيران منفرداً ، لكنني لم اكن قد عرفت بأن ذلك ممنوع عليّ . في رحلتي الثالثة على طائرة الدوف ، نهض داجليش عن مقعد مساعد الطيار في اثناء قيامي بقيادة الطائرة ، وقال لي : «حسناً ، يا صاحب الجلالة ، هلا قمت بالهبوط بالطائرة؟» ثم تراجع الى مقصورة الركاب واغلق باب قمرة القيادة خلفه .

ذعرت قليلاً ، لكنني تمالكت نفسي وقلت في سري : «إن كان هذا ما يريده ، فسوف أجربه» ، وهبطت بالطائرة ـ ورغم انني اقول ذلك عن نفسي ، فقد هبطت بها بشكل جيد جداً .

رغم وجودي وحيداً في قمرة القيادة حين لامسنا الارض ، فانني كنت بعيداً عن الطيران منفرداً . وحين كنا نخلع ملابس الطيران ، سألت داجليش : «كان ذلك في مثل اتقان الطيران منفرداً ، اليس كذلك؟ فمتى استطيع الطيران وحدي؟»

بدا محرجاً وقال : «اخشى يا سيدي أن علينا الانتظار بعض الوقت؟»

«لماذا بحق السماء . . .؟»

«سأشرح لك ، سيدي . . .»

صرخت محتجاً : «لكن ليس ثمة ما يحتاج الى شرح ، في الحقيقة أني كنت اطير منفرداً ، ألم اكن؟ لو حدث وتحطمت الطائرة وانت جالس في مقصورة الركاب ، لما كان في استطاعتك أن تساعدني قط .»

تنهد داجليش ، وزرر أزرار بزته ، وروى لي القصة كاملة . فقد صدرت اليه تعليمات بألاّ أطير منفرداً ابداً .

كنت منزعجاً جداً الى درجة الغضب . عدت الى القصر خائب الآمال . كان الامر سخيفاً للغاية ، واشبه باخباري أن ليس في وسعي قيادة سيارة بسرعة مئة ميل في الساعة الاّ اذا كان معي سائق يجلس في المقعد الخلفي . ورغم ذلك ، لم استطع الأصرار ، فاذا ما حدث خطأ ما ، فان اللوم سيقع بالطبع على سلاح الجو .

قررت أن الوقت قد حان لمعالجة هذه المسألة بطريقتي الخاصة . كانت الطائرة التي

احلّق بها تحت حراسة دائمة ، وكان الجميع يعرفون ، من الميكانيكي الى ضباط برج المراقبة ، عن قرار المنع . انتظرت فرصة ملائمة الى أن واتاني الحظ .

وصلت الى المطار بعد ظهر احد الايام لأجد أن احدى الطائرات قد خرجت عن نهاية المدرج . لم يكن الحادث خطيراً لكن الجميع كانوا مشغولين بحيث لم يلحظوا وصولي ، ولم يكن ثمة أحد الى جانب طائرتي الدوف . صعدت اليها بسرعة البرق ، أدرت المحرك ، وصرخت على المهندس الذي ركض في اتجاهي :«سآخذ مساعد الطيار في طريقي .»

كانت تلك الجملة كافية بالنسبة له . وفي غضون بضع دقائق كنت أحلّق في الجو . وسرعان ما هرع الجميع الى برج المراقبة لمتابعتي . كنت في غاية السعادة ، وأنا ادور فوق العاصمة ، وأنظر الى أسفل من قمرة القيادة التي اجلس فيها منفرداً . لم أشعر بأي خوف ـ وربما كان خوفي اقل بكثير من خوف الرجال في برج المراقبة! بقيت محلقاً فترة لا بأس بها من الوقت ثم عدت وقمت بعملية هبوط ممتازة .

حققت هدفي ، ولم أعد اسمع أية اعتراضات ، وطرت منفرداً مرات عديدة بعدها .

بلغ مجموع الساعات التي طرتها حتى الآن اكثر من ألف ساعة في انواع مختلفة من الطائرات . وبعد فترة وجيزة من طيراني منفرداً ، تحولت الى قيادة الطائرات النفاثة . وبدأت أطير مع سلاح الجو الأردني ، واضفت بذلك إثارة اخرى الى حياتي . اصبحت عضواً في فريق يشارك في مباريات اطلاق النار ، والالعاب البهلوانيه الجوية والتشكيلات الجوية . وربما كان ذلك اكثر طيران استمتعت به . فالمناورات المعقدة كانت تجبرني على التفكير والعمل بسرعة مضاعفة . كنا نحلق معاً في تشكيل قتالي ، وهجمات على ارتفاع منخفض ، وبعد ذلك ، وحين نعود الى نادي الطيارين ونخلع بزة الطيران ونعلقها ، كنا نناقش ما عملناه ، وننتظر بفارغ الصبر تمرين اليوم التالي .

في جميع ساعات الطيران التي قمت بها لم يحدث معي سوى حادثين طفيفين . حدث الاول قبل أن اصبح مستعداً للطيران منفرداً في طائرة نفاثة . كان لدينا طائرتان من طراز«فامبر ت ـ ٢» . كنت انا وداجليش قد بدأنا الهبوط في احداهما ووصلنا الى

منتصف مدرج المطار حين انهارت العجلة اليسرى للطائرة . فاستدارت الطائرة على نفسها وانزلقت الى أن توقفت مرتكزة على خزان الوقود الاضافي في الطائرة .

كثيراً ما توقعت لحظات مثل تلك وأعجب من سرعة رد فعلي على تلك المواقف . لم اقلق ، وفي خلال ثوان كنا خارج الطائرة .

لم تكن الاضرار جسيمه ، لكن ضابطاً في سلاح الجو البريطاني هرع الى موقع الحادث في اللحظة التي كنا نحاول فيها تثبيت العجلة . وكان تعليقه ، كما اعتقدت ، نوعاً من التشجيع الساخر . كيف حدث الحادث؟ قال أننا ربما هبطنا قريبين جداً من نهاية المدرج وكان علينا أن نكبح عجلات الهبوط كي نقف في الوقت المناسب! فانهارت العجلة وهذا كل ما في الامر .

الا أن منتقدنا ذاك واجه مشكلة صغيرة خاصة به بعد فترة وجيرة . كان يحلق بطائرة تابعة لسلاح الجو البريطاني من عمان الى المفرق ، وفي رحلة العودة غادر المفرق في الساعه الثانيّه بعد الظهر . ثم انقطعت اخباره لمدة ساعات . اخيراً في الساعة الثامنة مساءً بدأت عملية البحث عنه . بعد فترة وجيزة عُثر على السيد المحترم ، وكان يشعر بالرثاء لنفسه . وما حدث انه في اثناء العودة الى عمان غير مساره وقرر الهبوط على ارض طينية منبسطة قرب الازرق لرؤية إن كان ثمة بط بري هناك . والخطأ الوحيد الذي ارتكبه في عملية الهبوط ـ وهو امر يمكن أن يحدث لاي طيار ـ هو أنه نسي انزال عجلات الهبوط!

الحادث الثاني حدث في اثناء التحليق بطائرتي «الروف» عائداً من القدس مع مرافقي الخاص . حين اصبحت فوق مطار عمان اكتشفت فجأة أني غير قادر على انزال عجلات الهبوط . كان واضحاً أن ثمّه خطأ في ميكانيك الطائرة . حاولت المرة تلو الاخرى ، من دون فائدة . في النهاية ، استخدمت اخر سهم لدي ـ عبوة الهواء المضغوط التي تدفع عجلة المقدمة خارج بيتها . وفشل هذا الحل يعني القيام بهبوط اضطراري . لحسن الحظ نجحت الطريقة . بعد ذلك واجهت بعض المشاكل مثل توقف محرك طائرتي النفاثة في اثناء الطيران عدة مرات ، والطيران في ظروف صعبة للغاية ، الا أن الأمور

انتهت على خير .

بعد الطائرات النفاثة ، بدا لي أنه لم يعد ثمة شيء اتعلمه عن الطيران . وبقي الامر كذلك حتى العام ١٩٥٨ حين قررت اتقان التحليق بطائرات الهيلوكبتر . وبدأت في الاحتفاظ بطائرة هيلوكبتر في الساحة الخلفية لقصري ، ليس من اجل راحتي ، بل لانني احببت القيام بزيارات مفاجئة لمعسكرات الجيش او المشاريع المدنية ، وكنت اريدها زيارات مفاجئة «حقيقية» . وكانت الهيلوكبتر طائرة مثالية للتنقل في ارجاء البلد بسهولة ومن دون أن يحس بك أحد . لم أشأ الاعتماد على طيار ، فاتبعت دورة تحويل الى طائرات الهيلوكبتر ، وكنت سعيداً لأني تمكنت من الطيران منفرداً بعد طيران تدريبي لم يزد عن ساعتين ونصف .

كانت روح الزمالة والجو غير الرسمي للطيران يعنيان الكثير بالنسبة لي . وكثيراً ما كنت أقود السيارة متجهاً الى المطار وأعرج على منزل يقع في أحد اطرافه حيث يقيم دالجليش مع زوجته وطفليه . في بعض الاحيان ، كنت اصل دون موعد سابق لاسأل متى تكون الظروف مواتية للطيران . وكانت هذه الزيارات غير الرسمية تتمخض عن نوادر مدهشة احياناً . ذهبت الى بيت دالجليش عصر احد الايام وكان ابنه الصغير بروس البالغ من العمر خمس سنوات يلعب خارج المنزل . وكانت زوجة العقيد قد اخبرتني في وقت سابق أنها دأبت على تعليم ابنها كيف يحييني بأن يتقدم اليّ وينحني قائلاً :«كيف حالك ، يا صاحب الجلالة؟»

كنا نتناول كوباً من الشاي حين فتح الباب واندفع بروس الصغير راكضاً الى الداخل . تجمد في مكانه حين رآني . رأيته يجهد نفسه كي يتذكر ما علمته امه . ثم انفرجت اساريره ، وابتسم بغبطة ، وسار في اتجاه المقعد المقابل للمدفأة ، وانحنى لي انحناءة قصيرة للغاية ومد لي يده وصرخ بصوت عالٍ : «مرحباً ، ملك!»

احببت ذلك ـ كما احببت بعد سنة من ذلك التاريخ ، في اثناء زيارتي للولايات المتحدة ، تلك التحية التي كانت تتكرر كثيراً «هاي ، ملك!» . لكني احببت بالفعل عدم التكلف . احببته كجرعة مضادة للتزمت ـ وهو ما وفره الطيران لي .

في احدى المرات ، حين فُقدت احدى طائرات سلاح الجو البريطاني قرب عمان ذهبت مع داجليش للبحث عنها فجراً . اتفقنا أن نلتقي في منزله في الساعة ٤,٣٠ دقيقة صباحاً ، لكني وصلت مبكراً وحين فتحت الباب كان داجليش يحلق لحيته .

قلت : «هل جئت مبكراً جداً؟»

اخبرتني زوجة العقيد أنها تعد الشاي والساندويشات .

فقلت لها : «جيد ، اريد بعضاً منها» ، واضفت : «أعدي انت الساندويشات وسوف أعد أنا الشاي .»

ثم اتجهت الى المطبخ ، ولم تستطع احتجاجاتها أن تثنيني . ثمة مغزى لحقيقة اني اردت اعداد ابريق من الشاي في الساعة الرابعة من فجر أحد الايام . ربما هو أنني كنت أومن بقوة أن الملك هو كبير العائلة وخادم أمته . وقد جاهدت ، منذ بداية تولي العرش ، لازالة جميع الحواجز ، وأن اعيش كفرد من افراد الاسرة ، من الفريق الذي هو الأردن . وحين عرضت القيام باعداد ذلك الكوب من الشاي ، قبل بزوغ الفجر ، احسست أنه جرى قبولي عضواً في فريق الطيارين . فانزالت الحواجز ، وسمح لي لبرهة من الوقت ، أن انسى بانني ملك .

٦

مشاكل الدول العربية

لم تفرز الأزمة حتى الآن قادة حقيقيين

بعد فترة وجيزة من اعتلائي العرش ، وجدت نفسي غارقاً في مصائد سياسات الشرق الاوسط وأخطارها . وتبين الفصول التالية مدى خطورة التهديدات التي كانت تواجه بلدي وشخصي . لقد سعى الاعداء من دون توقف تقريباً الى تدمير بلدنا الصغير : صغير ، الاّ أنه بالغ الاهمية بسبب موقعه الاستراتيجي ، ليس من الناحية الجغرافية ، بل لموقفنا الثابت من قضية الحرية ومناهضة الشيوعية وصراعنا لخدمة مبادىء الشعوب العربية والثورة العربية الكبرى وأهدافهما .

حين تفجرت الاضطرابات في الشرق الاوسط ، نادراً ما تمكن العالم الغربي من فهم الاسباب الاساسية الكامنة خلفها . فمجموعة المشاكل العربية ، غالباً ما قزمها الغرب والقى اللوم فيها ، اما على الشيوعية ، او القضية الفلسطينية ، او ناصر ، او قاسم ، او على «العرب» ، بدلاً من ادراك أن قوى مختلفة تشد في اتجاهات مختلفة هي سبب ما نلاقيه من صعوبات .

ربما كنا مُلامين جزئياً بسبب النقص في معارف الغرب ؛ لكن الصحيح ايضاً أن ثمة عدداً مذهلاً من الكتب السيئة للغاية كتب عن الدول العربية . ولم يتمكن سوى قلة من الكتاب الغربيين من الكتابة بطريقة موضوعية وذكية عن مشاكلنا . والصحافة اما منحازة او سيئة الاطلاع . اما اذا اراد المرء أن يفهم اسباب الاضطرابات العنيفة والاحقاد الشخصية المرة التي سأتحدث عنها بعد قليل ، فلا بد من معرفة شيء عن الخلفية . وسوف أعرض هذه الخلفية الآن ، لأشرح باختصار الاحداث التي أوصلت العالم العربي الى النقطة التي وصل اليها ، واعداد المسرح للاحداث التي ستتلو .

ثمة مثل عربي يقول : «السلام يتحقق بالتفاهم ، وليس بالاتفاق .» لذلك ، فان من

الضروري ، ولمصلحة السلام ، أن يكون ثمة تفاهم اكبر ما بين الامم . وكشعب ، فاننا نسعى لتحقيق اهدافنا الوطنية .

للاسف ، فاني اشير الى الامم الحرة فقط . لدينا علاقات مختلفة مع دول العالم الشيوعي ، حيث لا وجود لحرية الفكر وحرية العمل ، وحيث تُشن هجمات لاهوادة فيها تنكر على الناس حقهم في اي هدف شخصي فيما عدا العبودية للدولة ، والحق في اي هدف قومي ، سوى الحق في الخضوع لديكتاتورية دولة اجنبية .

لهذا السبب نحن بحاجة لفهم بعضنا البعض بشكل افضل . فالشيوعية لا تبقى الا بتقسيم الشعوب والامم . إنها تتغلل في الثغرات الناتجة عن أوضاع داخلية تعيسة ، وتدق الاسافين بين الامم كلما افتقر بعضها الى تفهم اهداف بعضها الآخر وتطلعاته . وبالنسبة للامم الصغيرة فان هذه التكتيكات تؤدي بها الى الدمار . ويبدو أن مدى الوضوح الذي تقّيم فيه الدول الصغيرة مدى الخطر الذي يحيق بها يختلف حسب حجمها ومدى بعدها عن الدول الحرة القوية . الا أن الفهم المسبق لمشكلة الامة التي تواجه محنة قد يساعد على تجنب الازمة . في الماضي ، كان ادراك الخطر يأتي دائماً متأخراً جداً بحيث أنه لا يفيد . ونحن نعرف هذا جيداً في الأردن ، لاننا بالكاد افلتنا من الدمار المرة تلو الاخرى .

فشعور الدول الصغيرة ، التي تشكل خط الحرية الامامي ، بأنها تقف وحدها او يساء فهمها يؤثر جداً في قواها الكامنه ومعنوياتها . قد تفهم الدول الكبرى مدى اهميتها الاستراتيجية ، لكنها لا تفهم دائماً تطلعاتنا القومية . وهذا الفهم مهم للمصلحة المشتركة لدول العالم الحر .

في المملكة الأردنية الهاشمية نحن متحمسون لتحمل مسؤولياتنا تجاه الشعوب الحرة الاخرى ، لتبرير وجودنا . وكأمة مقسمة ، فنحن مرتبطون بعضنا ببعض بالروابط التي تشدنا يومياً ، وتدفعنا اليها الضرورة ، والمصالح المشتركة ، والوطنية ، وفوق كل شيء ما يعرف بالقومية العربية .

يتوجب عليّ أن احاول تعريف القومية العربية كماهي حقيقة ، وأن أشرح تطوراتها

واهدافها . وبذلك اطرح قضية العالم العربي . اعرضها بوصفي شخصاً ورث مسؤولية خدمة شعب معتد بنفسه في الرحلة الصعبة الطويلة لتحقيق اهدافه .

لقد جرى التعتيم على الطبيعة الحقيقية للقومية العربية ، من جانبنا نحن العرب ، في بعض الاحيان ، واحياناً من جانب آخرين يعتقدون أن القومية العربية تضر بمصالحهم . ونتيجة لذلك ، فان العديد من اعمال بعض الدول الغربية الكبرى ، وخاصة بريطانيا وفرنسا ، افتقر الى بعد النظر ، وكانت هذه الدول تعمل ضد مصالحها .

القومية العربية هي قوة كامنة هدفها الخير . فهي تربط العرب بعضهم ببعض ، حتى حين يتوزعون شيعاً ، وتدفعهم صوب تلاحم اكبر بغض النظر عن الاختلافات الكبيرة في الحكام والانظمة .

ولدت القومية العربية حين كان العالم المتمدن غارقاً في عصور الظلام ، وحين كانت العروبة تسهم اسهاماً كبيراً في تقدم البشرية . كما قامت حضارات عربية معزولة في اليمن ، ومكة ، والبتراء ، وتدمر ، وجنوب سوريا ، والعراق ، لكن التاريخ العربي الحقيقي بدأ بالاسلام في العام ٦١١ميلادي . من الناحية المعنوية ، كان تأثير العقيدة الجديدة عظيماً ، لكن تأثيرها السياسي كان يرجع ، وبشكل رئيس ، الى مفهوم المساواة بين الجميع ، بغض النظر عن العرق . وهو المبدأ الاول من مبادىء الاسلام .

نعبر عن هذه المثالية بكلمة «التقوى» ، التي تجمع ما بين التسامح ، وحب الله ، والعمل الصالح ، وفهم عميق لجذور العدالة . باختصار ، فان اخلاق الاسلام وسنّته هي المبادىء التي نتمسك بها في العالم الحر . وهذه المفاهيم الخالدة قادت العرب الى إقامة امبراطورية اسلامية امتدت من اسبانيا الى الصين ، صهرت مختلف الاجناس والحضارات في حركة تقدمية خلاقة تقوم على أفضل سمات ماضيهم اضافة الى ماضينا . ودعمت تطور معظم الحضارات المتطورة في زمنها ، وفتحت حقولاً جديدة في مجالات العلم والطب والفن والفلسفة ؛ وما زال العالم يتمتع حتى اليوم باسهامات الاسلام . وهذا التقليد الذي تمتد جذوره الى الاسلام ـ وليس الى بعض المفاهيم السياسية الجديدة ـ هو اساس القومية العربية اليوم .

لسوء الحظ ، احاط الاعداء بالامبروطورية العربية ، ودمرت على يد الغزاة المغول . وفي اثناء تمتع اوروبا بعصر النهضة ، غرق العرب في الظلام . ومع ذلك ، ورغم اربعة قرون من الحكم العثماني ، بقيت الكرامة والكبرياء .

بعد حملة نابليون على الشرق الاوسط ، تأثر العرب بالقومية الاوروبية والاستعمار . لكن ذلك ما كان ليحرك العرب لولا ظهور حركة قومية جديدة هي تركيا الفتاة ، التي بدأت منذ اوائل القرن العشرين في تحويل الامبراطورية العثمانية المسلمة الى امبراطورية تركية ، يتحول فيها العرب الى تابعين خاضعين . وبهدف القضاء على المعارضة العربية شنق الاتراك الزعماءَ العرب في دمشق وبيروت . وهذا ما حرك القومية العربية أكثر من أي شيء آخر .

توجه العرب الى مكة والى العائلة الهاشمية لقيادتهم . ولكون الهاشميين من نسل النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد حظوا بالاحترام في كافة انحاء العالم الاسلامي . وحين وقف الاتراك الى جانب الالمان في الحرب العالمية الاولى ، ناشد الزعماء العرب في كل من العراق وسوريا ولبنان والأردن ، الشريف حسين ، زعيم العائلة الهاشمية ، التحرك ، فقام بالاتصال بالحلفاء عن طريق ابنائه ، ووضعت بنود اتفاق معين بين العرب والحلفاء جرى بموجبه الاتفاق على الثورة ضد الاتراك ، وهو ما يعرف بمراسلات الحسين مكماهون . واعترف البريطانيون ، نيابة عن الحلفاء ، بالشريف حسين زعيماً لشعبه ، وشجعوا تصميمه على تحرير العالم العربي ، ووعدوا بدعم قيام دولة عربية حرة .

بدأت الثورة العربية في حزيران / يونيو ١٩١٦ تحت قيادة الشريف حسين . وكان قادتها هم ابناءه علي وعبد الله وفيصل . وبالتعاون مع عمليات القوات البريطانية بقيادة الجنرال اللّنبي ، تقدمت القوات العربية شمالاً ، منطلقة من مكة ، فوصلت الى حلب في العام ١٩١٨ ، وحققت حلم العرب بالتحرر ، وأوفت بالتزامها بتقديم المساعدة حتى هزيمة الاتراك والالمان وانتصار الحلفاء في آسيا العربية .

ماذا حدث بعد ذلك للاتفاق المبروم بيننا وبين الحلفاء؟ الجواب مهم لانه يفسر

الكثير من المواقف العربية تجاه الغرب اليوم . قد تكون مطالعة غير سارة بالنسبة للقراء الغربيين ، الاّ أن علينا مراجعة الوقائع منذ انتصارنا المشترك في العام ١٩١٨ حتى اليوم الحزين من العام ١٩٤٨ ، الذي وصلت فيه مأساة فلسطين ذروتها .

في ذلك السجل سنجد اسباب المرارة التي نحس بها تجاه العالم الخارجي ، وفقداننا لحسن الحكم على الامور بين الحين والآخر ، وظروف التخلف في بعض المناطق العربية ، وسبب النجاح النسبي للشيوعية في اجزاء من وطننا ، والاستياء من خلق اسرائيل ، والاوضاع المأساوية في الجزائر . والنتيجة المباشرة لكل ذلك ، قد يبدو العالم العربي ، ومعه القومية العربية ، معادياً وسلبياً ومشوشاً .

كل ذلك ما كان ليحدث لولا الاعمال الفظيعه التي ارتكبها حلفاؤنا ـ اعمال تشير الى أن زعماءهم يفتقرون الى بعد النظر وحتى المبدأ . فبعد توقيع معاهدة السلم ، برزت الى النور وثيقتان لم يكن العرب يعرفون عن وجودهما ، الاولى اتفاقية سايكس ـ بيكو مابين البريطانيين والفرنسيين ، التي جرت في العام ١٩١٦ ، بعد أشهر قليلة من مراسلات الحسين ـ مكماهون ، التي ألزمت الحلفاء القيام باعمال مختلفة تماماً عما اتفق عليه مع العرب . والثانية ، وعد بلفور ، الذي صرح فيه البريطانيون انهم «ينظرون بعين العطف» الى إقامه وطن قومي لليهود في فلسطين .

عكست اتفاقية سايكس ـ بيكو ووعد بلفور ، والاعمال التي انبثقت عنهما خيانة الغرب ، وكانت صدمة مرة وخيبة أمل لدى العرب . اولاً ، بدلاً من الفوز باستقلال كامل وتوحيد للعرب ، قُسمت آسيا العربية الى مناطق خاضعة للانتدابين البريطاني والفرنسي ؛ ثانياً ، ومن دون معرفة الشعب العربي ، الذي كان يشكل في ذلك الحين ٩٣ بالمئة من السكان ، وعدت بريطانيا باقامة «وطن قومي» لليهود في فلسطين . وكانت النتيجة الاولى خلق اسرائيل مما يشكل خرقاً فاضحاً لمبدأ تقرير المصير ، اما الملك حسين الاول ، الذي رفض أن يفاوض على شبر مربع واحد من الارض العربية في فلسطين ، فقد نفي لمدة ست سنوات .

في سوريا انتهك وعد آخر ، حيث دخلت القوات الفرنسية دمشق وأجبرت الملك فيصل الاول على الرحيل عنها . وفي العراق ، كان الوضع مماثلاً الى أن اجبرت الثورة

هناك بريطانيا على التسليم بمطالب الشعب واصبح فيصل ملكاً على العراق .

في الأردن ، كان رد فعل الملك حسين بن علي ارسال ابنه عبدالله مع كل ما يتوفر لديه من قوات للتقدم شمالاً ووقف التقدم الفرنسي على دمشق . غادر عبدالله المدينة المنورة في الحجاز في نهاية تشرين الاول / اكتوبر ١٩٢٠ ، ووصل الى معان في ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر . تطلب منه الانتقال مسافة بضع مئات من الاميال سبعة وعشرين يوماً ـ بسبب نقص الوقود ، ولأن خطوط السكة الحديد كانت قد دُمرت في بعض المواقع . وعند وصوله الى الأردن ، كانت القوات الفرنسية قد قضت على المملكة العربية في سوريا .

في ٢٠ اذار / مارس ١٩٢٠ عقد تشرشل (الذي كان وزيراً للمستعمرات في ذلك الحين) مؤتمراً في القدس مع جدّي ، شكلت على أثره امارة في شرق الأردن خاضعة للانتداب البريطاني ، على أن يكون جدّي ، اميراً عليها . وفي ٢١ نيسان / ابريل تشكلت أول وزارة في شرق الأردن .

كان بلداً صغيراً لا يزيد عدد سكانه عن ٣٥٠ الف نسمة . ارضه وعرة ومثيرة ، قسم منها جبلي والقسم الآخر صحراوي ، مع قطاع خصب صغير عند حدوده الغربية ، اي الجزء الجنوبي من شرق الأردن . واصبح للبلد منفذ على البحر في العقبة . كانت المدارس قليلة ، ومن الناحية العملية ، لم يكن فيه رجال شرطة ، ومعظم أحراش البلد قضي عليها منذ زمن ، اما لعمل عوارض خشبية لسكة حديد الحجاز (او حتى وقود للقطارات) . لكن جاذبية جدّي جعلت الآلاف ينضوون تحت لوائه . أحبه البدو كأب لهم ، وتوجه اليه السوريون في الشمال ، الذين شعروا بالمرارة بسبب احتلال الفرنسيين لبلدهم ، طالبين المساعدة . أقام بلاطه في عمان ، وهي قرية صغيرة لم يكن عدد سكانها يزيد عن ٣٠٠٠ نسمة على جبال الادوميين ، حيث ترك اوغ ، ملك الباشان ، وهم آخر العمالقة ، فراشه المصنوع من حديد ، كما جاء في احد اسفار التوراة .

عند نشوب الحرب العالمية الثانية ، عرضت امارة شرق الأردن ، على الفور ، القتال الى جانب بريطانيا ، ولعب الفيلق العربي دوراً شجاعاً على مسرح الشرق الاوسط . فشارك في تحرير دمشق من قوات فيشي ، اضافة الى مشاركات أخرى . ومن مزايا جدّي

انه لم يتذبذب قط في مبادئه او صداقته لبريطانيا ، رغم أنه كان يشعر بألم عميق للطريقة التي حنثت فيها بوعودها للعرب بعد الحرب العالمية الاولى ـ انتهاك الوعد جعل تشرشل يصف السلوك البريطاني بأنه «إفساد للمبادىء» ، وأدانه لورنس بأنه «خداع حقير» ، واكد المؤرخ جورج انطونيوس على أنه «نتاج جشع ، قاد الى الريبة ، التي قادت من ثم الى الغباء .»

في أيار / مايو ١٩٤٦ انتهى الانتداب البريطاني على شرق الأردن ، وأسست المملكة الأردنية الهاشمية . وحكم جدّي بحكمة وعدل كملك . وعمل من دون كلل لحل القضية الفلسطينية . بعد حرب فلسطين ، كما سأشرح فيما بعد ، ضُم الجزء الذي انقذته القوات الأردنية الى الأردن ، بموافقة السكان هناك . وهكذا حين اعتليت العرش ، كان عدد السكان قد وصل الى مليون ونصف المليون نسمة .

ما تقدم يفسر السبب في أن لدينا اليوم عدة دول عربية منفصلة ، اضافة الى اسرائيل ، بدلاً من دولة واحدة ، اضافة الى مليون لاجىء هو الثمن الذي دفعه العرب مقابل اقامة اسرائيل . الحقيقة التي لامناص منها ، هي أن اسرائيل ، التي تحركها السياسات التوسعية الحالية للصهيونية ، لا يمكن أن تفرز سوى الظلم ، والخطر ، والكوارث . لذلك يتعين على العالم أن يواجه حقيقة أنه ما لم يجرِ ايجاد حل عادل للمأساة الفلسطينية فلن يكون ثمة سلام وستقرار في الشرق الاوسط . والدول التي تبني سياستها على اساس «الامر الواقع» لوجود اسرائيل ، تتناسى أن العلاقة التي مكنت العرب واليهود من العيش معاً كجيران واصدقاء طوال قرون دمرها الفكر والعمل الصهيوني . وطالما أن الصهيونية هي القوة السياسية المسيطرة في اسرائيل ، فلا يمكن اعادة الحرارة الى تلك الصداقة من جديد .

إن عواقب تقسيم الوطن العربي بادية للجميع . وأحد اسوأ نواحي هذا التقسيم الصورة المؤسفة التي نعرضها للعالم عن الطريقة التي يجب اتباعها لانقاذ العالم العربي ـ اي القومية العربية الحقّة . المعنى الصحيح للقومية هو ولاء الفرد الكامل للعالم العربي ككل ؛ وهي تعني أن على الأردني أن يكون عربياً أولاً ومن ثم أردنياً ، والعراقي أن يكون عربياً أولاً ، وعراقياً ثانياً . لكن الولاء لمفاهيم ادنى من ذلك اضعفت قدرتنا على اتباع

سياسات بناءة . وعملت تلك المفاهيم على إبطاء تقدمنا لتحسين مستويات معيشتنا وتعليمنا ، واجراءات اخرى هدفها الخير العام .

اما مفهومي الخاص للقومية العربية ، مثلاً ، فيختلف تماماً عن مفهوم الرئيس عبد الناصر كما فهمته . واذا كان تفسيري لهدفه صحيحاً ، فانه يؤمن بأن الوحدة السياسية والقومية العربية هما اسمان لمسمى واحد . وهو من ثم يؤمن بأن القومية العربية لا تتحقق الاّ بشكل خاص من اشكال الوحدة السياسية . وانا لا اعتقد ذلك ، فوجهة النظر هذه لم تقد في الماضي الاّ الى مزيد من التفرقة . فالسعي الى ايجاد دعم شعبي لاحدى وجهات النظر او شكل من اشكال القيادة في دول غير دولة المرء عزز التحزب الى درجة خطيرة ، وفرّق البلاد الى حّد الثورة . وهو أشبه ما يكون شكلاً من اشكال الاستعمار ، وحكم دولة لدولة اخرى . ولا فرق إن كانت الدولتان عربيتين . القومية العربية لا يمكن أن تعيش الا في ظل مساواة تامة . كما لا يمكن تحقيق الاهداف المستقبلية بالمناورات التكتيكية المرتجلة التي لا تقوم على مبادىء . وهذا الانشغال بالاهداف قصيرة النظر ، الذي يعزى عادة ـ ربما بشكل خاطىء ـ الى الطموح السياسي ، جلب معه ثلاثة شرور لازمته : حول الطاقات العربية عن اتباع سياسات سلمية واضحة الى مكائد سياسية مبددة لهذه الطاقات ؛ وقسم الشعب الى احزاب ، مما أوجد الثغرة التي دقت فيها الشيوعية اسفيناً خطيراً ؛ وأعاق العرب عن معالجة القضايا السياسية الكبرى التي تواجهنا : قضية فلسطين ومأساة الجزائر .

في مقدورنا كعرب أن نتفق ونتوحد على جميع القضايا المهمة ، وأن ننظم انفسنا في كافة المجالات ، وأن ننبذ الانشقاقات فيما بيننا . فليس خطأ الشعوب العربية أن أُلقي على كاهلها عبء القضية الفلسطينية ، او أنها غير قادرة على تقديم عون للاخوة في الجزائر ، او أن العروبة لا تحظى بالتقدير الكافي . فالعيب يكمن ، جزئياً ، في الموقف الذي أوجدته سياسة فرق تسد ، بسبب افتقار بعض الزعماء العرب الى الأمانة والاخلاص . فكل مشكلة عربية تعاني من انعدام المسؤولية لدى الطبقة العربية المسؤولة .

انه لما يدعو للاسف فعلاً ، أن نقع ضحايا سياسات الغرب الخادعه والمثبطة للهمم ، ولا نفعل شيئاً سوى أن نزيد من انقساماتنا . كان لدينا وقت نستطيع أن نتوحد فيه ، روحياً في الاقل ، ضد عدونا الاستعماري . لكننا لم نستطع حتى الآن أن نتوحد بشكل صحيح ضد أقوى عدوين لنا : الشيوعية والصهيونية .

اعتقد اننا نتجاوز تلك الصعوبات ببطء ، لكن بثقة ، وذلك راجع لعدة اسباب ، ليس أقلها أن الازمة لم توجِد حتى الآن قادة حقيقين .

فثمة رجال طموحون ادّعوا أشياء لا أساس لها ، وقدموا وعوداً لا يستطيعون تحقيقها . تلقوا دعماً بشكل غير مباشر من قوى اجنبية تسعى للسيطرة على المنطقة ، سواء منهم الشيوعيين او الجهات التي تسعى لاستعادة مصالح لها فقدتها في السابق . والمحاولات الحقيقية القليلة لاقامة وحدة عملية جاءت من الأردن ، وقادها جدّي الراحل الملك عبد الله حيث عرض اقامة وحدة في سوريا الكبرى (سوريا ولبنان والأردن وفلسطين) ، او وحدة الهلال الخصيب (العراق وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين والكويت) ، او حتى الوحدة بين الأردن وسوريا فقط . ثم اضطررنا مؤخراً الى الانتقال الى «الاتحاد العربي» بين العراق والأردن والذي لم يعمر طويلاً .

أُفشلت محاولات جدّي بسبب سياسات فرق تَسُد التي اتبعها الفرنسيون والبريطانيون ، الذين ساورهم اعتقاد خاطىء بانهم سيحققون مكاسب اذا ابقوا العالم العربي ممزقاً ، وقُضي على الوحدة الأردنية ـ العراقية بمقتل ابن عمي فيصل وعائلته خلال الثورة العراقية . وكانت مثالاً حياً على خطأ متابعة اهداف قصيرة الاجل ، لأن عبد الكريم قاسم ، قائد الثورة ، مازال يتعرض لهجوم قاس من قبل عبد الناصر ، الذي كان اول من اعترف به وأيده .

اما الجامعة العربية ، التي ظهرت للوجود قبل اكثر من اربعة عشر عاماً ، فبدت للوهلة الاولى خطوة صوب عالم عربي تقدمي . لكن الانساق العليا من القادة العرب غير المسؤولين حطمت الآمال العالية المعقودة عليها واصبحت مجرد لعبة تتجاذب خيوطها قلة من الطامحين الذين لا يهمهم شيء سوى نفعهم الخاص . وقد شبه جدّي في

مذكراته هذا المخلوق بكيس حشرت فيه سبعة رؤوس (هي الدول العربية الاصلية السبع التي شكلت الجامعة) ربطت بخيوط من السيطرة الاجنبية والجهل العربي . ويمكن لهذا المخلوق أن يتنفس ، لكنه اذا حاول أن يتحرك فسوف يخنق نفسه حتى الموت . وما زالت الاطراف المشاركة فيه مربوطة بعضها الى بعض ، لكنها مشدودة الوثاق وليس موحدة .

لو توفر للجامعة العربية الاخلاص في العمل والقيادة القوية ، لكان لها امكانات عظيمة . إنها السندان الذي يجب أن تتشكل عليه القومية العربية ، التي يجب أن تقيم روابط قوية مع الماضي ، ومع الاسلام والعالم الاسلامي . وللامة العربية لسان واحد ، وقضية واحدة ، ومستقبل واحد ، وتحدٍ واحد من اجل البقاء . وبجمع أفضل ما في ماضيها وافضل ما يمكنها أخذه من الحضارة الحديثة ، لا بد أن تزدهر .

اذا كان هذا هو هدف القومية العربية ، فما هي الغايات العملية التي يجب أن تكرس لها نفسها؟ اولاً ، لا يمكنها الاّ أن تكون معادية الشيوعية ، فالشيوعية تنكر جميع العقائد الدينية ومن ثم المبادىء الاساسية التي تقوم عليها القومية العربية . واذا ما أتيحت الفرصة للقومية العربية ، وحظيت بالاحترام والدعم وتفهم الآخرين في العالم الحر ، فلا يمكنها الاّ أن تقف الى جانب الاحرار والمومنين بالله .

فكيف يمكن اذاً لأي شخص يؤمن بالقومية العربية الحقيقية أن يدافع عن سياسة هي شكل من اشكال عدم الانحياز ، حيث تزعم الدولة الاحتفاظ بعلاقات جيدة مع العالم الحر والشيوعية؟ تلك هي السياسة المعلنة لعبد الناصر وبعض الزعماء الآخرين . ويعتبر مؤيدو «عدم الانحياز» أن الوجود العربي معرض لخطر التدمير من قبل العالم الخارجي ، وخاصة من قبل دول العالم الحر . وفي الوقت نفسه ، يرفضون النظرية الشيوعية الاّ أنهم يقبلون مساعدة الشيوعيين . اما الذين يصرحون علناً بانهم جزء من العالم الحر ، مثلنا نحن في الأردن ، فاننا نُعرض وكأننا معادون للقومية العربية ، وهو مسار يضرب ، في الحقيقة ، القومية في أعمق جذورها .

نحن في الأردن نرفض هذه الديماغوجية . ونعتقد أنه كي يكون ثمة عدم انحياز ، فيجب أن تكون القوة الثالثة قوية للغاية بحيث لا تحتاج الى دعم من اي من الجانبين

المتصارعين . واذا تعرضت لتهديد من اي منهما ، فيجب أن تكون قادرة على الدفاع عن نفسها ، وايجاد حياد ايجابي بناء ربما كان قادراً على منع اي نزاع . لكن هل هذا هو الحال بين الشيوعية الدولية والعالم الحر؟ هل هذا هو الحال ما بين الدول العربية والاتحاد السوفياتي او الصين الشيوعية؟ هل ستكون القومية العربية موضع احترام من قبل الشيوعي؟ هل ما يدعى بالحياد العربي طريقة فعلية للحفاظ على الوجود العربي ، أم هل يمكن أن يكون حتى وسيلة لتجنب حدوث مثل هذا النزاع؟

اخيراً ، هل من مصلحة العرب كسب عداوة العالم الحر ، رغم المواقف التي لا يمكن التسامح معها في فلسطين والجزائر والتي نجمت عن سوء التفاهم؟ نحن نعتقد أنها ليست من مصلحتهم ، لأنه لاحياة للعروبة في ظل بديل الحرية ، اي الشيوعية المحلية او الدولية .

ولا مستقبل للعروبة من دون تعاليم الاسلام والايمان بالله الذي يوحدنا في العالم الحر . ولا أساس للنظرية القائلة أن ثمة اختلافاً ما بين الشيوعية المحلية والدولية . ولا صحة للاعتقاد أن في امكاننا قبول مساعدة الشيوعيين ودعمهم ، لأن الشيوعية تحترم مبادئنا او انها معجبة بتطلعاتنا .

يؤسفنا نحن العرب أن بعض الدول العظمى في العالم الحر لم تكن صادقة تماماً معنا . لكن الرد على ذلك لا يكمن في اعتناق الشيوعية ، بل في قدرتنا على تطبيق مبادئنا الخاصة والدفاع عن حريتنا . القوة التي يجب أن نتعزز بها يجب أن تكون قوة عربية ، ومن واجب الانساق القيادية في العالم العربي أن تنظم التطور العربي من خلال وحدة الهدف . يمكننا بعدها اقامه علاقات دولية قوية ، ومتينة ، تكسبنا احترام الغير لازالة سوء التفاهم الذي يعيق تقدمنا ، ونتابع باحترام يليق بنا كعرب تعاملنا مع الدول الاخرى ، ونحس بالفخر بما انجزناه .

بالنسبة لنا نحن في المملكة الأردنية الهاشمية ، فقد نذرنا انفسنا لمبادىء الثورة العربية الكبرى . ونحن نؤمن ، ولن نتوقف عن الايمان ، بحاجة العرب الاساسية للحرية

والوحدة والمساواة والقوة والتقدم . وتكمن قوة الأردن الاساسية في التمسك بهذه المبادىء بشجاعة .

فنحن عرب أولاً وأردنيون ثانياً . وبوصفنا أردنيين ، تعلمنا درساً واحداً يسهم يومياً في تقدمنا : لدينا وضوح في الهدف . وحيث اننا أفلتنا من الموت كأمة ، فان علينا أن نجعل حياتنا جديرة بأن تعاش .

لقد تحمل الأردن القسط الاعظم من العبء الذي القي على عاتق العالم العربي ، بسبب السياسات الفجة والعاطفية للزعماء العرب . ولسنا مستعدين لتحمل ذلك مرة اخرى . سوف نتّبع سياساتنا الخاصة حسب التقاليد الديمقراطية الصلبة . وسوف ننشر روح الأردن هذه بين اخواننا في العالم العربي .

ثمة تفسيرات عدة في العالم الحر لكلمة «ديمقراطية» . تعلمنا ، في العالم العربي ، أن أخذ نظام حكم كامل ومحاولة تطبيقه على دولة جديدة لديها خلفية تاريخية مختلفة ، هو عمل لا يتسم بالحكمة ، وخطير ايضاً . فالديمقراطية العريقة تكتشف على الدوام أن عليها اجراء تعديلات للتعامل مع المتغيرات التي تطرأ . ولدى بعض الدول العربية ما يسمى بـ «الاحزاب الديمقراطية» ، لكن العديد من هذه الجماعات يربط نفسه بعناصر من خارج بلده لاسباب انانية او بهدف التخريب . وفي مثل تلك الحالات ، فان النظام الحزبي يجسد عكس الديمقراطية . وهكذا دخلت الشيوعية العالم العربي تحت غطاء القومية . وتنادي جميع الاحزاب تقريباً بالشعارات ذاتها ، الوحدة ، والحرية ، والتقدم . الاّ أن قلة من هذه الاحزاب لديها برامج حقيقية . والشعارات هي مجرد وسائل يأمل الفرد او الجماعة ، أن يصل من خلالها الى السلطة . ونتيجة لذلك ، ورغم النهج الديمقراطي الذي تتبعه الحكومة الأردنية ، فاننا نشعر بأننا لا يمكن أن نتحمل الترف السياسي الذي تمثله تلك «الاحزاب» في عمليتنا الديمقراطية ـ في الاقل ليس وفق هذا المفهوم .

من وجهة نظري ، فان مشكلة العالم العربي يمكن أن تعبر عن نفسها بوضوح وايجابية من خلال الاعمال الموحدة في الجامعة العربية بطريقة يمكن احترامها والالتزام

بها بالنسبة لكافة القضايا . علينا أن نكف عن التحدث بلهجة مهاترات الاصوات الغاضبة .

ليس ثمة خلاف حول ضرورة الوحدة العربية . لذلك ، وبدلاً من أن يدور نقاشنا حول إيجاد مبدأ مقبول ، دعونا نبحث في إيجاد خطة عمل . لدينا اربع وحدات طبيعية في العالم العربي ؛ الهلال الخصيب ، وشبه الجزيرة العربية ، ووادي النيل ، والمغرب الذي يشمل الجزائر .

لتتجمع الدول في هذه الوحدات الطبيعية بالطريقة التي تريدها كخطوة تجاه الهدف الاكبر ، قيام أمه عربية واحدة . وليكن تجمعها طوعياً ، وليعتنق كل شعب فيها ما يريد أن يعتنقه ـ سواء كان ثقافة او أقتصاداً او دفاعاً . لتكن التحالفات الساسية ، إن كان لها داع ، الخطوة الاخيرة . ولينجز كل ذلك من خلال جامعة عربية فعالة ومحترمة ، تضمن فيها المساواة والاخلاص للهدف المشترك ، وحيث لا يكون ثمة خطر من سيطرة أي عضو في العائلة على الاعضاء الآخرين .

لمثل هذا الهدف يضع الأردن كل قوته وامكاناته . وهو مستعد للمشاركة فوراً في أية خطوة عملية تستهدف تحقيقه . مطلبنا الوحيد أن تدرس هذة الخطوة بشكل جيد .

الدور الوحيد الذي يتمنى الأردن أن يلعبه هو أن يكون دولة نموذجية . هدفنا أن نكون قدوة لاخواننا العرب ، ليس كمثال يتبعوه ، بل مثال يلهمهم السعي لتحقيق مستقبل أفضل وأكثر سعادة ضمن حدودهم . نحن مستعدون لتقديم كل ما في وسعنا من جهد وطاقة ، ومن دون أن نغفل عن هدفنا الاكبر في الوحدة العربية ، لخلق طريقة حياة نأمل أن يتمكن جميع العرب من تحقيقها في يوم ما . من المفترض اننا دولة غير متطورة ، لكننا لسنا غير متطورين في الصفات التي ستمنحنا في النهاية الاعتزاز ، والكرامة ، والتصميم ، والشجاعة ، والثقة ، ومعرفة أنه لا يمكن انجاز شيء من دون عمل جاد .

خلال فترة قصيرة ضاعفنا ناتجنا القومي ، وزدنا انتاجنا الزراعي بمقدار خمسة اضعاف . ونقوم الآن باعمال تطوير في خمسة مجالات رئيسة : مصادرنا المعدنية الواسعة

التي لم تكتشف بعد ، ومصادرنا المائية ، والصناعات الخفيفة ، وشبكة مواصلات داخلية سريعة ، والسياحة . ولأننا نعي أن الجهل هو عدو العرب ، فسوف نواصل تطوير النظام المدرسي الذي يشهد توسعاً سريعاً . وهدفنا الاول التدريب التقني لشبابنا . وسنعمل لاحقاً على انشاء جامعة عربية في المدينة المقدسة لكل العرب . كما أننا ندرك الدور الكبير الذي تلعبه القوى العاملة لإنجاح التطوير في دولة ديمقراطية حقة . ونحن نطمح الى رفع مستوى معيشة جميع العمال الى أقصى حدّ ممكن . وسنواصل تحسين الخدمات الصحية ، بحيث لا يعاني اي فرد ، او يموت ، بسبب الجهل او الاهمال . ولهذا الغاية ، فاننا نتوسع في تدريب العاملين في القطاعين ، الطبي والتمريضي ، ونقيم العيادات و المستشفيات . وسوف نواصل تحسين النظام الحكومي . نحن ما زلنا دولة فتية ، لكن الاصلاحات الادارية جارية وسوف تستمر كجزء من جهودنا لاقامه حكومة ديمقراطية كفؤة بالفعل . وسوف نحارب الفساد ايضاً ، وهو عدو قديم آخر للعالم العربي ، والذي لامكان له في دولة أساسها تعاليم الاسلام والايمان بالله .

حين أفكر بعائلتي ، فإنني افكر باعتزاز بكل فرد في الأردن ، الذين ، بوقوفهم معي حين كنا نواجه العواصف ، ألهموني خدمتهم . وحين افكر في العشيرة التي أنتمي اليها ، فاني أتطلّع الى الامه العربية كلها . حياتي كلها كرستها لهدف ، كما فعل الهاشميون عبر التاريخ كله ، وهو أن اكون عربياً يستحق ثقة العرب وتأييدهم . والاّ اخشى احداً الاّ لله .

ايدينا ممدودة لكل من يريد مشاركتنا العمل على رفعة العرب ووحدتهم بجد واخلاص وحسب مبادىء راسخة . ونحن نطالب كل من يدعي حرصه على المصلحة العربية أن يلاقينا على هذا الدرب ، فنحن ننتمي الى أمه واحدة ، والامة ليست ملك افراد . اخيراً ، وكما هو الحال دائماً ، نسأل الله العون والهداية .

للقومية العربية رسالة واضحة نسمعها في كافه أرجاء العالم العربي : «احترمونا نحترمكم . أزيلوا الظلم وسنكون ممتنين لكم . ساعدونا على بناء قوتنا وستكون قوة للحرية . تذكروا أننا أسياد في وطننا ، وأننا ولدنا احراراً» .

٧

١٩٥٥ - اضطرابات حلف بغداد

ما الذي جعل ناصر يغير رأيه؟

شهد العالم ١٩٥٥ نقطة تحول في تاريخ الوطن العربي لفترة ما بعد الحرب . واذا كانت الحرب الباردة ما بين مصر والاردن ولدت قبل اغتيال جدّي بفترة طويلة ، فقد وصلت حّد الغليان في العام ١٩٥٥ . كانت بداية ثلاث سنوات خطيرة كادت تقضي على الأردن كدولة ، فمرة تلو الاخرى لم ينقذ بلدنا سوى معجزة ، وكانت جذور كل ما كان يحدث تعود الى العام ١٩٥٥ ، وهي السنة التي شهدت توقيع حلف بغداد ، وصفقة الاسلحة المفاجئة التي عقدها عبد الناصر مع الكتلة السوفياتية ، ومحادثاتنا حول الانضمام الى الحلف ، واخيراً الاضطرابات التي قسمت الأردن الى قسمين .

كان حلف بغداد بداية كل ذلك ، وكان يقوم على مفهوم اقامه «خط شمالي» لمواجهة الضغط الشيوعي . في الواقع انني كنت قد تقدمت باقتراحات أولية لقيام حلف حّر مشابه يوحد العالم العربي في وجة تنامي المدّ الشيوعي ، لكن لم يّكن ثمة فائدة من إقامة هذا الخط إن كان في وسع الناس تجاوزه والبناء خلفه . وكنت قد اجريت محادثات ، خلال زيارتي الرسمية الى تركيا في العام ١٩٥٤ ، مع الرئيس التركي ، ورئيس وزراءه الراحل عدنان مندريس ، حول امكانية تشكيل تحالف يضم جميع الدول العربية . لكن كانت توجد صعوبات . فالاتراك كانوا قلقين من وجود القوات السوفياتية على حدودهم الشمالية ، ورغم أن العلاقات التركية مع اسرائيل كانت قد بدأت في عهد النظام التركي السابق ، فلم يكن في وسعنا ، نحن العرب ، قبولها .

كان علينا التعامل مع هذا العائق بما يرضى العالم العربي . كما حرصت على أن أبين لمندريس أننا إن كنا سنوقع اي أتفاق ، فلا بد أن يشمل الدول العربية كلها .

وحذرت من أن قيام دولة عربية بالتحالف مع العالم الحر من دون التشاور مع الدول العربية الشقيقة وموافقتها ، فان العواقب ستكون وخيمة .

ورغم ذلك حدث هذا بالضبط . حين اعلن تشكيل حلف بغداد في العام ١٩٥٥ ، اصاب الذهول العالم العربي كله . وكان رد الفعل الفوري - بغض النظر عن كونه صحيحاً ام غير صحيح - هو قيام بريطانيا ، بسبب مصالحها الواسعة في نفط المنطقة ونفوذها ، «باحتواء» العراق .

كنت اعلم أن شيئاً يدور ي الاجواء ، فبعد فترة من زيارتي لتركيا زرت بريطانيا . وسمعت اشاعات ، لكن المفاوضات كانت تجري بسرية تامة بحيث لم ادرك مدى التقدم الذي وصلت اليه . كنت في روما ، في طريق عودتي الى عمان حين سمعت الخبر ، في البداية رفضت تصديقه . كانت غلطة قاتلة من جانب جميع الدول التي هرعت الى عقد اتفاق مع العراق فقط .

كانت النتيجة الفورية عداءً مراً بين القاهرة وبغداد . فبين ليلة وضحاها امسكوا برقاب بعضهم لبعض . واستشاط عبد الناصر غضباً ، جزئياً لانه انزعج بسبب منافسته على قوته ومكانته في الوطن العربي ، وثانياً ، استياؤه لعدم التقرب منه قبل العراق . كان العراق قوياً وغنياً ، وتركيا مثله أو أكثر . وكان عليه مهاجمة الحلف حتى لمجرد منع دول عربية اخرى من الانضمام اليه والتقليل من مكانته المتعاظمة ، وهكذا اخذ راديو القاهرة ، ليلة بعد الاخرى ، يلهب المشاعر ضد «هذا الخائن للقضية العربية» و «المخلب في يد الاستعمار» .

وكما قال جيمس موريس في كتابه «سوق سلوقيا» : المعاهدة . . . اغضبت المصريين الى درجة أن معظم الدول العربية أثيرت ضدها . وكان الرأي العام معادٍ لها ، ويعود الفضل الرئيسي في ذلك الى كفاءة الدعاية المصرية الحاقدة ، الى درجة لم تجرؤ معها أية دولة عربية على الانضمام اليها . وكانت في نظر المتطرفين ، أداة للحفاظ على الهيمنة الغربية (البريطانية بشكل خاص) على المنطقة . وأنها تعرض سيادة العرب للخطر . . . وأنها صفعة على وجهه البكباشي عبد الناصر ، وأن الهدف منها تقسيم العالم العربي

واضعافه . باختصار ، وكما يقول المصريون ومستشاروهم بصوت عال ، انه لا يمكن التسامح معها ، ولم تكن وجهات نظرهم مضللة وحسب ، بل كانت ضيقة الافق بشكل يدعو للرثاء» .

سرعان ما وسع عبد الناصر نطاق هجماته ونالني جزء من الذم ، وسبب ذلك أن غلوب باشا كان ما زال قائداً للفيلق العربي ، ولأن المعاهدة الأردنية ـ البريطانية ما زالت قائمة . واعتبرت انا ايضاً «أداةً في يد الغرب» لكن الدعاية لم تكن في البدء موجهة الى الأردن بشكل رئيسي ، ربما لأن القاهرة كانت مشغولة بمهاجمة بغداد لاقامتها معاهدة «مع المسؤولين عن قيام اسرائيل .» ولم تجر الاشارة الى أي جزء لعبة المعسكر الشيوعي في هذه المسألة قط ، ورغم ذلك ، كانت لدي مخاوف حقيقية من أن تتسع شقة الخلاف ما بين مصر وبغداد .

كان من الطبيعي أن أنظر الى هذه المسألة من وجهة نظر أردنية . فالأردن دولة تعتمد على جيرانها الطيبين من اجل البقاء ، لكن ما الذي حدث لهولاء الجيران الطيبين؟ كانوا يتنازعون ، ويناورون من اجل المنصب ، كما كانوا يفعلون في الماضي حين كانت الامبراطورية العثمانية تبدي علامة من علامات التفكك . أين هو التضامن العربي؟ أين هي وحدة الجامعه العربية؟ وما الذي سيحدث للأردن إن بقي من دون اصدقاء بينما الذين حوله يتشاجرون؟

كانت السعودية تطمع بالعقبة ، ميناءنا الوحيد ، الذي كانت تعتبره جزءاً من الحجاز ، موطن الهاشميين لحقبة طويلة من الزمن (وقد هدأت مطالبتها بها منذ ذلك الحين) . وبدأت سوريا تخضع بشكل متزايد للنفوذ المصري ، واذا ما بدأت الدول العربية تحارب بعضها ، ألن تسعى سوريا «لحمايتنا»؟ واذا حدث ذلك ، فان العراق لن يقف ساكناً ، فاضافة الى دعمه لقضية الهاشميين التي تربطنا ببعضنا ببعض ، فانه لن يسمح لسوريا المناوئة له بان تقف على حدوده الغربية . وفوق كل ذلك ، ثمة اسرائيل . فلو تطور النزاع الذي بدأه عبد الناصر ، فلا شك في أن إسرائيل ستستغل فرصة الفوضى لاحتلال جيب الضفة الغربية وتمد حدودها على طول نهر الأردن .

في السنوات التي تلت ارتقائي العرش ، وجهت اسرائيل معظم اعتداءتها ضد الأردن ، وكان بلدنا يتحمل وطأة كل هجوم يُشن . وكنت على يقين من أننا لا نستطيع ايقافها منفردين . فالبنسبة لعدد الجنود والمعدات كان الميزان يميل لصالحها بشدة ، اضافة إلى وقوفنا على اطول خط للنار مع العدو (فمن مجموع ٦٧٠ ميلاً هي طول الحدود العربية الاسرائيلية ، كانت مصر تدافع عن ١٨٠ميلاً ، وسوريا عن ٤٥ ميلاً ، ولبنان اكثر قليلاً من ٥٠ ميلاً ، ويبقى للأردن المهمة الكبرى للدفاع عن نحو ٤٠٠ ميل .)

بذلت جهدي في ذلك الصيف لمساعدة العراق ومصر على الوصول الى تفاهم أفضل . زرت بغداد ، لكن ابن عمي الملك فيصل كان من دون أية سلطة . ورغم انني ناقشت نوري السعيد ، رئيس الوزراء ، فلم يكن ثمة مجال للمناورة . كنت معجباً بنوري السعيد الى حّد بعيد ، لكنه عبر عن موقفه بجملة واحدة :«سيدي ، نحن في حلف بغداد ، وهذا نهائي ، ولن ننسحب منه بالتأكيد .»

كما زرت الرئيس عبد الناصر ، وكنت معجباً به منذ البداية . شعرت في تلك الايام انه عنصر جديد في العالم العربي ، عنصر قد يحقق الكثير من الاصلاحات الضرورية . اذا عمل لصالح شعب مصر فإن في وسعه انجاز الكثير . لديه المصادر ، وشعب كبير ، ومركز قيادي . حين كنت ادرس في مصر أدركت ، منذ ذلك الحين ، انه لا بد من عمل شيء لتغيير الاوضاع ، فمشاكل العالم العربي هي في اغلب الاحيان نتيجة اخطاء الزعماء والسياسيين ، وليس الشعب ، ومن ثم كان لدي أمل كبير في عبد الناصر وحاولت دعمه بقدر ما استطيع .

سألت عبد الناصر عن حلف بغداد فرد عليّ بان الطريقة المتسرعة التي جرى فيها وشمول دولة عربية واحدة فيه ، هو أمر غير حكيم على الاطلاق . وقد وافقته على ذلك ، واعتقد انه لو استشير في المراحل الاولى من المباحثات لكانت النتيجة مختلفة تماماً .

لكن الامور وصلت الى ما وصلت اليه الآن . واصبح حلف بغداد «امراً واقعاً» . أوضح لي عبد الناصر أن ليس في الامكان الابقاء على صداقته للعراق . كان في منتهى الصراحة . ورغم أنه لم يستسغ الحلف (لاشك في أنه رأى فيه تهديداً لمكانته) فقد قال :

«فيما يتعلق بملك العراق فانني لا أحمل له سوى المودة . وأتمنى له كل نجاح وأعلق عليه آمالاً كبيرة . لكن ، ورغم ذلك ، لا أحب الطريقة التي جرى بها الحلف ، ليس لي مآخذ عليه ، لكن كان من الواجب ان نُستشار بشكل لائق بشأنه .»

كان عليّ التفكير في الأردن . فحقيقة أن عبد الناصر كان في غاية اللطف معي ، لم توقف راديو القاهرة عن مهاجمتي . فسألت عبد النصر عن السبب في اصراره على استمرار حملته الاعلامية ضد الأردن .

ابتسم ابتسامة رقيقة وقال : «هذه أول مرة أسمع عن الأمر ! يسرني انك ذكرته لي ، وسوف انظر فيه في الحال» .

لا حاجة للقول إن شيئاً لم يتغير .

انقضى الصيف ببطء ، وتزايد قلقي اكثر فأكثر . فالعلاقات ما بين العراق والأردن قوية للغاية (ويعود ذلك جزئياً الى كوننا من العائلة الهاشمية ذاتها) . وكان العراق يربط ما بين البلدين في هجماته . (في الواقع أن وجهات النظر العراقية والأردنية لم تكن متوافقة دائماً . حيث كان صناع السياسة العراقيون يعتبرون أنفسهم أعلى شأناً منا ، ونادراً ما ناقشوا معنا أية قضايا . لكنني ، وحتى ذلك الحين لم أكن اتخذت أي اجراء .

ثم جاء الاعلان الذي هبط كالصاعقة على العالم العربي . في يوم ٢٥ ايلول / سبتمبر أعلن عبد الناصر صفقة الاسلحة التاريخية مع الكتلة السوفياتية ، فتغير كل شيء في لحظات .

مئات الالوف من الأردنيين من الذين استمعوا الى دعاية راديو القاهرة ، رأوا في عبد الناصر منقذاً هبط عليهم من السماء ـ هكذا اعتقد الكثيرون في البداية ، بمن فيهم انا شخصياً ـ وانه أفضل رهان للمستقبل ضد اسرائيل . لم يخطر ببالنا ابداً أن عبد الناصر سيرتبط بالشيوعيين . كل ما رأيناه هو الوجه الآخر للعملة ـ انه أول رجل دولة عربي يتخلص من اغلال الغرب ، اعترف بأنني تعاطفت مع وجهة النظر تلك الى حد كبير .

ابتهج الناس العاديون في الأردن ، وتحملت انا سيل الشتائم المتزايدة لانني أبقي جيشي تحت قيادة غلوب وغيره من الضباط البريطانيين . لكن مهمتي في الحفاظ على

النظام لم تكن سهلة بسبب المسائل التافهة التي كان راديو القاهرة يركز عليها بكل حماس . فبريطانيا ، على سبيل المثال ، كانت لاتزال تدفع للفيلق العربي ، ورغم محاولات رئيس وزارئي ، رفضت أن تدفع المال مباشرة الى الحكومة الأردنية ، بل لحساب خاص بالفيلق العربي يسيطر عليه غلوب باشا . لذلك لم يكن للأردن ، عملياً ، كلمة حتى في تمويل قواته الخاصة .

وبسبب خوف القاهرة من انضمام دول اخرى الى حلف بغداد ، فقد اخذت زمام المبادرة . ليس بالكذب الصريح وحسب ، بل بما هو أشد خطراً ، انصاف الحقائق ، التي كانت تبث عبر الراديو الى كل مقهى ومنزل في البلاد . كان جبراء الدعاية يلهبون العواطف والموضوع هو نفسه لا يتغير : «تخلصوا من الضباط البريطانيين في الجيش!» او«تخلصوا من الملك الذي يبقي الأردن أداةً في يد العرب .»

ومع اتضاح ارتباط عبد الناصر الاقتصادي الكامل مع الشيوعيين ، قلبت روسيا السوفياتية سياستها التقليدية وتخلت ظاهرياً عن دعمها لاسرائيل . وبدأ الاسرائيليون على الفور في الحصول على الاسلحة من فرنسا لزيادة قدرات بلدهم القتالية . ومع استمرار الخلافات ما بين مصر والعراق ، واستعدادات اسرائيل للحرب ، وتزايد الضغط على الأردن ، كان لابد من عمل شيء .

يوم ٢ تشرين الثاني ، قام الرئيس التركي بزيارة رسمية للأردن . وعلى الفور شن راديو القاهرة هجوماً قاسياً علينا ، وكان من الطبيعي أن تناقش مسألة انضمام الأردن الى الحلف . بقيت متنبهاً في البداية وأنا افكر في جميع الاحتمالات الايجابية والسلبية في ضوء الاوضاع التي تغيرت بالكامل بعد صفقة الاسلحة المصرية ـ التشيكوسلوفاكية .

اخيراً ، يوم ٧ تشرين الثاني / نوفمبر ، عشية مغادرة الرئيس التركي للأردن ، عقدنا مؤتمراً في بيتي في الشونة في غور الأردن . واخبرت الرئيس انني ادرك مزايا الحلف ، وذلك في ضوء حاجتنا للعون الاقتصادي اضافة الى التحالف العسكري . حيث أن حرب فلسطين قد ارهقتنا ، ولدينا اكثر من نصف مليون لاجيء . كما اننا بحاجة الى اعادة النظر في المعاهدة الأردنية ـ البريطانية .

كان رد الرئيس :«انا افهم الصعوبات التي تواجهونها ؛ لم لا تكتب للحكومة البريطانية لشرح المعونات الاضافية التي تحتاجونها؟ وسوف نكتب لها نحن ايضاً لتأييد قضيتكم .»

قررت أن أفعل ذلك ، وفي يوم ١٦ تشرين الثاني سلمت السفير البيطاني مذكرة أشرح فيها مطالبنا والصعوبات التي نواجهها .

وفي الايام الاولى من شهر كانون الاول / ديسمبر وصل الجنرال تمبلر رئيس هيئة الاركان الامبريالية البريطانية الى عمان ، ظاهرياً لمناقشة المسائل « المتعلقة بالدفاع عن الأردن وتلك الخاصة بالفيلق العربي» ، لكنه أثار في أثناء زيارته واجتماعه معي على الفور مسألة انضمامنا الى حلف بغداد . أدركت أنه اذا انضم الأردن الى الحلف فسوف يحقق الغرب نصراً معنوياً هائلاً . وشعرت أننا اذا انضممنا الى الحلف فسوف نحصل على المزيد من الاسلحة والدعم الاقتصادي ، وأن المعاهدة الأردنية ـ البريطانية ستتغير وتقصّر مدتها بحيث تصبح لدى الضباط الأردنيين فرص أكبر للارتقاء بالفيلق العربي . وأخبرت تمبلر أن الوقت قد حان لتعريب الجيش الأردني وبسرعة .

شيء واحد عقدت عليه العزم . الاّ أدخل في أي حلف من دون ابلاغ الرئيس عبد الناصر والاطلاع على وجهة نظره . ورغم قلقي من التغلغل الشيوعي وازدياد التهديدات الاسرائيلية ، فإنني لم أكن أفعل شيئاً من خلف ظهر عبد الناصر .

لم اكن موافقاً على ما فعلته ، وكنت منزعجاً من حملته الاعلامية ، الا أنني كنت أومن أنه رجل يحفظ كلمته ، وحين وصلت مشاوراتنا مرحلة متقدمة أرسلت له رسالة شخصية بكامل التفاصيل مع رئيس هيئة الاركان الفريق (اصبح مشيراً فيما بعد) عبد الكريم عامر ، الذي كان في زيارة للأردن في ذلك الحين شرحت له علاقتنا التقليدية المتينة مع العراق ، الاقتصادية والجغرافية . وابرزت المخاطر الحقيقية التي نواجهها من اسرائيل . كنت اعرف أن عبد الناصر داهية ذكي : وانه لن يستسيغ فكرة قيام مصر بالدفاع عن حدودنا التي تمتد على طول ٤٠٠ ميل إن لم يكن في وسعنا الدفاع عنها . وتخيلت أنه سيفضل تركنا ننضم إلى الحلف ، بحيث يكون لديه كبش محرقة في حال

تحقيق اسرائيل لأي نصر . لكن ، وكما أكدت ، كنا بحاجة للمزيد من الاسلحة .

كان المسؤولون قد وضعوا الخطوط العريضة لحاجاتنا الفورية اذا ما انضممنا الى الحلف . تضمنت المزيد من الاسلحة ، ومساعدات اقتصادية ، وضمانات بدعمنا في حال تعرضنا لهجوم ، وتعهد قاطع بأن تقوم بريطانيا بتقصير أمد المعاهدة الأردنية البريطانية ، بحيث يجري توقيع معاهدة جديدة بشروط محسّنة ، بما في ذلك خطة معقولة لتعريب قواتنا المسلحة .

عند اكتمال الخطوط العريضة هذه ، بعثت نسخة منها الى عبد الناصر . فارسل عبد الناصر أحد كبار المسؤولين على الفور الى عمان لمناقشة المسألة معي . أتبعها رسالة بارك فيها المشروع ، وردد كلمات الفريق عبد الحكيم عامر : «كل قوة للأردن هي قوة للعالم العربي . لذلك لا ارى اي موجب للاعتراض .»

كانت تلك اخبار طيبة . اقتنع عبد الناصر بحجتي ، وسررت للرد على رسالتي . وبدأنا في اعداد مسودة مذكرة سرّية ، لا تلزمنا بالانضمام للحلف ، لكن من اجل الدخول في التفاصيل .

ثم فجأة تغير كل شيء ، ومن دون انذار شن المصريون حملة اذاعية شعواء ضد الأردن . وفي غضون ساعات مزقت الاضطرابات عمان ، حين انقلب الناس الذين ظللتهم الدعاية لتأييد عبد الناصر «الملهم» الجديد للعالم العربي . «حسين عميل لبريطانيا!» رددها راديو القاهرة ، و «مصر هي الدولة العربية المستقلة الوحيدة ـ بفضل عبد الناصر!» كانت السفارة المصرية قد وصلت الليل بالنهار ـ (كما اكتشفنا فيما بعد) في الاعداد لذلك . ودفعت لكل من وافق على العمل معها .

تصاعدت الحملة الاعلامية . وشددت احدى الروايات على أن حلف بغداد مجرد خدعة ، وأن اسرائيل سوف تنضم اليه فيما بعد ، رغم أنه كان معروفاً أنه ليس في وسع أي بلد الانضمام اليه من دون موافقة الدول الاعضاء ، وكان انضمامها ، من ثم ، مستحيلاً . لكن كان مستحيلاً علينا نحن ايصال الحقيقة الى جميع الناس ، وقد قبل الالوف من الناس هذه الرواية والعديد من الروايات الاخرى .

تمسكت بموقفي . لكن في يوم ١٣ كانون الاول ، استقال اربعة وزراء . وتحت الضغط استقال ايضاً رئيس الوزراء ، سعيد المفتي ، وهو رجل طيب الاّ أنه مسّن ـ استقال وسقطت الحكومة .

اشتعلت الاضطرابات اكثر فاكثر على الفور ، وبسبب تلميح هؤلاء الوزراء . الى انهم اتخذوا هذه الخطوة المتطرفة لدوافع وطنية ، والاشارة الى أن راديو القاهرة على حق في مسألة « العمالة للامبريالية واليهود .»

وفي طليعة من قاموا بالاضطرابات حزب البعث . وهو حزب البعث العربي ، والذي لم يكن من الناحية العملية اكثر من مجموعة من الاشتراكيين من الجناح اليساري ، تشكل في دمشق ، الا انه خضع ، منذ العام ١٩٥٤ ، لقيادة مجموعة من الانتهازيين ، وخلال تلك الفترة وضع نفسه في صف واحد مع الشيوعيين . وهم الذين قاموا بتنظيم المظاهرات في جميع المدن الرئيسة ، وفي اعتقادي أنهم كانوا يمولون باموال مصرية ، وقاموا ياحتلال المباني في كل مكان . وبينما كانت الغوغاء تعيش في الشوارع ، استدعيت هزاع باشا المجالي ، الذي كان وزيراً للداخلية في وزارة سعيد المفتي ، وهو رجل شجاع لا يخشى تحمل المسؤولية . فاعلن على الملأ أنه يؤيد حلف بغداد ، وفي الحقيقة أننا ، أنا وهذا الوطني الشجاع ، فعلنا كل ما في وسعنا ، الاّ أننا كنا عديمي الحيلة بكل ما في الكلمة من معنى . لم تكن تلك مجرد اضطرابات عادية . ورغم أن بعض التظاهرات كان عفوياً ، فان معظمها خطط له الشيوعيون بدم بارد ، متحمسين وتحت سلطة ضباط حسني التدريب وتنظيمهم .

كان في استطاعتنا الصمود اكثر ، لكن في ١٩ كانون الاول استقال وزير الداخلية ووزيران آخران من حكومة المجالي ، وحاول المجالي عبثاً إيجاد بديل لهم . لم يكن في وسعي فعل شيء الا إقالة الحكومة . وترك حكومة مؤقتة تتولى الامور مع الوعد باجراء انتخابات في غضون ثلاثة أشهر او اربعة .

ساد الهدوء البلاد فور الاعلان عن ذلك ، وأعتقد أن هذا الهدوء كان سيستمر لولا أمر زاد الطين بلة . حين ادعى بعض النواب ، ربما لانهم كانوا يخشون الاّ يُعاد انتخابهم ـ

أو لدوافع اخرى ـ أن أمر الحكومة بحل البرلمان غير قانوني . وثبت أن حجتم صحيحة ، لأن مرسوم حل البرلمان يفتقر للعدد الكافي من التواقيع . حيث وقعت المرسوم انا ، ورئيس الوزراء ، وبقي توقيع وزير الداخلية ، الذي استقال قبل صدوره . وحكمت المحكمة العليا بان المرسوم يناقض الدستور ، وبقي النواب في مناصبهم .

بعد ذلك فُتحت ابواب الجحيم ، وعمت الاضطرابات ، التي لم نشهد لها مثيلاً ، البلد كله ، وكان يقودها الشيوعيون . وبدأت عصابات اثارة الفتنة في احراق مكاتب الحكومة ، والمنازل الخاصة ، والممتلكات الاجنبية . ولم يكن امامي من بديل سوى استدعاء الجيش ، الذي واجه القوة بالقوة والتصميم والغاز المسّيل للدموع . وأعلنت حظر التجول لمدة عشرة ايام .

حين اعود بنظري الى تلك الايام ، أجدني على قناعه تامة بأن الأغلبية العظمى من الاردنيين العاديين كانت ممتنة فعلاً لظهور الجيش . لانه أنقذ البلد من دون شك .

فما الذي جعل عبد الناصر يغير رأيه؟ كيف امكنه ارسال تلك المباركة الخادعة وتأكيد دعمه وتأييده ، ثم يحاول بعد ساعات تمزيق الأردن إرباً اربا؟ لا اذكر حادثة مماثلة واحدة في التاريخ قام فيها رجل دولة بتغيير موقفه بهذا الشكل . وكان ذلك نهاية علاقة الأردن بحلف بغداد . لكنه لم يكن نهاية خداع عبد الناصر لنا .

كنت في غاية الغضب لما حدث ، ومتخوفاً جداً من التغلغل الشيوعي ، لذلك قررت دعوة رؤساء الدول العربية جميعاً الى مؤتمر يعقد في عمان ، وبعث بدعوة شخصية الى القادة العرب . فوافق العراق ولبنان على الحضور ، وكادت السعودية توافق ، لكنها امتنعت حين رفضت مصر الحضور رفضاً قاطعاً ، ما لم تستنكر كل دولة علناً حلف بغداد . ومن الواضح انه لم يكن في وسع العراق فعله ، لذلك فشل المؤتمر .

٨

القضية الفلسطينية

لن نضحي بالمبادىء في سبيل المنفعة

الأردن اليوم عضو ناشط ومعترف به في مجموعة دول العالم الحر ، رغم حقيقة أنه يواجه انماطاً متعددة من العداوات . فمن جهة تواجد اسرائيل ، التي ينظر اليها الأردن ، مثله في ذلك مثل أية دولة عربية ، كقوة معادية خلقت من دون وجه حق في وسطنا ودعمتها دول معينة من العالم الحر . ومن جهة اخرى ، ثمة شقيقاتنا الدول العربية ، رفيقاتنا ضد العدو المشترك ، اسرائيل ، والتي كانت في احيان كثيرة معادية لنا .

السبب الظاهر لمعاداتهم للأردن ، هو أننا ، وبسبب محاربتنا للشيوعية ، كنا على علاقة وثيقة مع الدولة المسؤولة الى حّد بعيد عن خلق اسرائيل . واستُخدمت علاقتنا بالعالم الحر كذريعة لعزلنا بشكل كامل تقريباً عن جيراننا العرب . وفي اطار سعينا لتقوية انفسنا والوقوف بثبات في وجه التغلغل الشيوعي ،كان الأصدقاء والأعداء ، معاً ، يعيّروننا ، تصريحاً وتلميحاً : «ماذا عن اسرائيل؟»

كنا نقول لاصدقائنا ، وبكل وضوح ، بأن الأردن لن يعطي جواباً من وحي المنفعه الشخصية على هذا السؤال . فلا يوجد مكان في العالم تختبر فيه مبادىء الرجال مثل الشرق الاوسط اليوم . ففي كل مكان يرى المرء رجالاً طموحين ، وانتهازيين ، يبذرون الشقاق ، ويستخدمون اللاجئين الفلسطينيين التعساء كمخلب قط سياسي . اما نحن في الأردن فلن نضحي بالمبادىء في سبيل المنفعة . وأعتقد أن ما هو جيد لبلد صغير مثل الأردن جيد ايضاً لباقي العالم الحر . في رأينا ، أن هذا هو الأمل الوحيد للسلام في المستقبل . والمشكلة اليوم أن العالم غالباً ما يقبل «الامر الواقع» كمبرر اخلاقي للاستمرارية .

ويجدر بنا أن نذكّر أنفسنا بأصل المشكلة الفلسطينية . حين ينزع المرء من صدره

الاعتبارات العاطفية التي تعتم على القضية ، فان الحقيقة المجردة هي أن الشعب الفلسطيني (الذي كان يشكل ٩٣ بالمئة من مجموع سكان فلسطين) قد حرم من حقه السياسي الأساسي في تقرير المصير الذي دافع عنه الرئيس ويلسون . قد توجد حقوق انسانية اخرى أُنكرت على عرب فلسطين ، لكن كان هذا هو الخطأ الاساسي ، الخطيئة الاصلية التي تراكمت عليها الاخطاء الاخرى .

نحن ندرك مدى فداحة المعاناة التي عاشها اليهود فيي أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية . وكما يقول جورج انطونيوس في كتابه« اليقظة العربية » : « لن تبرىء الأجيال القادمة أي بلد يفشل في تحمل حصته من التضحيات الضرورية للتخفيف من معاناة اليهود ومحنتهم .» لكنه يضيف :« لكن إلقاء كامل العبء على عرب فلسطين هو تهرب تعيس من الواجب الملقى على العالم المتحضر كله . كما أنه مشين من الناحية الاخلاقية . فليس ثمة تشريع اخلاقي واحد يبرر اضطهاد شعب ما من اجل رفع الاضطهاد عن شعب اخر .»

تاريخ الاحداث الاخيرة التي قادت الى الوضع الحالي ، والذي أصبح فيه ما يقارب المليون فلسطيني لاجئاً ، معروف للجميع ، لكن قد يكون من المفيد ، ولو بشكل موجز ، تتبع الاحداث خلال المئة سنة الماضية التي أرست أسس اسرائيل الحديثة .

الكثيرون يتخيلون أن القضية الفلسطينية حديثة نسبياً ، صحيح أنها لم تصبح قضية«رئيسة» الاّ منذ عهد قريب ، لكن الكثيرين لا يدركون أن الأمر يعود الى عام ١٨٣٨ ، حين عّين اللورد بالمرستون أول نائب قنصل بريطاني في القدس ، وأصدر اليه تعليمات« بتقديم الحماية لليهود بشكل عام .»

بعد عامين ، كتب بالمرستون الى السفير البريطاني في استانبول : « أن من الأهمية بمكان بالنسبة للسلطان أن يشجع اليهود على العودة الى فلسطين والاقامة فيها ؛ لأن الثروة التي سيحملونها معهم ستزيد مصادر الاراضي الخاضعة له ؛ كما أن الشعب اليهودي ، اذا ما عاد بدعوة من السلطان وإجازة وحماية منه سيكون رقيباً على أية اعمال شريرة قد يقوم بها محمد علي او من يخلفه . . . ضع هذه الافكار بشكل سري امام الحكومة

التـركـيــة ، واوصهم بقوة أن يقدموا كل تشجيع ليهود اوروبا بالعودة الى فلسطين» (الكلمات المائلة كلماتي) . كان ذلك في العام ١٨٤٠!

في العـام ١٩٠٩ كـتب الجـغـرافي الأمـيـركي ، ايلسـويرث هنتـينجـتـون ، يقـول إن «الفـلاحين» في الاجزاء الخصـبـة من فلسطين « يرون في اليـهود أكبـر عدو لـهم» . وفي العام ١٩١٢ ، حدثت نوبة غضب عارمة في مجلس المبعوثان العثماني حين اعترض الاعضاء العرب على الطريقة التي كانت العائلات اليهودية تستولي فيها على قطع كبيرة من الأرض من ملاّك الاراضي الغائبين .

لكن الضربة الكبرى ضد العالم العربي لم تحدث الاّ في آخر الحرب العالمية الاولى . في يوم ٢ كـانون الاول / نوفمبر أصدرت الحكومة البريطانية وعد بلفور ، الذي تقول فيه إنها تنظر بعين العطف الى اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين . كانت وثيقة صيغت بكلمات مبـهمـة . حيث تقول الفقرة الثانية : «وليكن مفـهوماً بجلاء أنه لايجب عمل شيء يضر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات الموجودة في فلسطين من غيـر اليـهود .» ومهما يكن القصد البريطاني من هذه الجملة ، فقد اتخذ الصهاينة قرارهم . حيث بين الدكتور وايزمن ذلك بكل فظاظة ـ «جعل فلسطين يهودية كما هي انجلترا انجليزية .» كان وعد بلفور وثيقة مجحفة ، وهي في رأيي السبب الاساسي في كل المرارة والاحباط الذي يعيشه عالمنا العربي اليوم .

كان رد الفعل الفوري خطيراً للغاية ، وتحرك الصهاينة بنشاط كبير . وفي العام ١٩١٩ ارسل الرئيس ويلسون لجنة استقصاء الى الهلال الخصيب ، أسميت «لجنة كنغ كرين» . كان الهدف منها معرفة رد فعل السكان المحليين على الانتداب الذي اقترحته بريطانيا . ورغم أنها ، كما يقول احد الكتاب ، «بدأت دراستها للصهيونية وعقول أعضائها متحيزة لصالحها» ، فإنه حين وصل الأمر الى كتابة تقرير الى الرئيس ويلسون ، اجبرتهم الوقائع على تغيير آرائهم بقدر كبير . وأيدوا اجراء تعديلات خطيرة على البرنامج الصهيوني المتطرف . وابلغوا ، بعد اجتماعهم الصهاينة ، أن هؤلاء يخططون بكل وضوح لترحيل جميع سكان فلسطين من غير اليهود بمختلف الوسائل ، وأن جميع سكان فلسطين من

غير اليهود يعارضون بشدة البرنامج الصهيوني . وكان ٧٢ بالمئة من الالتماسات التي تلقتها اللجنة في سوريا ضد البرنامج . وأصر كل ضابط بريطاني جرت مقابلته على أن البرنامج الصهيوني لا يمكن تنفيذه الا بقوة السلاح .

كان تقرير كنغ كرين أحد أهم الوثائق التي دُبجت حول القضية الفلسطينية . . لكن ماذا حدث لها ؟ قامت الحكومة الاميركية بوضعها على الرف بهدوء . وكانت صريحة للغاية ، ولم تُنشر الاّ بصفة غير رسمية ، بعد انتهاء ولاية الرئيس ويلسون (بعد أن لم يعد ثمة من يلام على صراحتها) .

وحين بدأ الصهاينة في استغلال وعد بلفور وتزايدت اعداد اليهود المتوافدين الى فلسطين ، تزايد قلق جدّي الذي كان ، في ذلك الحين ، اميراً على امارة شرق الأردن حديثة التكوين . وكانت امارة شرق الأردن وفلسطين تخضعان للانتداب البريطاني ، لكن ، وكما ورد في مذكرات جدّي ، لم يكن ممكناً اعتبارهما بلدين منفصلين . فوجود الأردن شرقي النهر ، كان يشكل ، من بعض النواحي ، عمقاً لفلسطين . كان ينتج المواشي ، والحبوب ، ومحاصيل أخرى ، في حين كانت فلسطين تدير التعاملات التجارية مع العالم الخارجي من خلال موانئها على البحر الابيض المتوسط .

كانا بلدين مسالمين ، ومنظمين يعملان بسعادة معاً الى أن بدأت الهجرة اليهودية تتعاظم . ومع وصول آلاف اليهود الى فلسطين ، وتكديرهم لحياة الناس ، كان العرب يثورون ضدهم بين الحين والآخر . اما البريطانيون الذين لم يكونوا يعرفون ما يفعلون ، فقد وجدوا انفسهم يحاربون اليهود من جهة واصدقاءهم العرب من جهة اخرى .

في العام ١٩٣١ ، بعثت عصبة الأمم لجنة لتقصي الحقائق ، وكتب جدّي الى المفوض العام لعصبة الأمم يعلمه بصراحة أن الصدامات والقتال «قد وضع حداً لأي أمل بالصداقة ما بين القادمين الجدد من اليهود وعرب فلسطين ، التي سكنها العرب لمدة تزيد على ثلاثة عشر قرناً .» مرات عديدة خلال الاعوام ١٩٣٣و١٩٣٤و١٩٣٥ ، حذر جدّي الحكومة البريطانية من أن استمرار الهجرة اليهودية سيكون له عواقب وخيمة ، وطالب بسياسة جديدة عادلة لفلسطين . وفي العام ١٩٣٦ ، قبل فترة وجيزة من ارسال الحكومة

البريطانية لجنة بيل ، اصدر الملك ابن سعود ، والملك غازي ملك العراق ، والامير عبد الله بياناً ناشدوا فيه عرب فلسطين وقف العنف ، وانهم «يعتمدون على«حسن نية» اصدقائنا ، الحكومة البريطانية ، ورغبتهم في إحلال العدالة .»

كانت آمالهم سراباً! حيث أعلنت لجنة بيل أنها تحبذ التقسيم . تبعت ذلك مظاهرات في عمان ، ومدن شرق الأردن الاخرى ، وتصاعد القتال ضد اليهود في فلسطين .

في اعماق قلبه ، كان جدّي ما زال يأمل في ايجاد حل يمكن عن طريقه الاّ يؤدي الصراع العربي مع اليهود الى كارثة . وكان الوحيد من بين الحكام العرب في الثلاثينات الذي ادرك أنه ما لم يجر ايجاد حلّ فان الوضع لا بد أن يزداد سوءاً بالنسبة للعرب . لأنه ما أن يصبح التقسيم امراً واقعاً حتى تتواصل الكارثة ولفترة طويلة .

لذلك اقترح جدّي على الحكومة البريطانية إقامه دولة تضم شرق الأردن وفلسطين . وكانت النقاط الرئيسة التي وردت في مذكرة جدّي الى البريطانيين هي :(أ) يعطى اليهود في هذا الاتحاد حكماً ذاتياً في مناطق معينة ؛ (ب) يكون لليهود سلطات ادارية كاملة في تلك المناطق ؛ (ج) يُمثّلون في البرلمان على أساس عددهم ، ويكون في الدولة وزارء من اليهود ؛ (د) تُقيّد الهجرة اليهودية بحيث تقتصر على اعداد معقولة .

هاجم رؤساء الدول العربية الآخرين جدّي ، بشدة ، بسبب هذه الخطة ، لكن ، وكما كتب رداً على منتقديه يوم ٥ حزيران / يونيو ١٩٣٨ : « لم يزد عدد اليهود في العام ١٩٢١ عن مئة الف شخص . ويوجد اليوم ما يقارب النصف مليون ، امتلكوا أخصب الاراضي وتغلغلوا في كل مكان . الصهيونية تقوم على ثلاثة اعمدة ـ وعد بلفور ، والدول الاوروبية التي تحاول التخلص من اليهود ، والمتطرفين العرب الـ ـن لن يقبلوا أي مساعدة ، ولن يفعلوا سوى البكاء والعويل وهم يناشدون من لن يقدموا لهم أية مساعدة . لقد علمت أن اليهود طلبوا استمرار الانتداب البريطاني حتى يتسنى لهم شراء المزيد من الاراضي وجلب المزيد من المهاجرين . فلسطين تسقط في يد شعب آخر . والعلاج الوحيد هو العمل بسرعة ووقف الخطر ، وتقييد الهجمات ، ثم نفكر بعد ذلك في طريقة

لإزالة تلك التهديدات بشكل كامل . التأجيل سيقضي على فلسطين . أعتقد أن الشكاوى لا تفيد . وأومن أننا بتوحيد شرق الأردن مع فلسطين يمكن أن نضع حداً لهذه الكارثة . فسيكون في وسعنا تسيير أمور الإدارة باقتدار ، وسيكون لدينا جيش قادر على حمايتنا ، وسوف نغلق الابواب في وجه الهجرة غير الشرعية . وأود أن أعرف إن كان لديكم حل أكثر كفاءة للامور التي أتنبأ بحدوثها .»

لم يكن لدى أي شخص حل . لكن احداً ما لم يستمع لنصيحة الرجل الذي تنبأ بالاخطار المحدقة .

في كانون الثاني / يناير ١٩٣٩ حضر الزعماء العرب مؤتمراً عقد في لندن لمناقشة القضية الفلسطينية . وبعد بضعة أشهر أصدرت الحكومة البريطانية كتابها الابيض الذي ينص على اقامة دولة مستقلة في فلسطين بعد فترة عشر سنوات .

وحين قرأ جدّي ذلك ، كتب الى بريطانيا قائلاً : « إن كان ثمة قيمه للشرق الاسلامي الممتد من طنجة الى بورما ، فان من واجب السيد اتلي والسيد بيفن تصحيح الوضع .»

حين دفعت هذه القصة التعيسة والقذرة الى نهايتها المرة ، اجتمع ملوك دول الجامعة العربية ورؤساؤها بالنحاس في مصر في العام ١٩٤٦ ، وجرى الاعلان هناك عن مبدأ حيوي هو : «أن القضية الفلسطينية هي قضية جميع العرب وليس عرب فلسطين وحدهم .» ومنذ تلك اللحظة اصبحت القضية الفلسطينية قضية يتقاسمها العرب في مختلف اقطارهم . ورغم ذلك مَر هذا التحذير المهم من دون أن يلتفت اليه أحد . وفي غضون سنة واحدة رفعت بريطانيا يدها وقررت انهاء الانتداب .

بعد ذلك مباشرة أرسلت الأمم المتحدة لجنة خاصة الى فلسطين لبحث التقسيم . قدمت تقريرها في آب / أغسطس . وكان أبعد ما يكون عن الاجماع . حيث اوحى سبعة اعضاء من اللجنه بالتقسيم ؛ وأيد ثلاثة منهم خطة جدّي باقامة اتحاد فدرالي مع وجود كانتونات يهودية وعربية ، وصوّت أحد الاعضاء ضد تقديم أية توصيات على الاطلاق . ومن المهم ملاحظة ما حدث بعد ذلك . عينت الأمم المتحدة لجنة خاصة لدراسة التقرير . رفضت اللجنه باغلبية ٢٥ صوتاً ضد ١٨ صوتاً ، وامتناع ١١ عن

التصويب ، اقتراحاً عربياً بعرض وعد بلفور على محكمة العدل الدولية . هكذا ، رفض اكثر من نصف اعضاء اللجنة التصويت ضد هذا القرار العربي البالغ الاهمية .

ما تبع ذلك كان اسوأ . حين صوتت اللجنه في نهاية الامر حول مسألة تبني تقرير اللجنة الخاصة لصالح التقسيم ، جرى تبني القرار باغلبية ٢٥ صوتاً ضد ١٣ ، وامتناع ١٧ عن التصويت . وهكذا من اصل ٥٥ عضواً في اللجنه صوت ٢٥ عضواً فقط لصالح الاقتراح! كانت لحظة كارثة للعلاقات ما بين الغرب والعرب . وكم كان السير محمد ظفر الله خان ، وزير خارجية الباكستان ، على صواب حين حذر العالم الحر قائلاً : تذكروا انكم قد تحتاجون الى اصدقاء في الغد ، وقد تحتاجون الى حلفاء في الشرق الاوسط . إني أناشدكم الاّ تدمروا وتنسفوا مصداقيتكم في تلك البلاد .»

في انتظار تصويت الجمعية العامة في تشرين الثاني ، عمل الصهاينة بشكل محموم من خلف الكواليس بحثاً عن مؤيدين . واعترفوا علناً بالمساعدة التي قدمها لهم ترومان (ربما لانه يتطلع للفوز باصوات اليهود) ونجحوا في كسب اصوات دول الكتلة الشيوعية . وأيدت الجمعية العامة التقسيم باغلبية ٣٣ صوتاً ضد١٣ وامتناع عشر دول عن التصويت .

كان ذلك نهاية جميع الآمال . ولخص السير محمد ظفر الله خان في بيان له بعد التصويت كيف شعر العديد من الدول الاعضاء في الأمم المتحدة ، قال : «وفق كلمات اعظم الاميركيين ، لقد جاهدنا لعمل الصحيح كما اراد الله لنا أن نراه» . يقول لقد نجحنا في اقناع عدد كاف من ممثلي الدول الصديقة كي يروا الصحيح حسبما نراه ، لكن لم يكن يسمح لهم برؤية الصحيح كما يرونه هم . نحن لانضمر أي شعور بالحقد تجاه اصدقائنا والزملاء ممثلي الدول الذين اجبروا ، تحت ضغط كبير ، على تغيير الجانب الذي يؤيدونه ليدلوا بصوتهم لصالح تأييد الاقتراح ، مما لا يتفق مع عدالتهم ونزاهتهم . مشاعرنا تجاههم هي مشاعر تعاطف لانهم وضعوا في مثل هذا الموقف المحرج ، ما بين التعقل والضمير من جهة ، والضغط الذي تعرضوا له هم وحكوماتهم من جهة اخرى .»

وهكذا حُسم الامر . وفي ١٤ ايار / مايو ١٩٤٨ انتهى الانتداب البريطاني ، وأُعلنت دولة اسرائيل . واعترف الرئيس ترومان وروسيا السوفياتية على الفور بالدولة الجديدة .

وفي يوم ١٥ ايار - وهو اليوم الذي خرج فيه آخر جندي بريطاني من فلسطين - ارسلت الدول العربية جيوشها الى فلسطين لفرض النظام وحماية السكان العرب الذين كانوا يتعرضون للهجمات .

عينت الدول العربية جدّي قائداً لجميع القوات العربية . ولسوء الحظ ، كانت تلك مجرد تسمية وحسب ، كما تبين له ، فلم يحظ قط بسلطة فعلية للسيطرة على قوات الدول العربية الاخرى . وفي بعض الحالات ، كان لايسمح له حتى بمجرد زيارتها .

اذكر صديقاً لجدّي ، أخبرني انه رآه في اليوم الذي بدأت فيه الحرب . حيث قال : «سوف أقود قواتي في المعركة بنفسي . وآمل أن أقاتل بشجاعة تماثل قتالي في سبيل أهداف الثورة العربية .» ثم سكت . ولا بد أن الماضي ، وجهوده التي ذهبت هباءً من اجل تحقيق السلام ، مرت بخاطره في تلك اللحظة ، لانه أضاف بحزن : « سأقاتل حتى النهاية ، وكم اتمنى أن أقتل في ميدان المعركة برصاصة في رأسي .»

لحسن الحظ أنه نجا لانجاز خدمة اكبر للقضية العربية ، حيث اظهر جدّي ، في المرحلة الاخيرة من الحرب ، وأكثر من أي وقت آخر ، مقدار قوته وحكمته . حين اندفع اليهود المنتصرون ضد القوات العربية سيئة الاعداد والجهود العربية سيئة التنسيق ، يضربون هنا وهناك ، ويستولون على كل ما يستطيعون من ارض ، ويقتلعون مئات الالوف من العرب بوحشية من ديارهم ، فارين في مختلف الاتجاهات . ذهب كثيرون منهم الى غزة ، واتجه بعضهم شمالاً الى سوريا ، لكن معظمهم تطلع الى الشرق ، وعبر مئات الالوف من اللاجئين ، يمزقهم الاسى والجوع وخيبة الامل ، الحدود الى ديار جدّي .

الرجل الذي لم يكن يخشى شيئاً (خرج مرة من القصر ليفرق احدى التظاهرات شخصياً!) زار كل مخيم للاجئين ؛ وكانت قامته المربوعة الصلبة الملتحية حسنة الهندام معروفة لكل لاجىء جاءه طالباً المساعدة ؛ كان الراية التي يتوجهون اليها .

حين أوشك القتال على التوقف ، عقد أكثر من الفي فلسطيني اجتماعاً في اريحا وقرروا توحيد ما بقي من فلسطين مع الأردن تحت حكم الملك عبد الله . ربما كان هذا أعظم نصر إنساني حققه جدّي . ففي الوقت الذي وقف فيه القادة العرب الآخرون منتظرين مراقبين آملين ، يلومون بعضهم بعضاً ، كان جدّي يعمل . ووافق رسمياً على

دمج ذلك الجزء من فلسطين الذي انقذته القوات الأردنية مع الأردن ، وهو ذلك القطاع من الأرض الذي يصل الى الضفة الغربية لنهر الأردن الذي شكل في ذلك الحين حّد الأردن . وهكذا ظهرت «الضفة الغربية» الى الوجود ، لتصبح جزءاً مهماً من المملكة الأردنية الهاشمية . ومن المهم أن تتذكر ، أن جدي أنقذ بهذة الخطوة مساحة كبيرة من فلسطين ومنعها من السقوط في يد اسرائيل . تذكروا ايضاً ، أنه في العام ١٩٤٨ كان عدد افراد الجيش الأردني اقل من ٤٥٠٠ جندي .

في اسرع وقت ممكن ، اجرى الملك انتخابات شملت الضفتين ، ووسع مجلس النواب بحيث يجري تمثيل الفلسطينيين بشكل صحيح ومنصف . وفي غضون أشهر ، لم تتغير ارض الأردن من ناحية المساحة حسب ، بل وفي الصفات ايضاً . حيث اضيف ما يقارب المليون فلسطيني ، كمواطنين يتمتعون بكامل الحقوق ، الى نحو ٤٠٠ الف نسمة هم الأردنيين الأصليين . وارتفع عدد سكان عمان خلال ثلاث سنوات من ٣٠ الف نسمة الى نحو ٢٠٠ الف .

لكن على الرغم من العرض الحكيم بعيد النظر للجنسية ـ وهي التفاتة لم تقدمها أية دولة عربية اخرى للاخوة عديمي الحيلة من الفلسطينيين ـ فما زال يوجد ، حتى هذا اليوم ، اكثر من مليون لاجيء فلسطيني ، أكثر من نصفهم في الأردن .

اليوم (ووفقاً لآخر تعداد رسمي للاجئين في تموز ١٩٦١) يوجد ٥٩٠,٨٢٢ لاجيء في الأردن مسجلين لدى الاونروا (وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين) ، ٤١٦,١٣٣ شخصاً منهم يأخذون مخصصات غذائية ، و٢٢٤,٤٥٣ شخصاً منهم يعيشون في مخيمات . وثمة ١٨٢ الف شخص يعيشون في قرى حدودية ، ١٥,٩٨٨ شخصاً منهم يأخذون نصف مخصصات . ولدى الاونروا الآن ٤٧ مركز اطعام في الأردن ، و١٧٤ مركزاً لتوزيع الحليب ، و١٧١ مدرسة . وتدير الاونروا مع الحكومة الأردنية مشفيين و٣٠ عيادة طبية ، وثلاث عيادات متنقلة ، و٢١ عيادة يديرها اطباء غير منتظمين .

نحن نفخر بحقيقة أن اللاجئين يلقون في الأردن رعاية أفضل من أي مكان آخر في العالم العربي . وكان منهجنا في تناول مشكلة اللاجئين بسيطاً للغاية . إذا أردنا أن

نحافظ على روحهم المعنوية حية وكبريائهم سليماً ، فيجب معاملتهم كبشر ، وليس مجرد ارقام في مخيمات . من الممكن أن يكون المرء حياً وميتاً في الوقت نفسه ، وهو شيء لا يمكننا السماح بحدوثه . وبسبب موقفنا المتفرد ، هاجمتنا دول عربية اخرى ، وبشكل مستمر ، متهمةً إيانا باننا نحاول حل المشكلة الفلسطينية عن طريق توطين الفلسطينيين وجعلهم ينسون قضيتهم ووطنهم الذي فقدوه .

الاّ أن ما نفعله للاجئين ليس حلاً حقيقياً . إنه في أحسن الاحوال مجرد مُسْكّن . وفي حين أن مشكلة اللاجئين هي نتيجة واضحة لتخلي بعض القوى الغربية عن المبادىء ، فانها مجرد نتيجة ، ولا اعتقد أن سياسة هدفها حل مشكلة اللاجئين فقط ستتوصل بالضرورة الى ايجاد حل حقيقي للمشكلة الاصلية - اي طرد السكان من بلد بقي عربياً لأكثر من الفي سنة .

لا يوجد حل لهذه المشكلة الاّ اذا رغبت جميع الاطراف صاحبة العلاقة ، بشكل فعلي ، في ايجاد حل . لا بد من وجود رغبة حقيقية في إيجاد خطوط عامة يتفق عليها وتكون منطلقاً لتحقيق حلّ عادل ومشّرف . وللامانة أقول إن من الصعب عليّ ، في الوقت الحاضر ، تصور قيام مثل هذا الاتفاق . فدولة اسرائيل تفعل كل شيء لتقوية مركزها بتعصب قومي يشبه الطريقة التي طرد بها هتلر اليهود من المانيا . ومن جهة اخرى ، يسعى عرب فلسطين للحصول على حق العودة الى وطنهم ، الاّ أن الطموحات القومية الاسرائيلية متقدة الى درجة أنها تنظر الى اي اعادة للعرب الى وطنهم على أنه تهديد لأمنها الداخلي ، بل إنها تفسر مجرد وجود العرب في الاجزاء التي يحتلها اليهود من فلسطين بأنه تهديد لأساس وجودها .

وعلى عكس ذلك ، فان هدف العالم العربي هو قومية عربية شاملة تحافظ على كيانات الدول العربية ، وتتطلع ، في الوقت نفسه ، الى دمج هذه الكيانات في دولة واحدة أكبر . ولتحقيق هذا الهدف ، لا يمكننا منطقياً أن نتجاهل المنطقة التي كانت تعرف بفلسطين ، حيث توجد قضية معلقة تشمل اكثر من مليون شخص هجّروا من ديارهم ، هي مثال حيّ على الظلم الفظيع وعلى التهديد الصهيوني في قلب العالم العربي . ورغم كل

هذا التعارض في الاهداف ، فاية خطوط عريضة للاتفاق يمكن وضعها؟

ادرك أن بعض الدول الغربية يؤيد مبدأ «العودة او التعويض» . لكن الى أن يجري تطبيق هذا المبدأ (الذي يتعارض مع الاهداف الاسرائيلية ، والخيار فيه للعرب وليس للاسرائيليين) ، فان قضية اللاجئين ، ناهيك عن النواحي الاخرى للمشكلة الفلسطينية ، ستبقى من دون حل . ويعتمد النجاح في حل هذه القضية ، وفقاً للكثير من الآراء ، على جهود دولية مشتركة .

نحن لسنا مُهددين بالوجود المادي لاسرائيل ذاتها ، بل للتأثير الذي تسبب فيه الدعم الغربي لوجودها على مواقف الكثيرين من العرب وزعمائهم تجاه القوى الكبرى في العالم الحر . وأثرت هذه الصعوبة ، من دون شك ، على السياسات الوطنية للدول الشرق اوسطية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأدت ، في بعض الحالات ، الى قيام روابط لا تنفصم مع دول العالم الحرّ ذاتها التي تعارض سياستها بشدة .

لقد قاومنا ، نحن في الأردن ، هذا النهج ، وسوف نواصل مقاومته بكل ما اوتينا من قوة . ومن الواضح أن قدرتنا على المقاومة ، ومعها قدرتنا على الإسهام في مجمل الصراع ، تتوقف ، الى حدّ بعيد ، على مواقف الغرب وسياساته تجاه اسرائيل . علينا الاّ ننسى ابداً أن الشرق الاوسط هو اكثر مناطق النفوذ حيوية في الحرب الباردة اليوم . وقد اطلق عليه نابليون اسم «مفترق طرق العالم» ، وكان محقاً .

لا يمكن فصل القضية الفلسطينية عن صراع البشرية الاكبر في سبيل الحرية . فاذا أراد الغرب تحقيق الاستقرار في الشرق الاوسط ، واذا اراد لصداقة جميع العرب أن تكون متراساً في وجه الشيوعية ، فان عليه أخذ زمام المبادرة بوضع خطة لفلسطين تقوم على مبادىء العدالة السياسية والاقتصادية . واذا فشل الصراع في سبيل الحرية هنا ، فسوف يكون السبب هو فشل العالم الحر في وضع تلك المبادىء موضع التنفيذ .

فحين تكون ثمة فجوة ما بين المبادىء والممارسات ، تكون ثمة فوضى واضطراب . وهذا يوفر الصدوع التي يتحين اعداء الحرية الفرص لزرع أوتادهم فيها . إن اكثر ما نحن بحاجة اليه في العالم الحر هو أن تتفق اعمالنا مع المبادىء التي تقوم عليها حريتنا .

٩

١٩٥٦ - إقصاء غلوب باشا

واحد من أهم أيام حياتي

إقصاء الجنرال غلوب - او غلوب باشا كما اعتدنا أن ندعوه - بعد ستة وعشرين عاماً من الخدمة في الأردن كان حدثاً من الاهمية بمكان بحيث قررت أن أبسط الحقائق الكامنة خلف قراري ، كاملة وللمرة الأولى .

ثمة لحظات في معركة البقاء يتحتم فيها كبت المشاعر الشخصية وجعل المشاعر غير الشخصية تسيطر ، وربما ينطبق ذلك على الدول الصغيرة اكثر من الكبيرة . وكان الامر مع الجنرال غلوب . فقد خلق إقصاؤه موجة من الذعر في مختلف انحاء العالم ، ولامني الكثيرون بشدة على هذه الخطوة المتطرفة ، وليس هذا حسب : رأى الكثيرون أن عملي يشكل صفعة مقصودة في وجه الحلفاء الغربيين ، وتسرعوا في استخلاص نتيجة هي أنه طالما أني طلبت من الجنرال غلوب الرحيل فان معنى ذلك اوتوماتيكياً انتهاء صداقتنا مع بريطانيا . هذه النظرية التي روجت لها الصحافة البريطانية الشعبية بحماس ، سخيفة بمقدار سخافة الاعتقاد بأن اعتبار سفير ما «شخصية غير مرغوب فيها» والطلب بسحبه يعني كره حكومته .

مالم يدركه معظم الناس هو أن إقصاء الجنرال غلوب كان شأناً أردنياً خالصاً ، وحيث أنه كان قائداً للجيش الأردني ، وموظفاً لدى الحكومة الاردنية ، فقد كان دافعي الرئيسي لانهاء خدماته هو عدم اتفاقنا على قضيتين : دور الضباط الأردنيين في جيشنا ، واستراتيجيتنا الدفاعية . وحيث أن واجبي كملك هو ضمان سلامة شعبي وبلدي ، شعرت أنني سأفشل في واجبي هذا إن لم أستبدله .

لابد مما ليس منه بد ، وأعتقد اليوم ، وبعد حديثي مع غلوب باشا أنه يقدر وجهة النظر هذه ، بل إنه يتعاطف معها ايضاً .

كان يدرك أن شبح جدّي يكمن وراء الخلاف بيننا ، وهو الذي تعلمت منه المبادىء الاساسية للاستقلال العربي الذي لعب فيه دوراً مهماً . والذي كان يؤمن ، وكنت اشاركه هذا الايمان ، أن العرب يجب أن يتولوا شؤونهم الخاصة .

ورغم أن احلام جدّي لم تتحقق كلها ، فانه لم يحد عن ايمانه بها ، ولا حدت أنا . كانت تلك قضية اساسية كنت أنا والجنرال على خلاف دائم عليها . كانت رغبتي الصريحة هي زيادة عدد الضباط الأردنيين الذين يتولون المراكز العالية في الجيش . وأن يتولوا بالتدريج جميع القيادات فيه وفق خطة واقعية يمكن تنفيذها ، لكن ذلك كان يخالف الخطة البريطانية المتبعة ، والتي كان أقل ما يقال في عرضها المقابل أنه مضحك . (بموجب المعاهدة الأردنية – البريطانية ، كان الأردن يتلقى نحو ١٢ مليون جنيه استرليني سنوياً من الاعانات البريطانية ، وتقدم بريطانيا ضباطاً «لتدريب» الفيلق العربي . وكانوا في الواقع يتدخلون في كل شيء) .

كخادم للأردن ، سعيت دائماً الى اعطاء المواطنين الأردنيين المزيد من المسؤوليات . واكثر من ذلك ، اردت أن اعطيهم المزيد من الثقة بانفسهم وهذا حقهم ، وأن اجعلهم يفخرون ببلدهم ، ويؤمنون به وبمستقبله ، ودوره وواجبه تجاه الوطن العربي الاكبر . ومن الواضح أن احدى الطرق هي اعطائهم دوراً أكبر في شؤون بلدهم ، وبشكل خاص في الجيش . اما غلوب ، ورغم حبه للأردن وولائه له ، فقد كان غريباً لا تتناسب مواقفه مع الصورة التي تخيلتها . وحيث أن الفيلق العربي كان أقوى تشكيل فرد في الأردن ، كان غلوب ، ويا للمفارقة ، أحد أكثر القوى سلطة في بلدي . وتبعاً لذلك ، واقولها بصراحة ، كان يخدم كقائد للجيش الاّ أنه لا يستطيع تجاهل ولاءه لبريطانيا .

قاد ذلك الى وضع غريب جعل البريطانيين يسيطرون على شؤوننا العسكرية . كنت أرى حولي صغار الضباط العرب يفتقرون الى المقدرة والقوة ، رجالاً مستعدين للانحناء لاوامر الوايتهول (التي كان يبثها كبار الضباط البريطانيين) ، رجالاً من دون حماس او مبادرة ، يمكن الركون الى أنهم لن يتسببوا في أية مشاكل . كانوا ضباطاً بلا روح . وفي الوقت نفسه ، لم يكن لدى الضباط من ذوي الطموحات الوطنية الذين كانوا يأملون في

قيام جيش عربي أردني أية فرصة في الترقية ، وكان يعهد اليهم بمناصب غير مهمة من دون أي أمل بالتقدم ، وكان ذلك امراً محبطاً للضباط الشباب . وطالبت المرة تلو الاخرى بأن يُعدّ الضباط البريطانيون المزيد من الضباط الأردنيين لتولي المناصب الاعلى . لكن جرى تجاهل طلباتي . وكان أعلى منصب حساس يمكن لأي أردني توليه هو قائد سرية .

بعد أشهر من المفاوضات المطولة ، ربحت معركة صغيرة حين وافقت السلطات البريطانية على تقديم خطة لتعريب الجيش تعطي «في الوقت المناسب» المزيد من الفرص للضباط الأردنيين . هذا نصر حققته ، او في الاقل هكذا اعتقدت . تصوروا مدى الاثارة حين اخبرت مجلس وزرائي . ولم يبق شيء سوى معرفة المقصود بكلمة «في الوقت المناسب» . لكن بهجتي لم تستمر طويلاً حين أعلموني بأن سلاح الهندسة في الجيش العربي قد يصبح له قائد عربي في العام ١٩٨٥! فكيف يمكن لحكومة خارجية أن تكون غير واقعية الى هذا الحد؟ لكنها كانت كذلك : فلم تكن الحكومة البريطانية في ذلك الوقت قادرة على ادراك أن ليس في وسعها مسح تطلعات أمة ما بالقول : «سنتحدث في الموضوع في غضون ثلاثين سنة» .

أنا أول من يعترف أن ذلك قد لا يكون خطأ غلوب ، والأغلب أنه كان يتلقى أوامره من الوايتهول . في الواقع أنه حاول جاهداً في مناسبات عديدة مساعدتنا . لكن مشكلتنا المسيطرة بقيت من دون حل : كان علينا أن نعطي رجالنا فرصة ، خاصة في بلد مثل الأردن ، حيث الجيش ليس أداةً للدفاع ضد الاعتداءات الخارجية وحسب ، بل هو جزء من كل ما هو أردني . وبالنسبة للأردنيين ، وتاريخهم العسكري ، كانت الخدمة العسكرية بمثابة شرف وامتياز . ولم يرفع أحد في العالم العربي رأسه عالياً كما فعل جنود الفيلق العربي ، اما بالنسبة للضباط فكان الوضع مختلفاً ، إذ إنهم رأوا في العسكرية مهنة لا أمل لهم بتحقيق تقدم فيها .

وليس ذلك كل شيء . فثمة المزيد من المشاكل الشخصية . فغلوب ، الذي كان سيبلغ الستين بعد شهر ، قد امضى معنا فترة طويلة بحيث أنني لم اكن أعرف كيف ستكون الحياة في الأردن من دونه . وكان جزءاً من العالم العربي منذ العام ١٩٢٠ ، حين

خدم في العراق وهو في الثالثة والعشرين من العمر . وجاء الى شرق الأردن ، أول مرة ، في العام ١٩٣٠ لقيادة قوة الصحراء ، واصبح قائداً للجيش العربي ، منذ العام ١٩٣٩ . واطلق البدو عليه لقب «ابو حنيك» ، بسبب تشوه في فكه . وكان وجهه الطفولي تحت شعره الفضي ، وهيئته الممتلئة حيوية وهو يقفز داخلاً وخارجاً من سيارة اللاندروفر ، احد معالم المنطقة بقدر ما هو جامع عمان الكبير احد معالمها . كان السياسيون يحكمون ثم يطويهم النسيان ، والسفراء يجيئون ويذهبون ، لكن غلوب كان باقياً – كفؤاً ، نشيطاً ، طيب المعشر ، لا يتغير . ورغم ذلك ثمة أمر واحد تغير : الزمن .

ستة وعشرون سنة هي اكثر من ثلث العمر المتوقع للانسان ، كان الجنرال غلوب خلالها معزولاً الى حد بعيد عن العالم الخارجي . كان فيه الكثير من سمات العصر الفيكتوري . كان يقول بأني ما زلت شاباً ومندفعاً ، ، في حين أنه اكبر سناً واكثر حذراً . وهذا صحيح . لكن الأردن بلد شاب ومندفع ، ونحن متعجلون لتحقيق اهدافنا الوطنية أكثر من غلوب ، وبسبب هذه الحيوية ، كان آخر ما كنت اريده جيشاً حذراً . ورغم كون غلوب جندياً رائعاً ، فقد كان وهو في التاسعة والخمسين من العمر جندياً من طراز عتيق ، وكنت اختلف معه ، وكان يعرف ذلك جيداً ، في الكثير من الخطط الاستراتيجية التي رسمها للدفاع عن البلد ، وخاصة خطة دفاعه العسكري ضد اسرائيل . وكان ذلك الوجه الثاني لاختلافنا .

للأردن ، كما قلت سابقاً ، حدود مع اسرائيل اطول من أية دولة عربية – ٤٠٠ ميل تقريباً من اصل ٦٧٠ ميلاً . وفي العام ١٩٤٨ ، حين قامت دولة اسرائيل ، تلقى العالم العربي صدمة قوية . فقد تعرضت قواته للاذلال بشكل كبير لأن معظمها كان سيء التسليح والتدريب ، ولم يكن يوجد سوى القليل جداً من التخطيط والتنسيق المناسب للجهود العربية . وفي الواقع أن الأردن هو البلد الوحيد الذي احسن العمل . ورغم أن الفيلق العربي كان يتكون من اقل من ٤٥٠٠ جندي فقد تمكن من الحفاظ على الجزء الاكبر من فلسطين ، وحقق ما كان يبدو مستحيلاً بأن حافظ للعالم العربي على الجزء الاكبر من القدس ، وانقذ الاماكن المقدسة لمختلف الاديان .

كان رد فعل العالم العربي على دورنا في الحرب عدم امتنان لا يصدق . واطلق معظم الزعماء الذين كانوا في الواقع مسؤولين عن هزيمة العرب ، بدافع من الحسد ، سيلاً من الدعاية يلوموننا فيها على خسارة الحرب! وعلى رأس هؤلاء مصر!

وركزوا خاصة على حقيقة أن الجيش العربي كان يقوده غلوب . وكانت حجة مناسبة للدول العربية ، وخاصة تلك التي لم تخض أي قتال تقريباً . الاّ أننا حفظنا درسنا في الحرب وقررنا الاّ نسمح ابداً لليهود بأخذ زمام المبادرة ضدنا .

فاذا ما قامت الحرب ، يجب أن نخطط بحيث نبدأ دفاعنا على حدودنا البالغة ٤٠٠ ميل ، وأن نرضى بالموت بشرف إن لم نستطع الدفاع عنها . وقد يكون نشر جيشنا على طول الجبهة واتخاذ موقف دفاعي بمثابة انتحار : فليس في استطاعتنا مطلقاً الدفاع عن حدود طويلة كهذه بقوة ضئيلة كالتي كنا نملكها . لذلك بدأنا في تدريب بعض السكان المدنيين . اطلقنا عليهم في البداية اسم «حرس الحدود» ، ثم «الحرس الوطني» . وكانت مهمتهم الرئيسة حماية عمق المنطقة ، مما يعطي قوات الجيش الافضل تدريباً وتسليحاً فرصة مهاجمة نقاط مختارة في اسرائيل اذا ما تعرضنا لهجوم . بدأت فكرة «الحرس الوطني» ، وهي اليوم قوة تعادل ضعف حجم قواتنا المسلحة ومماثلة لها في التسليح ،لكنها لم تكن كافية من وجهة نظري ، اتباع استراتيجية دفاعية محضة هي بمثابة دعوة للكارثة . فاذا عرف العدو أننا سنضربه بقوة مماثلة لضرباته ، وحيث نوجعه اكثر ، فسوف يفكر مرتين قبل أن يهاجمنا!

كان لدي إحساس قوي بأن علينا أن نرد بالقوة على هجمات الكوماندوز الاسرائيليين الذين كانوا يهاجمون القرى العربية . ففي مناسبات عدة زحف الاسرائيليون عبر الحدود واحرقوا المنازل والقرى ، وقتلوا المدنيين العزل ، ثم عادوا الى اسرائيل . وكنت اؤكد بأن علينا ، في كل مرة يحدث فيها اعتداء ، اختيار هدف في الجانب الآخر ، وأن نوقع بهم ما اوقعوه بنا . لكن ما حدث أننا كنا نقبل هذه الاعتداءات بخنوع ؛ وكان الشعب عديم الحيلة . والأمم المتحدة تدين الاسرائيليين ،لكن ذلك لم يوقفهم . واصبح جنودنا موضع سخرية ، مما زاد الثغرة ما بين الجيش والشعب .

عبثاً حاولت تنبيه غلوب الى كل هذه الامور . وكان رده على مناشدتي النصح بتوخي الحذر والصبر . وأيد في البداية الانسحاب ، في حال شن هجوم علينا ، الى الضفة الغربية الشرقية ، في انتظار وصول تعزيزات لشن هجوم مضاد . وكان هذا يعني احتلال اليهود للاراضي الفلسطينية التي هي جزء من الأردن ، والعودة الى حدود الأردن القديمة . كان امراً لا يمكن حتى التفكير فيه . بعد ذلك ، ومع تحسن قدراتنا العسكرية ، جرى رسم خط دفاعي داخل الضفة الغربية ، أقرب الى اسرائيل مما خطط له غلوب في السابق ، الاّ أنه كان يعني خسارة الكثير من الارض .

رغم معرفة غلوب أن مليون عربي قد طردتهم اسرائيل من ديارهم ، فهو ، على ما يبدو ، لم يدرك أنه اذا وضعت اسرائيل يدها على التراب الأردني ، خاصة الضفة الغربية الغنية ، فإن الأردنيين لن يطأوا تلك الأرض مرة أخرى .

جادلت غلوب في مبدأ الدفاع هذا ، وحدثت مجادلات اخرى حين علمت أن لدينا نقصاً في الذخيرة . كان لديه بعض المبررات لنظريته هذه ، لكن الامر لم يكن مسألة نظرية ، بل ذلك الخط الفاصل ما بين شرف الامة وخزيها .

حين بدأ العمل باتفاقية الهدنة التي فرضتها الأمم المتحدة في العام ١٩٤٨ ، كان أحد الشروط الاساسية أن لا يعمل اي طرف على زيادة قوته العسكرية لشن الحرب . فاوقفت بريطانيا ، التي كانت ملزمة بتزويد الأردن بالسلاح بموجب المعاهدة الاردنية البريطانية ، امدادات السلاح . في حين استلمت اسرائيل كل ما تحتاجه من اسلحة ، وتلقت امدادات كبيرة من المعسكر الشيوعي ؛ دون اكتراث بالخطر .

سألت غلوب : «لماذا لا نحصل على مخزون اكبر من الذخائر؟ وكنت أعرف أن خلف إجابته يكمن تسلسل طويل من الاحداث المأساوية . كنت أعلم أنه طلب ذخائر من بريطانيا ، وأنه في احدى المراحل من عام ١٩٤٨ أبحرت سفينة محملة بالذخائر متجهة الى شواطئنا ليصدر اليها الامر من بريطانيا والأمم المتحدة بالعودة إثر سريان الحظر ، وأعرف أنه ناشد بريطانيا أن ترسل لنا المزيد من الذخائر . (في كتابه «جندي مع العرب» اعترف غلوب في الصفحة ٢١٣ بأن «بريطانيا رفضت اعطاءنا ذخيرة ، لكنها

وافقت على ارسال اسلاك شائكة .»)

واصلنا محاولاتنا اليائسة للحصول على احتياط كافٍ من الذخيرة دون نجاح . وكان لا بد أن نحصل على ذخيرتنا من بريطانيا ، حيث أننا نستخدم اسلحة بريطانية ، لكنها اصرت على الالتزام بما اسمته «ميزان القوى» - العالم العربي الواسع كله في كفة واسرائيل في الكفة الاخرى . واصلت اسرائيل تلقيها شحنات الاسلحة من فرنسا ومصادر اخرى ، مما جعل موقف الأردن مزرياً .

ونظراً لأن بريطانيا لم تزودنا بكميات كافية من الاسلحة ، فلم يكن في وسعي لوم غلوب على عدم رغبته تكليف الجيش بخطط قتالية ، لأن مستودعات الذخيرة لدينا كانت عملياً فارغة . وكان مصيباً تماماً من هذه الناحية في اقتراحه حول عدم قدرتنا على الدفاع عن حدودنا . وهكذا ، ورغم أن الخطأ لم يكن في الحقيقة خطأ غلوب ، لكن مجرد وجوده كان عاملاً مهماً في المأزق . كان مصيرنا في يد أجانب فان لم يكن في وسع غلوب ملء مستودعاتنا بالذخيرة ، فهو كجنرال جيد ، لم يكن في مقدوره أن ينصحني بخوض معركة مشرفة . انظر ما حدث منذ أن تركنا غلوب . نمت قواتنا المسلحة بشكل هائل ، وامتلأت مستودعات الذخيرة لدينا ، واستمد الجيش العربي الأردني قوته من ذلك الشعار العسكري الاساسي القائل - أعطِ الجندي السلاح المناسب .

كما حاولت أن أبني للأردن سلاحه الجوي . فما نفع جيش في مواجهة خصم قوي مثل اسرائيل يمتلك سلاحاً جوياً قوياً إن كنا سنبقى تحت رحمة دولة اخرى لتقديم اسناد جوي لنا؟ كان الوضع مزرياً .

هذا الوضع الذي لم يكن في يد غلوب حيلة لاصلاحه ، قاده الى تشجيع ضباطه ، سواء منهم الانجليز او العرب ، الى قبول وجهة النظر القائلة بوجوب التخلي عن أراض في حال حدوث هجوم علينا . أكثر من مرة شدد في محاضراته على أنه نظراً لكون اسرائيل أقوى من العرب ، فان تصميمنا على القتال على الحدود أمر غير حكيم . وأذكر أنني استشطت غضباً حين دافع علناً عن نظرياته بالنسبة للضفة الغربية .

شيئاً فشيئاً بلغت هذه المسائل ذروتها . فصممت أن أبني جيشاً قوياً متوازناً ، بما في

ذلك ، سلاحاً جويّاً ، وحيث أن ذلك لم يكن ممكناً بوجود غلوب ، فقد ألزمنا أحترامنا لأنفسنا ان نخوض المعركة وحدنا .

ثم أن امرأً يقود الى آخر . فمع ازدياد التغلغل الشيوعي في الشرق الاوسط ، وتصنيف القاهرة للأردن على أنه «عميل الاستعمار» لم يكن يوجد خيار . لابد من ذهاب غلوب . ولا أريد أن يعتقد بعض الناس أنني انهيت خدمات غلوب وهو صديق قديم مؤتمن في فورة غضب . فغلوب باشا رجل عظيم ويعلم كما اعلم أنا أن هذا بعيد عن الحقيقة . لم اوافق على أستراتيجيته . وحيث أن الامر كذلك ، فلم يكن لدي من طريق آخر سوى تنفيذ قراري . كانت عملية جراحية لا بد من القسوة في عملها . كنت أعرف أنني على صواب ؛ في الواقع ، يمكنني القول إن غلوب لو بقي قائداً للجيش لمدة عام آخر لكان في ذلك نهاية الأردن . ولقسمت البلد شرائح بين الدول العربية الاخرى الساعية الى التوسع .

اوحى بعضهم بأن طرد غلوب باشا كان قراراً مفاجئاً . حتى أن إحدى الروايات ذهبت الى القول إنني تصرفت في لحظة غضب بعد أن قرأت موضوعاً في مجلة انجليزية يصف غلوب بأنه «الحاكم الفعلي للأردن» ، اي هراء ذاك! كانت وزارة الخارجية البريطانية على علم بالخلافات بيني وبين غلوب قبل أشهر من انهاء خدماته . فقبل أقل من سنة على إنهاء خدمات غلوب ، زرت لندن وأجريت شخصياً محادثات مع وزارة الخارجية حول الموضوع . ونبهت المسؤولين البريطانيين بكل صراحة الى ضرورة اعطاء الأردنيين المزيد من المسؤوليات في الجيش . وقد ماطلوني بالوعود والقول إنهم سينظرون في الامر ، لكن شيئاً يلم حدث في هذا الخصوص . لذلك فان الايحاء بأنه كان قراراً مفاجئاً هو تزييف للحقيقة ، لقد فكرت طويلاً وبمنتهى الجدية قبل اتخاذ هذه الخطوة المهمة . كنت أعلم أن جيشنا ضعيف للغاية بحيث يمكن لاسرائيل اكتساحنا ، وأن الدول العربية الاخرى ستحملنا مسؤولية هذا الضعف ، كنت اريد المحافظة على صداقتنا مع بريطانيا – فلم يكن في ذهني شيء أبعد من قطع تلك الصداقة – لكن كان من الضروري إثبات استقلال بلدنا ، وحريته في أن يعبر عن رأيه ، وأن يعمل من دون مؤثرات او توجيهات

خارجية . كان علينا بناء قوتنا للدفاع عن وطننا .

كما أنني لم اكن سعيداً لاشتغال قائد جيشي بالسياسة ، لم يكن غلوب يتدخل بشكل مدروس في السياسة ، لكنه كان قد أمضى معنا فترة طويلة وبنى له من السلطة ما يجعله غير قادر على فصل نفسه عن السياسة . وكان يعمل من موقع قوة بحيث أن قادتنا السياسيين كانوا يلجأون اليه او الى السفارة البريطانية قبل اتخاذ أصغر القرارات .

وكمثال على ذلك ، حين اعرب الاتحاد السوفياتي عن رغبته في اقامة علاقات دبلوماسية مع الأردن ، اتصلوا بالقائم بالاعمال في سفارتنا بالقاهرة وطلبوا بث رسالة لي . ووصلت هذه الرسالة الى الأردن عبر القنوات الدبلوماسية الى رئيس الوزراء . حين استلم رئيس الوزراء الرسالة لم يستشرني بل حمل الرسالة ، من دون ابلاغي عنها ، وهرع مباشرة الى السفارة البريطانية!

كثيراً ما تتقرر الاحداث بطريقة غريبة . رغم شعوري بضرورة اعفاء غلوب من منصبه ، فإنني لم أقرر الوقت المحدد بالضبط . ثم حدث امران . كنت قد احسست قبل فترة من الزمن أن قوات الأمن (التي تشمل الشرطة ايضاً) يجب أن تتوقف عن التبعية للجيش (مما يعني غلوب) . فكيف يمكن لقوات الشرطة والجيش أن يأتمرا بأمر رجل واحد؟ هل يصح ذلك؟ قبل يومين من تسريح غلوب من الخدمة ، حاولت ترتيب الامر مع رئيس الوزراء ، وقلت له ، «أشعر أن قوات الأمن يجب أن تخضع لسلطة وزارة الداخلية» . فتنبأ بحدوث مضاعفات خطيرة ، لكني اكدت له أن ما اقترحته هو شأن خاص بنا . وهي قضية داخلية لا علاقة للبريطانيين بها .

كنت في غاية الغضب ، لكنني قررت أن أؤجل الموضوع في تلك الليلة . وفي اليوم التالي – وهو اليوم الذي سبق تسريح غلوب من الخدمة – عُرضت عليّ لائحة باسماء ضباط كان من المقرر تسريحهم من الخدمة . ذنبهم الوحيد ، حسبما رأيت ، انهم وطنيون طموحون . وكيف لا يكونون كذلك؟ ورغم أن غلوب كان قائد الجيش ، فقد كان من المفروض أن اوقع الاوراق انا شخصياً . فرفضت ، ورميت بالقائمة على المنضدة في مكتبي ، وقلت لرئيس الوزراء : «ابلغ غلوب باشا أنني أرفض توقيعها» .

تمسكت بموقفي ، وما اغضبني فعلاً ادراك أنه حتى وزرائي - ورغم ولائهم - كانوا يشعرون بانهم غير قادرين على التصرف ضمن سلطاتهم .

لم أكد اتخذ هذا القرار حتى وصلني الرد النهائي على طلبي بشأن قوات الامن ، إذ ابلغني رئيس الوزراء ، أن من غير الممكن في الوقت الحاضر الاعداد للفصل المقترح .

حين تلقيت الجواب ، حدث أن كان رئيس الديوان بهجت التلهوني موجوداً في المكتب . وبقيت هادئاً للحظة ، ثم في سورة غضب ، قذفت بالاوراق التي كنت أعمل بها في كافة أرجاء الغرفة ، وشددت قامتي وخرجت . مسكين التلهوني! الذي تركته حائراً يتساءل عما فعله ليزعجني الى هذا الحد .

في تلك الليلة اتخذت قراراً بتسريح غلوب باشا على الفور . وقد اخبرت الجنرال غلوب فيما بعد أن آخر ما اتمناه هو أن أجرح مشاعره ، كما أن تسريح رجل خدم بلدنا باخلاص لمدة تزيد على ٢٦ عاماً ، ليست بالمهمة اللطيفة . فكرت في امكانية السماح له «بالاستقالة» بطريقة لبقة مع اجازة طويلة بعض الشيء قبل أن يسري مفعول الاستقالة ، لكنني كنت اعرف أن من غير الممكن تناول المسألة بهذه الطريقة . كما لم أعتقد أن في وسعي السماح لقائد جيشي ، خاصة في وقت نتعرض فيه لتهديد خطير من اسرائيل «باعداد طريقة تسريحه» . فهذه الطريقة خطرة لو كان أردنياً ، فما بالك أن قائد الجيش اجنبي . كلا ، رغم معرفتي بأن الجنرال غلوب سيغضب من فظاظتها ، لا بد من ابلاغه بالطريقة التي اخترتها .

في الساعة العاشرة صباحاً من يوم الخميس ، الاول من اذار / مارس قدت سيارتي ومعي رئيس الديوان في شوارع عمان متجهاً الى مكتب رئيس الوزراء . كنت ارتدي بزتي الرسمية ، وكان يسير امامي وخلفي رتل من سيارات اللاندروفر مع جنود الحرس المسلحين . في طريقنا اخبرت التلهوني ، أول مرة ، بما أنوي أن أفعله . وأذكر أني اضفت قائلاً : «هذا أحد اكثر الايام أهمية في حياتي لا أعرف كيف سينتهي ، لكن المرء لا يعيش الا مرة واحدة ، وبطريقة مشرفة» .

وصلنا الى مكتب رئيس الوزراء ، وحين خطوت داخل باب المبنى الابيض ، عرفت

أن هذا أمر يتوجب عليّ أن اتولاه بنفسي . كان رئيس وزرائي رجل طيب ، وصديق وفيّ ، شخص خدم الأردن في الكثير من الاوقات الصعبة ، لكنني لا استطيع اضاعة الوقت في المجادلات .

كتبت بنفسي في ذلك الصباح بالذات ، بعد الافطار ، الاوامر اللازمة . لذلك ، حين واجهت رئيس الوزراء وضعت قصاصة الورق على مكتبه بثبات (ولم ارمها كما قال غلوب باشا في مقال له) . وفي تلك السطور القليلة أمرت بتسريح غلوب باشا على الفور .

وقلت لرئيس الوزراء ، «تلك رغباتي ، واريد أن تنفذها على الفور» .

ذهل رئيس الوزراء بعض الشيء ، لكنه ادرك بسرعة أن الامور وصلت حداً لا يمكن التراجع عنه . وبعد ذلك قلت لاعضاء مجلس الوزراء : «انا موقن بأن ما افعله هو لخير البلد . واريد منكم جميعاً أن تكونوا على حذر خلال الايام القليلة القادمة . ابقوا على اتصال مع رئيس الديوان إن كان ثمة ما يدعو الى القلق . أنا واثق من أن هذا هو الشيء الصحيح الذي يجب عمله ، لكن لا بد من أن يكون له مضاعفات . أنا مستعد لتحمل ما سيأتي» . ثم تركت رئيس الديوان في مكتب رئيس الوزراء للتأكد من تنفيذ الامر .

كنت اعرف أن غلوب لن يحزن للقرار المفاجيء نفسه وحسب - فقد كان مفاجئاً له اكثر مما هو مفاجيء لي - بل ايضاً للسرعة التي طلب فيها منه مغادرة البلد . فحين قابله رئيس الوزراء في الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم ، اقترح عليه مغادرة البلد في الساعة الرابعة . وقد تعاطفت مع رده الحازم : «كلا ياسيدي ، لقد عشت هنا ستة وعشرين عاماً ولا يمكنني مغادرة البلد خلال ساعتين» .

كنت ساشعر بالغضب لو كنت مكانه ، وفي الحقيقة أن غلوب لم يغادر الاّ في صبيحة اليوم التالي . وأود أن أبين هنا ، أنه على الرغم من تسريحه من الخدمة ، فقد سرح بكل التكريم الذي يستحقه . حملته الى المطار سيارتي الملكية الخاصة . وكان في وداعه وزير الدفاع مندوباً عن الحكومة ورئيس الديوان مندوباً عني .

ثمة أمر واحد مؤكد ، وهو أن السرعة التي غادر بها البلاد كانت أمراً في غاية الاهمية . كنت أعرف تمام المعرفة الضغوط التي كنت سأتعرض لها ، وهي ضغوط

عظيمة ، لو أنني سمحت لغلوب باشا بالبقاء اسبوعاً آخر في البلاد . كنت لا ازال شاباً صغيراً - في الحادية والعشرين من عمري - ولم يكن امراً يسيراً أن أضع ثقلي في مواجهة بريطانيا كلها . وشعرت أنني سأكون في موقع أقوى لمحاورة الحكومة البريطانية اذا كان غلوب خارج البلاد ، لذلك ، ما أن اتخذ القرار ، حتى كان من الواجب تنفيذه على الفور .

طوال تلك الليلة ، وبينما كان غلوب وزوجته يحزمان امتعتهما للرحيل ، انهمر عليّ سيل لا ينقطع من البريطانيين لحملي على تغيير رأيي . وحين وصلت الأنباء الى بريطانيا صُدمت الحكومة البريطانية بقدر ما ذُهل رئيس وزرائي ، وتكدست البرقيات على مكتبي تلتمس مني أن ارجع عن قراري . وأبرق لي السير انتوني ايدن شخصياً يرجوني تغيير رأيي . وطلب السيد شارلز ديوك (اصبح السير شارلز) السفير البريطاني في عمان المثول بين يدي في المساء ، وكان في غاية الحزن ، وطلب مني أن اعيد النظر في الموضوع بحيث يمكنه ابلاغ وزارة الخارجية أنني قد أعدل عن قراري .

عملت مع المستشارين حتى ساعة متأخرة من الليل ، نخطط للتعيينات الجديدة - فليس في وسع المرء أن يترك جيشاً من دون دم جديد يستبدل به القديم . عند منتصف الليل آويت الى فراشي . وفي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل اتصل السفير البريطاني برئيس الديوان هاتفياً طالباً مقابلتي . فاخبره بأني نائم قد طلبت ألاّ يزعجني أحد إلاّ لمسألة بالغة الاهمية .

اصر السفير ، لذلك اسرعت بارتداء بعض الثياب ، بما في ذلك قميص للرياضة بدلاً من القميص والربطة الرسميين ، ونزلت الى المكتب الصغير في قصر بسمان .

كان لقاء متوتراً . وبدا لي السفير ، الذي كنت أكن له الود ، مضطرباً . كنت متعباً حين آوايت الى فراشي ، اما الآن ، وأنا أتلهف لمعرفة ما سيأتي ، فقد كنت متيقظاً تماماً ومنتبهاً .

في البداية ، لم يعرف كيف يبدأ ، ولم اكن استطيع فعل شيء لمساعدته . ثم تنهد بعمق وقال : «أود أن انبهك ياسيدي» ، وأعتقد أن تلك هي كلماته ، «الى أن الخطوة

التي اتخذتها قد سببت هياجاً شديداً في لندن» . جلس هناك وكان واضحاً أن عواطف شديدة تعتمل في صدره . كان يحمل في يده رسالة من لندن . «اني انصحك ، سيدي ، أن حكومة جلالتها تشعر بأنك ما لم تعدل عن قرارك على الفور في هذه المسألة ، وما لم يسمح لغلوب باشا بمواصلة عمله هنا واعطائنا فرصة لجلاء الامر كله ، فان العواقب قد تكون خطيرة للغاية سواء بالنسبة لك ، أو للملكة .» ثم تردد قليلاً وأضاف ، «وما يتعلق بمستقبل الأردن ككل» .

كانت تلك كلمات قوية حافلة بمضامين اعتقد أنني فهمتها . غضبت بعض الشيء ، ليس لأنني كنت خائفاً ، بل لأنهم يشيرون الى أن الرأي العام العالمي بدأ يحرّف مسألة تسريح غلوب باشا - وهي قضية أردنية بحتة - ويحولها الى شيء أخطر من ذلك بكثير .

قلت للسفير : «أنا اعرف بلدي ، واعرف مسؤولياتي . وسوف اواصل عمل ما اعتقد أنه صواب بكل الوسائل الممكنة» . لم يجب ، فاضفت : «اعتقد ، سيد ديوك ، أن ما فعلته هو لمصلحة بلدي ، ولن اعدل عن قراري ، مهما كانت النتائج . وأنا افضل أن افقد حياتي على أن أغير رأيي . المملكة ملك للشعب ، وانا مُلك لهذا البلد ، وأعلم أنني افعل هذا من اجل ما هو أفضل ، وليحدث ما يحدث .»

لم يعد لدى السفير ما يقوله ، فغادر وهو في الاغلب متلهف للاتصال بلندن عن طريق اللاسلكي من السفارة البريطانية ، وعدت انا الى فراشي . في الساعة الثالثة صباحاً عاد السفير وطلب مقابلة ثانية . افترضت أنه قد تلقى اتصالاً آخر من لندن . لكن رئيس الديوان أخبره أن مقابلتي ليست ممكنة .

لكن السيد ديوك ألح قائلاً : «يجب أن أرى الملك على الفور!»

وشرح له رئيس الديوان : «صاحب الجلالة يستريح الآن ولا يريد أن يزعجه احد» .

«لكن الامر في غاية الاهمية» .

لغة التلهوني الانجليزية ليست جيدة جداً ، لكنه كان حانقاً بعض الشيء ويبحث عن كلمة مناسبة يرد بها عليه ، حاول عبثاً أن يتذكر «وإن يكن؟» وبدلاً من ذلك ، خرج

ببديل كلاسيكي مدهش، لا بد أنه حيّر السفير: «وإذاً؟»

وفهم السفير التلميح!

لم يغب عن بالي أنني كنت العب بالنار حين سرحت غلوب، لكني مع ذلك كنت آمل أن يحاول العالم الغربي النظر الى المسألة من منظور صحيح. وقد راعني التفسير الخاطىء المثير للشفقة الذي فسر به البريطانيون عملي. استطيع أن افهم عظم وقع الخبر على الناس وهم جالسون على موائد الافطار في ذلك الصباح، لكني انزعجت بشدة لأن بريطانيا الرسمية لم تدرك أن ليس لتسريح غلوب أي تأثير على اعجابي بها. واوضح دليل على الاعجاب الذي اكنه لها التوجيه الذي بعثت به الى رئيس وزرائي يوم ٦ اذار / مارس، وآمل أن يوضح النص (الذي لم تكن توجد نية لنشره) سوء الفهم الذي أثير - اقول أثير، من دون اي خطأ مني. وجاء في التوجيه:

«لا شك في أنك تدرك بأن عملنا على اعفاء الجنرال غلوب من منصبه كان بدافع عدم الثقة في حكمه على الامور وحقيقة أن وجوده قد اصبح عامل اضطراب في البلاد.

«لكن يجب الاّ يقود هذا الامر، في اي وقت من الاوقات، الى أي تغيير في العلاقات ما بين الأردن وحكومة صاحبة الجلالة البريطانية، التي تحكمها المعاهدة المبرمة، او تؤثر على الصداقة التقليدية ما بين بلدينا.

«اما بالنسبة للضباط البريطانيين الذين يخدمون في الجيش العربي، فارجو الانتباه الى أن الأردن سيفي بالتزاماته تجاههم وفقا لعقودهم وللمعاهدة.

«وبعد التفكر ملياً فان هدفنا هو أن يبقى هؤلاء الضباط للخدمة في الجيش لرفع كفاءته الى المستوى الذي نتطلع اليه.

«اما بالنسبة للشائعات حول نيتنا استبدال المعونة البريطانية بمساعدات عربية، فلا شك في أنكم تدركون سعادتكم وجود المعاهدة مع بريطانيا العظمى التي تعود بفوائد معينة على الطرفين.

«ودفع مساعدات عربية ، على فرض أنه سيتم ، لا يلغي في أي حال من الاحوال مفعول المعاهدة الأردنية - البريطانية .

«ورغم ذلك ، فان الأردن يرحب بأي شكل من اشكال المساعدات العربية التي تمكنه من تحسين وضعه على طول خط الهدنة حيث يواجه عدواً غادراً ، ولسد الثغرات في نظامه الدفاعي بعد النقل الاخير للقيادة الى أيد عربية .

«بالنظر الى ما تقدم ، فاني على ثقة بانكم ستفعلون كل ما في وسعكم لدعم هذه الحقائق وتأكيدها بما فيه مصلحة هذا البلد» .

على الرغم من هذا الاعلان ، تصاعد السخط في بريطانيا الى حد الهستيريا ، ولم يهدئه بيان السير انتوني ايدن في مجلس العموم الذي قال فيه :

«لا بد أن المجلس سمع ، بامتعاض وأسف ، بالتسريح السريع للجنرال غلوب واثنين آخرين من كبار الضباط البريطانيين في الجيش العربي . إن الخدمة الطويلة المتفانية التي قدمها الجنرال غلوب الى المملكة الأردنية الهاشمية كانت تستحق معاملة اكثر كرماً .

«ومن حق المجلس أن يعلم أن ملك الأردن ورئيس الوزراء الأردني قد اخبرا سفير صاحبة الجلالة أنهما لا يريدان احداث اي تغيير في العلاقات الأردنية - البريطانية ، وأنهم متمسكون بالمعاهدة الأردنية - البريطانية» .

اعجبني البيان العلني الوارد في الفقرة الثانية ،لكن لماذا قلل السير انتوني من قيمة وعدي بأن اضاف :

«لقد أعطت حكومة صاحبة الجلالة الوزن المناسب لبيان الحكومة الأردنية بالنسبة للضباط ، وهي تشعر ، أنه بالنظر الى المعاملة التي لاقاها الضباط البريطانيون الذين جرى تسريحهم ، فان من الخطأ ترك الضباط البريطانيين العاملين في الفيلق العربي في وضع مشكوك فيه . في رأينا ، أن ضباطاً في موقع قيادة تنفيذية لا يمكن الطلب اليهم الاستمرار في شغل مناصب ذات مسؤولية من دون سلطة . لذلك ، طلبنا اعفاء هؤلاء الضباط من قياداتهم .

وحيث أن رئيس الوزراء البريطاني اقر بأن تسريح غلوب هو شأن أردني بحت ، فقد أقلقني حين اضاف ، عند مناقشته المعاهدة الأردنية - البريطانية :

«واضح أن روح المعاهدة كلها تقوم على ضرورة التشاور لضمان دفاع مشترك . ووفقاً لذلك ، فان تسريح الجنرال غلوب ، في نظر الحكومة ، هو ضد روح هذه المعاهدة» .

كنت اطمح لتفهم اكثر قليلاً ، بحيث أنني قررت أن اكتب رسالة شخصية طويلة الى ايدن ، شرحت فيها بالتفصيل الكامل أن خلافنا مع الجنرال غلوب هو ، في الاصل ، ذو طبيعة شخصية . واكدت للسير انتوني أن ليس لتسريح الجنرال غلوب أية صلة بالعلاقات بين بلدينا ، وأنه اذا اعتبرت بريطانيا تسريحه بمثابة اهانة لها فقد اساءت فهم دوافعي ، فحقيقة أن غلوب باشا قد ذهب - وكنت حريصاً على توضيح ذلك لايدن - لا علاقة لها بحقيقة أني كنت آمل ببقاء الضباط البريطانيين في الجيش العربي .

في بعض الاحيان أشعر برغبة في التساؤل إن كان بعض الحكومات يفهم حقاً البلاد التي يتحدث عنها بهذا الشكل المرتجل . وفي حين كان الجالسون في المقاعد الخلفية في وايتهول مستنفرين ، وكانت الصحف في شارع فليت تصرخ بالشتائم ، اين كانت الحقيقة؟ ليس على المرء سوى الرجوع الى مقال «التايمز» الذي نُشر خلال ذلك الاسبوع ليكتشفها ، في هذه الصحيفة ، كتب مراسلها الخاص في عمان ، وهو مراقب دقيق الملاحظة ، ما يأتي :

«عمان مازالت في عيد احتفالاً بمغادرة الجنرال غلوب . ولا بد من القول إن السعادة تبدو شاملة وحقيقية . الضباط الشبان في الجيش العربي يصرّحون بأنهم يعتقدون أن ذلك سيبعد السياسة عن الجيش - على اساس أن الجنرال غلوب رفض ترقية الضباط غير المتعاطفين مع السياسات الغربية .

«كما أن ثمة قلة ممن يعتقدون أن هذه الخطوة ستعزز العلاقات الطيبة مع بريطانيا ولن تسيء اليها (والعديدون مقتنعون بأنه لو سحبت بريطانيا ضباطها قبل ذلك ، ربما بجعلهم جزءاً من مهمة عسكرية ، لما وقع هذا الحدث المحزن ابداً) .

«ردود الفعل الغربية على عملية التسريح طالعها الناس بدهشة هنا . ويبدو غريباً أن يؤخذ الناس على حين غرة حول حقيقة تنحية الجنرال غلوب ، بغض النظر عن مدى شعورهم بالاهانة للطريقة التي جرت بها ، فمركزه هنا ، مع كل السنوات التي كرسها لخدمة الدولة ، لم يعد ، من دون شك ، يتماشى وروح العصر . حيث أن توجه السياسة العربية كلها ، ومنذ سنوات ، كان ازالة رموز السيطرة الغربية هذه» .

بقي شيء واحد يقال عن هذا الحدث المحزن ، وهو أن اعجابي الشخصي بالعمل الذي قدمه غلوب باشا للجيش العربي سيبقى من دون تغيير ، فقد أسهم في دفع تقدم الجيش في مختلف المجالات ، ولست الوحيد الذي يقدر الاسس التي ساعد في ارسائها بهذا الشكل الراسخ ، والذي بنينا عليه جيشاً نفخر به ، جيشاً لديه أعلى المستويات في التدريب والروح المعنوية في الشرق الاوسط اليوم .

مازلت اعتبر غلوب باشا صديقاً . التقيت به ثلاث او اربع مرات ، بما في ذلك أمسية استمتعت فيها بحديث مطول في حفل استقبال في لندن . وفي بعض الاحيان نتراسل او نتبادل ارسال البطاقات . وعدا عما قدمه للأردن من خدمات ، فاني معجب به لسبب آخر . أعرف أنه تأذى بشدة مما حدث ، وشعر أنه تعرض لمعاملة ظالمة . لكنه رجل مسن حكيم ، وهو الآن في الستينات من عمره ، ولم تظهر حكمته قط كما ظهرت في رد فعله العلني على ما حدث . فلو كان رجلاً من نوع آخر أقل حكمة لسيطرت عليه عواطفه وحطم بضربة واحدة كل العمل الرائع الذي بناه . لكن غلوب باشا تصرف بانضباط ووقار ، وحين كانت الصحافة البريطانية تهذي وتعربد كتب بنفسه رسالة الى صحيفة «التلغراف» ، لام فيها بشدة الذين يضخمون الموضوع ، مشيراً الى أن ما حدث ليس خطوة ضد بريطانيا ، بل شأن داخلي . لذلك ، حتى حين غادر شواطئنا وطار بعيداً عن المنزل الذي شغله لمدة ستة وعشرين عاماً ، وضع مصلحة الأردن فوق مصلحته . آمل أن يأتي لزيارتنا ذات يوم ، وسيكون موضع ترحيب دائماً .

١٠

١٩٥٧ - الملك ضد الحكومة

سأقاتل مهما كانت النتائج

كانت الأشهر الاثني عشر التي تلت اقصاء الجنرال غلوب فترة تجربة صعبة . فالحقبة التي كان النفوذ البريطاني يتغلغل فيها بقوة في شؤوننا قد انتهت ، ورغم سعادتي بأن بلدي يستطيع الآن النهوض بثبات على قدميه (وله مطلق الحق في ذلك) ، كنت موقناً تماماً بأن الفراغ الذي نجم عن الخروج المفاجىء للضباط البريطانيين لابد أن يقود الى تعقيدات . ربما كان من سوء حظنا أن يكون لزاماً علينا البدء من نقطة الصفر تقريباً . أولاً ، كان لابد من الضروري ايجاد الرجل المناسب لقيادة بلدنا وخاصة جيشنا . فقد كان النفوذ البريطاني مسيطراً الى درجة أن الضباط العرب لم تتح لهم الفرصة لاظهار ما اذا كان في وسعهم تولي مناصب عالية . وكان علينا الآن أن نجرب وأن نرتكب بعض الاخطاء .

واجهنا مشاكل مماثلة من الناحية السياسية . فخلال سنوات طويلة توقف قادتنا عن التفكير في الأردن كبلد يقف على قدميه ؛ إذ اصبح من البديهي تقريباً الذهاب الى السفير البريطاني طلباً للمشورة في كل أزمة تطرأ .

بمرور الاشهر بطيئة متثاقلة كانت الضغوط تتزايد الى أن انفجرت في ربيع العام ١٩٥٧ – بعد سنة بالضبط من إقصاء غلوب – بما يعرف باسم احداث الزرقاء ، والتي احبطت فيها ، بفضل الله ، وبفارق بضع دقائق ، مؤامرة رسمت بعناية وحيكت بدهاء لاغتيالي واسقاط العرش ، واعلان الأردن جمهورية . ولو نجحت لكان معنى ذلك ، من دون شك ، بداية النهاية للأردن .

فكيف امكن لهذه المحاولة الأنقلابية أن تقترب من النجاح بهذا القدر؟ وكيف حدث أني وجدت نفسي وحيداً في العالم أقف بين جماعتين من الجنود يطلق بعضها

النار على بعض ، وكنت قريباً الى درجة أني لم أشم رائحة الرصاص وحسب ، بل كنت احس حرارته ايضاً؟

الاجابة على هذه الاسئلة مذهلة ، وكذلك الامر بالنسبة للطريقة التي جرى فيها حبك خيوط المؤامرة . لكن ثمة أمراً واحداً مؤكداً : فاحداث الزرقاء ، التي كادت تكلفني حياتي ، كانت ويالسخرية ، احدى اعظم المنعطفات الى الافضل في تاريخ الأردن . وانظر اليها الآن على أنها الشيء الذي طهر المرارة التي كانت تعتمل ببطء وتأكل قلوب الرجال المخلصين .

كان الانقلاب سياسياً في الاصل ، لكن في تلك المرحلة من تطور الأردن كان الجيش قوة لا بد من اخذها بعين الاعتبار . وتبعاً لذلك ، تمكن العملاء المدفوعون من جهات أجنبية ، وبذكاء شيطاني ، من توريط الجيش في الازمة . وحيث أننا كنا ما زلنا في مرحلة التجريب ، لم يكن الامر صعباً ، وكل ما كان يحتاجه العملاء ايجاد ضباط غير مستقرين لم يعتادوا تولي السلطة .

وينطبق الأمر ذاته على السياسيين . وانا اتحمل كامل المسؤولية عن فترة التجربة تلك . فقد كان لدي احساس عميق بأن القادة السياسيين الأردنيين قد اعتمدوا على المساعدة الخارجية لفترة طويلة ، وكان من الطبيعي أن يقابل السياسيون الطموحون الناهضون الأصغر سناً ، والذين هم مثلي أنا ، هؤلاء السياسيين بمعارضة شديدة ، ويعتقدون أن الوقت قد حان للتخلص من القيود الاجنبية .

لذلك ، قررت اتاحة الفرصة امام الشبان الواعدين من السياسيين وضباط الجيش لاظهار همتهم . وكنت ادرك أن الكثيرين منهم يساريّون ، لكنني شعرت ، رغم ذلك ، أن معظمهم يؤمن ايماناً صادقاً بمستقبل بلده ، واردت أن ارى رد فعلهم على تحمل المسؤولية .

في الانتخابات التي جرت قبل نهاية العام ١٩٥٦ ، حصل الوطنيون الاشتراكيون على الاغلبية . وكان الامين العام للحزب ، سليمان النابلسي ، قد سقط في الانتخابات ، لكن نظراً لأن حزبه حصل على الاغلبية ، فقد اصبح رئيساً للوزراء . (في الأردن يمكن للمرء أن يصبح وزيراً من دون أن ينتخب في البرلمان) . كان النابلسي يسارياً ، رغم ذلك

شعرت أن من الواجب اعطائه فرصة . سارت الامور بسلاسة في البداية . لكن الصدام ما بين الملكية والحكومة أخذ يتصاعد بالتدريج . قد يبدو مثيراً للعجب أن يشارك سياسيون فازوا في انتخابات حرة بالتآمر ضدي بدلاً من أن يشغلوا انفسهم بالتخطيط للاصلاح . في الحقيقة أن «الاصلاح» الرئيسي بالنسبة للعصبة التي في السلطة كان القضاء على الملكية . وبسبب من دوافع منحرفة ، بما في ذلك توقع الحصول على أموال ، اعتقدتْ أن عبد الناصر والشيوعية يمنحانها أملاً أفضل للمستقبل . وقد وصلت في مؤامرتها الى مدى كبير . مثلاً ، في ٢١ كانون الاول ، وخلال اجتماع سياسي كبير في عمان ، وقف رئيس الوزراء الأردني ولمدة ثلاثين دقيقة يمجد الرئيس عبد الناصر ، ولم يتطرق ابداً لذكر دور الأردن في الشرق الاوسط . لكن كان ثمة ما هو اسوأ في الطريق ، فقبل اربع سنوات من تولي النابلسي السلطة ، كان الأردن قد أقر «قانون مكافحة الشيوعية» للعام ١٩٥٣ ، الذي منع اصدار الصحف الشيوعية . ورغم ذلك ، مرر النابلسي ورفاقه قراراً يسمح باصدار صحيفة شيوعية في عمان اسمها «الجماهير» . كما سمح لوكالة تاس السوفياتية للانباء بافتتاح مكتب لها في الأردن وتوزيع نشراتها بحرية . حتى الافلام السوفياتية بدأت في الظهور .

كانت الدعايات من الدول المجاورة تتصاعد باطراد بشكل ينذر بالخطر . وجرى تحريف قضية غلوب بطرية عجيبة . ورغم انني كنت الوحيد الذي اتخذ قراراً بتسريحه من الخدمة ، فقد بدا الآن وكأن كل سياسي طموح هو الذي أتخذ تلك الخطوة شخصياً . فكل واحد يدعي بأنه هو الذي اسقط «الاستعمار» وحقق «الحرية» للأردن . وفي صراعهم من اجل السلطة ولهفتهم للرشوات ، فقد حرفوا التاريخ أيضاً ، بحيث وجدتني يُشار اليّ باني «عميل للاستعمار» ، والعائق الوحيد امام مزيد من الحرية . ونسوا تماماً موقفي من قضية قناه السويس .

سرعان ما انتقلت الحركة المناوئة للقصر الى ضباط الجيش من الجناح اليساري . وانا لا القي باللوم كله عليهم . فقد كانت الدعاية هائلة . وأنفقت ثروات هائلة على شكل رشوات ، ووعد السوفيات علناً بتزويد الجيش بالسلاح «حال ذهاب الخائن حسين .»

انتابني القلق طوال اشهر عدة ، وبدأت ادرك أننا في مواجهة مشاكل خطيرة فعلاً في الاسبوع الاول من العام ١٩٥٧ . كنت وحيداً في القصر حين طلب احد ضباط الجيش القادمين من بيروت مقابلتي . كنت اعرفه جيداً ؛ كان قد أُرسل الى بيروت في مهمة خاصة . وحين دخل الى مكتبي وطلبت منه الجلوس ، قال لي : «ياصاحب الجلالة ، لا اريد أن اثير مشاكل ربما لا وجود لها ، لكني قلق للغاية من الطريقة التي يتصرف بها بعض ضباط جيشنا في بيروت ودمشق . ورأيت ضباطاً ينفقون نقوداً في النوادي الليلية لا يمكن أن يكونوا قد كسبوها من رواتبهم . ويبدوا أنهم لا يرافقون سوى زمر من الروس والمصريين .»

سألت الضابط - الذي لن اكشف اسمه - لماذا جاء الى عمان ، فقال لي انه طلب اجازة لمدة اسبوع بزعم زيارة عائلته ، لكن غرضه كان القدوم لمقابلتي .

«الشيء الوحيد ، ياصاحب الجلالة ، هو أنه ليس لدي شيء مؤكد» ، وأضاف : «الامر مثل قصة بوليسية حين لا يكون في وسعك الذهاب الى الشرطة لأنك لا تستطيع اثبات شيء ، لكني شعرت أن من واجبي أن احذركم ياصاحب الجلالة ، قد احضرت معي قائمة بالاسماء . ماذا تريدون مني أن افعل الآن؟»

فكرت ملياً ، ثم اخبرته بأن يطير عائداً الى بيروت في اليوم التالي ، وأن يواصل مراقبته لهم . كما اقترحت ارسال عنصر او عنصرين لا شك في ولائهم لمساعدته . وهكذا واصلنا مراقبته السلوكيات الغريبة لبعض كبار ضباطنا ومسؤولينا الذين كانوا ينفقون مبالغ كبيرة في الخارج .

لسوء الحظ ، تعثرت جهودنا حين اعتقل اثنان من عملائنا في اثناء تسجيلهما ارقام عدد من السيارات الأردنية خارج فندق السان جورج في بيروت . وكان كلاهما يرتدي ملابس مدنيّة ، لكنهما كانا مسلحين واضطرا للاعتراف بانهما ضابطان أردنيان . وقد جرى ابعادهما ، ورغم ذلك قد حصلت على ما يكفي من تحذيرات اوجزاها لي .

تسلل عملاء السوفيات او الجمهورية العربية المتحدة كان موجهاً إلى عدد من الشخصيات الرئيسة في الجيش والحكومة . ومنهم اللواء أبو نوار رئيس أركان القوات

المسلحة ، الذي كان صديقاً حميماً لي . علمنا أنه يقوم برحلات منتظمة الى دمشق ، ويعقد اجتماعات مع الملحق العسكري الروسي هناك . الهدف الآخر كان عبد الله الريماوي وزير الدولة للشؤون الخارجية (وليس وزير الخارجية ، لأن حكومتنا تشتمل على هذين المنصبين) . وكان الريماوي في ذلك الحين عضواً في حزب البعث . وكان هو ووزراء آخرون يذهبون بشكل منتظم الى دمشق ليلاً ، خاصة بعد الاجتماعات المهمة لمجلس الوزراء ، ويعودون في الصباح التالي . وقد اخبر بعض عملاء الاستخبارات رئيس الديوان : «لو فتحت الشرطة حقائب بعض قادة الحكومة عند الحدود الاردنية – السورية في الرمثا لوجدت نقوداً في بعض الحقائب .»

كان مجموع ما احضره الخونة الى البلاد يزيد عن مئة الف دينار ، بعضه لهم ، وبعضه الآخر لاستخدامه في الرشوة . لم نفتح حقائبهم قط – فهو أمر أخطر من أن يمارس ضد وزير . لذلك لعبنا لعبة الانتظار .

لا اريد أن اعطي انطباعاً بان الجيش كله على وشك الانهيار ، لكننا وصلنا مرحلة أصبح الكثيرون من الضباط والسياسيين لا يعرفون الى اين هم متجهون . بعضهم كان وطنياً حقاً لكنه كان يشعر أن الأردن أصغر من أن يقف وحده . وقرر بعضهم الآخر أن يهب نفسه الى دول عربية اخرى ، وكان يعني هذا في الحقيقة تقديم خدماته الى الشيوعية . وأخذ جيشنا ، الذي كان كفوءاً ذات يوم ، يتراجع . واصبح يتكون من جماعات متنافرة ، لكل جماعة معتقداتها السياسية الخاصة . وتذكروا ايضاً أن العالم العربي كله كان في حال هياج . كانت الاسلحة الشيوعية تتدفق على مصر ، وبدأت الشيوعية التي حصلت لنفسها على موطىء قدم في الشرق الاوسط ، تلعب لعبتها الماكرة في التظاهر بتأييد العروبة ، رغم اننا نعرف جميعاً أنها اسوأ عدو لأي حركة قومية . وكان لعملاء الشيوعية دور كبير في الاضطرابات ، وحين تعمقت الازمة حرضوا على الشغب في الشوارع . في المراحل الاولى لم تكن خطيرة ، فيما عدا عامل واحد : وهو أن قوات الامن التي كان يجب أن نتعامل معهم كانت كثيراً ما ترفض التدخل .

كان قائد قوات الامن في ذلك الحين بهجت التلهوني ، الذي جاهد عبثاً للسيطرة

على هذه الدائرة المهمة حيث لكل من مجلس الوزراء ورئيس الاركان عملاؤهم من بين كبار ضباط قوات الأمن ، الذين تلقوا رشاو ي كبيرة ، ويدينون بالطاعة لرؤسائهم هؤلاء . ولم يكن لدى الشرطي العادي فكرة عما كان يحدث ، ولم يكن بالطبع يتلقى اوامره من بهجت طبارة مباشرة ، بل من رئيسه المباشر ، والذي هو غالباً أداة في يد أشخاص من أمثال أبي نوار . وحين كان يطلب منه الا يتدخل في فض الشغب ، كان عليه اطاعة الاوامر ، وليس مناقشتها . وبعد أن استقال بهجت طبارة اعتراضاً على التدخل الخارجي ، ساءت الامور الى حد بعيد .

حل الربيع محفوفاً بالقلق . والربيع فصل جميل من فصول السنة في عمان ، حيث تظهر مساحات من الارض الخضراء بين المباني البنية بلون الصحراء ، والحدائق المظللة والمروج اليانعة ، والطقس اللطيف . ورغم ذلك كان ربيعاً تعيساً . كان في وسعي أن احس بالجو يزداد وطأة . والغوغاء يجوبون الشوارع ، ويتعمدون تحريض الجماهير على الشغب ؛ ومجلس الوزراء في حال اهتياج ، ودعاية العدو تثير في النفوس مشاعر بشعة . كان الشعار نفسه على الدوام - «عبد الناصر أسقط الاستعمار ، ايدوا منقذ العالم العربي!» واستطاع خبراء الدعاية إيصال رسالتهم إلى الناس بسهولة تدعو للدهشة . وكان يبدو مستحيلاً محاربة هذا العدد من الاعداء على كل هذه الجبهات وفي مواجهتنا جيش اسرائيل القوي ، ومن يعلم إن كان في وسع جيشنا المسّيس أن يوقفه؟ ورغم ثقتي في جنودنا ، فإنني كنت احس بقلق شديد . كنا نتلقى الطعنات من شقيقاتنا الدول العربية ، وبلدنا نهباً للعنف .

ومع تصاعد التوتر في البلد كله ، تصاعد التوتر أيضاً بيني وبين الحكومة . وحيث أن بعض قادة الحكومة كان يقبض اموالاً من دمشق (او من عملاء السوفيات في دمشق) فقد كان احد اهدافهم الرئيسة أن يعترف الأردن بالصين الحمراء / او روسيا . وقد رفضت ذلك رفضاً قاطعاً . في الواقع أن صلاح الدين البيطار ، وزير خارجية سوريا ، بعث رسالة الى الحكومة الأردنية يقترح عليها أن تكون اكثر وداً تجاه الروس والشيوعيين . وكان النابلسي وزيراً للخارجية إضافة الى منصبه رئيساً للوزراء ، لكنني كنت اشك في أن

الريماوي (وزير الدولة للشؤون الخارجية) كان خلف هذا التحرك . وكانت اتصالات الريماوي مع السوريين علنية الى درجة أنه قيل : «إن مكاتب وزارة الشؤون الخارجية الأردنية موجودة في دمشق .»

عرض النابلسي رسالة البيطار على الحكومة - فاستشطت غضباً . لم يعجبني محتوى الرسالة او مضمونها ، واعتبرت أن تدخل دولة عربية شقيقة في الشؤون الأردنية هو نوع من الوقاحة . وقررت ارسال جواب الى البيطار باسمي ، وبعد اعداد الرسالة بعثت بها الى وزارة الشؤون الخارجية مع اوامر بضرورة ارسالها الى وزارة الخارجية السورية عبر القنوات العادية . لكن الحكومة اعترضت على ارسالها .

تجاوز الامر الحد . فجلست وكتبت الى رئيس الوزراء رسالة بينت فيها بأشد العبارات اخطاء الشيوعية كما اراها واشدد فيها بمنتهى الوضوح على ضرورة أن يتخذ الأردن موقفاً مختلفاً اذا ما اريد لبلدنا أن يواصل الدفاع عن نفسه . وقلت في الرسالة :

«الحرب الباردة الدائرة ما بين الكتلتين العالميتين جلبت الى بلدنا مبادىء ومعتقدات معينة تتعارض تماماً مع مبادئنا . وتسللت وجهات نظر غريبة الى اوساطنا . وما لم يجر ايقاف هذه المبادىء والمعتقدات ، ووجهات النظر التي لا مبرر لها وبترها ، عند حد معين ، فسوف تؤثر على العزة والمكانة التي تسعى اليها امتنا . وسوف يستبدل الاستعمار ، الذي أشرف على النهاية في الشرق العربي بنوع جديد من الاستعمار . واذا ما استبعدنا هذا الاستعمار فلن نتمكن قط من التخلص منه او اسقاطه . ونحن ندرك أخطار التسلل الشيوعي داخل وطننا العربي ، كما ندرك اخطار ادعياء القومية العربية الذين لاعلاقة لهم بالعروبة . ويجب أن تتحرر صفوفنا من الفساد والتآمر . ولن نسمح بأن يكون بلدنا ميداناً للحرب الباردة ، التي قد تنقلب الى حرب ساخنة مدمرة ، اذا سمح العرب للآخرين بالتسلل الى صفوفهم . ونحن نؤمن ايماناً راسخاً بحق هذا البلد في العيش . وأن يكون له أساس متين يقوم على أمجاد الماضي وعلى الامل في المستقبل . ولا يجب أن تترك ثغرة تسمح للدعاية الشيوعية بأن تخرب بلدنا . هذه وجهات نظرنا ننقلها لسعادتكم بصفتكم

مواطناً ورئيساً لوزرائنا . آمل أن تقوم انت وزملاؤك الوزراء بتبني موقف يضمن مصالح هذا البلد ووقف الدعاية والتحريض التي يقوم بها من يريدون التسلل الى صفوف المواطنين . وسوف توفر لكم القوانين والانظمة المرعية في هذا البلد فرصة واسعة للعمل . وسوف يساعدكم وعي الناس ويدعم جهودكم .»

ما أن تأكدت من استلام النابلسي لرسالتي ، حتى أعلنتها ، فرحبت بها اغلبية الشعب الأردني – الشرفاء ، والذين يخافون الله ويشكلون عماد البلد – بفرح . لكن العديد من الوزراء لم يرحبوا بها . بعد ذلك مباشرة عقد بعض الوزراء مقابلات محرفة للغاية مع صحف ووكالات اجنبية ، خاصة وكالة تاس ، ووكالة الشرق الاوسط للانباء القاهرية . وفي غضون ساعات قليلة ، كانت الصحف تنشر مقالات عن الصراع ما بين القصر والحكومة .

في اليوم التالي لتسلم النابلسي الرسالة – التي كانت بداية لكل ما حدث – طلب مقابلتي ، فوصل بصحبة أبي نوار ، والريماوي وعدد آخر من الوزراء اليساريين في الحكومة . وكان سبب اللقاء بسيطاً : طلبوا مني أن «اخفف لهجة» رسالتي .

فرددت عليهم : «لا ، مطلقاً ، ما كتبته توجيه يتعلق بالسياسة ، ليس لهذه الحكومة وحسب ، بل لأي حكومة قادمة .»

استمر اللقاء قرابة الساعة ، لكني رفضت حتى مجرد التفكير في إجراء تغيير . كان نقاشاً هادئاً في مجمله ، فقد كان في يد النابلسي ورقة رابحة سيلعبها فيما بعد . كان يخطط للبدء بخطوات للاعتراف بالصين الشيوعية ، واقامة علاقات دبلوماسية مع السوفيات . صحيح أنه كانت لدي السلطة لوقف مثل هذا التحرك ، لكن النابلسي كان يأمل بأنني اذا قلت «لا» فسوف أُهاجم مرة أخرى «كعميل للاستعمار» .

وهذا ما حدث بالفعل . تبع خطوة الحكومة ، ورد فعلي عليها ، اعمال شغب قادها السياسيون وجماعات الجيش المعارضة للملكية . ورفضت قوات الامن مرة اخرى وقفهم ، والقى النابلسي ، رئيس الوزراء ، خطاباً ملتهباً في حشد هائل من الناس في ساحة عمان الرئيسة ، وكان يقف الى يساره عيسى مدانات ، وهو احد المحرضين

الشيوعيين الرئيسيين ، يلوح للجماهير . وكان ذلك تصرفاً غريباً من جانب رئيس الحكومة بعد استلامه رسالة مني لوقف التسلل الشيوعي!

كان الثامن من نيسان قد حل ، واكتشفت فجأة أن اللواء المدرع قد تحرك وطوق العاصمة واحتل نقاطاً استراتيجية ، ولم يعد في وسع احد دخول عمان او الخروج منها من دون المرور امام أسلحته .

صعقت ، فلم يكن للامر سوى معنى واحد - خطر محدق بالأردن ، وهجوم متوقع على القصر . وكان ذلك يشير الى أن ابي نوار يعد للانقلاب . فارسلت في طلبه ، وانا أحاول جاهداً أن أسيطر على غضبي ، وسألته عما يحدث .

فاجاب بلطف : «مجرد روتين . للتفتيش على حركة السير الداخلة والخارجة من عمان» .

قصة معقولة! اقترحت سحب القوات - كان اقتراحاً عرضياً - فوافق ابو نوار وغادر .

اصبحت الآن وحيداً . والوضع يتدهور ساعة بعد اخرى . وليس لدي سوى القليل من الاصدقاء ، والحكومة تناصبني العداء علناً .

في اليوم التالي سحبت المدرعات ، لكني كنت أعرف أن هذا ليس سوى إجراءً مؤقتاً . وقد حان وقت العمل .

في يوم ١٠ نيسان وصلت الى مكتبي واخبرت التلهوني ، رئيس الديوان : «حان الوقت لطرد هذه الحكومة!» وامليت ر سالة للنابلسي آمره فيها بحل الحكومة ، حملها التلهوني الى مكتب رئيس الوزراء . كانت الوزارة في حالة انعقاد عند وصوله . فطلب التلهوني من رئيس الوزراء ترك الاجتماع ، وحين اصبحا وحيدين ابلغه فحوى رسالتي ، لكنه لم يسلمه الرسالة ، خوفاً من استخدامها في الدعاية السياسية . وبعد حوار قصير عاد النابلسي الى الاجتماع . ثم ارسلوا وراء أبي نوار ، رئيس الاركان ، وضابطين آخرين . لماذا؟ لطلب مشورته! فقال ابو نوار : «عليك أن تستقيل - لسبب واحد . وهو أن الملك لن يستطيع تشكيل حكومة اخرى من دونك . استقل! وانا اعرف كيف اجبر الملك على اعادتك» .

بعد ساعات قليلة جاء النابلسي الى القصر وقدم استقالته . وحرص في رسالته على التأكيد على جملة «بناء على اوامر جلالتكم» - لاستخدامها لاغراض الدعاية من دون شك .

في تلك الامسية جاء خالي الشريف ناصر لمقابلتي مع بعض افراد العائلة ، وكان قلقاً للغاية للمنحى الذي وصلت اليه الاحداث ، رغم أنه لم يكن يعرف كم كنا قريبين من حدوث ثورة مسلحة . وبدا صريحاً للغاية حين قال : «اكره أن اقول هذا ، سيدي ، لكن يبدو اننا فقدنا كل شيء ، والاشاعات والتقارير تشير الى أنك تقف وحيداً . فهل ستقف وتقاتل ام نحزم حقائبنا؟ الا تعتقد أنه يتوجب علينا التفكير بعائلاتنا ومستقبلها وأن نحاول ابعادها عن طريق الاذى؟»

قلت له : «لا استطيع ، عليّ أن ابقى . تعلم انني أؤمن بما افعل .»

لم يكن موقفاً عنيداً من جانبي فقط ، لاني كنت أشعر أني أفهم شعب الأردن وأؤمن به . لقد حاولت أن اقيم جواً عائلياً بحيث لا اكون بعيداً عن شعبي ، وكنت أؤمن بأنه حين تحين اللحظة الحاسمة ، فاننا لن نخسر بالضرورة .

«لا بد » ، قلتها لخالي ، «لا استطيع أن اغادر . انت تعلم انني أؤمن بخدمة بلدي . وساقف واقاتل مهما كانت النتائج .»

١١

الزرقاء - الجولة الأخيرة

نحن في سباق مع شمس الصباح

كنا في أواسط شهر رمضان المبارك. شهر الصيام والعمل الصالح، وكنت أحس من بداية هذا الشهر، أن أمراً سيحدث قبل انقضائه. فالقضايا أعمق من أن تجري تسويتها. ورغم أنني كنت أشعر بأني بذلت كل ما في وسعي، سواء لشعبي في الأردن أو لعائلتي الأكبر في العالم العربي، فقد كانت لدي بوادر شكوك حول ماإذا كنت سأرى عيد الفطر أنا أو الأردن كبلد، أتذكر حين خطرت لي أولى هذه الشكوك قدت السيارة إلى وادي الأردن للاستراحة بضع ساعات، حيث يمتلك خالي مزرعة صغيرة وكنت صائماً انتظر غروب الشمس، كي أفطر واتناول أول كوب من الشاي، وأول سيجارة لي في ذلك اليوم، حين تساءلت:

«أين سينتهي هذا الأمر؟»

شيء واحد كنت متأكداً منه. سأقاتل من أجل شعبي حتى النهاية. لكن الأمور سارت من سيء إلى أسوأ. وحكومة النابلسي وعناصرها اليساريين، مدعومين من عبد الناصر. قد تسللوا إلى كل منحى من مناحي الحياة. الدعاية وكل الأدوات المؤثرة على الشعب كانت تكتسح كل شيء في العالم العربي. ولا بد للمرء من الانتساب إلى أحد الأحزاب إن أراد الحصول على عمل، أو حتى النجاح في امتحان. كانت القومية العربية الناصرية تحتل مكان القومية العربية الحقة. وكانت اجتماعات الحزب الشيوعي تجري علناً في الساحات العامة في الأردن. والرايات الحمر ترفرف رغم حقيقة أن الشيوعية محظورة بأمر القانون. وبسبب خشية كل حزب من الحزب الآخر، كانوا جميعاً يسلحون أعضاؤهم، لكن بقي سؤال من دون إجابة: هل ستقف الأغلبية العظمى والتي ترقب هذه الأحداث بقلق، إلى جانب وطنها؟ لن يطول الأمر حتى أعرف ذلك

كانت الاحداث تسير بسرعة صوب ذروتها . صليت من اجل شعبي وبلدي ، وصليت ايضاً كي يمنحني الله القوة والعزم لبذل اقصى ما استطيع .

لكن من هم الاعداء الذين كتب عليّ أن اقاتلهم! مثلاً ، قبل استقالة النابلسي يوم ١٠ نيسان جرى اعتراض برقية مفتوحة . العجيب انها مرسلة من الرئيس عبد الناصر الى رئيس وزراء الأردن . ومضمونها أكثر عجباً . كانت البرقية تقول : «لا تستسلم . إبق في منصبك . التوقيع : عبد الناصر .»

بدأ الصراع بيني وبين القوى التي لم تعد تؤمن بالأردن او الولاء لمفاهيمه . حاولت عبثاً تشكيل حكومة جديدة طوال يومي ١١ و ١٢ نيسان . طلبت اولاً من المرحوم حسين فخري الخالدي ، وهو قومي عربي بارز من الضفة الغربية ، تشكيل الحكومة . لكنه سرعان ما وجد أن الامر مستحيل . فقد حرص النابلسي على منع أي من اتباعه من تقديم المساعدة .

وأكبر دليل على الثقة الكبيرة التي كان يتمتع بها من كانوا يحاربونني حديث أُبلغت به جرى في نادٍ ليلي في عمان حيث كان النابلسي وجماعته يحتسون الشراب في ساعة متأخرة من الليل مع علي أبي نوار قائد القوات المسلحة . التفت النابلسي الى اصدقائه وسأل : «مع من يقف الشعب؟» وكان الجواب : «معك!» ثم التفت الى ابي نوار وسأله : «مع من يقف الجيش؟» ورد عليه ابو نوار : «معك ياصاحب السعادة» . ثم سأل النابلسي بسخرية ، «ومن الذي يقف الى جانب الملك اذاً؟»

حين وجد الخالدي أن من المستحيل تشكيل الحكومة ، استدعيت عبد الحليم النمر . والنمر وطني اشتراكي مثله في ذلك مثل النابلسي ، وكان وزيراً في حكومة النابلسي ،لكنني كنت آمل في أن يتمكن من تشكيل حكومة جديدة غير متطرفة . لكن الوطنيين الإشتراكيين رفضوا السماح له بتشكيلها الا بموجب شروطهم : وهي أن تضم عدداً من الاشخاص المعروفين بتعاطفهم مع الشيوعيين . وهو امر لم استطع قبوله . فكرت بعد ذلك في سعيد المفتي ،لكن في تلك الاثناء قرر ابو نوار وصحبه أنهم إن لم يستطيعوا الحصول على حكومة يرأسها النابلسي ، فقد تكون خطوة جيدة أن يتظاهروا

بتأييد النمر، لكسب الوقت وضعضعة موقفي .

يوم ١٣ نيسـان ، سمع ابو نوار اني طرحت فكرة تكليف سعيد المفتي بتشكيل الوزارة . وحدثت عدة امور بارزة في ذلك اليوم . فقد وجدت أن أبا نوار كان يتشاور مع المسؤولين المصريين والسوفيات في دمشق . حين استعيد تلك الاحداث ، فان الشيء المذهل هو أن ابا نوار قد بدأ يسيطر عملياً على المسرح السياسي كله . في وقت متأخر من مساء ذلك اليوم عقد ابو نوار اجتماعاً مع سياسيين من الجناح اليساري ، اتخذ فيه قراراً بدعم عبد الحليم نمر . لكن بقي عائق وحيد . فهمْ يعرفون اني رفضت قبول كامل لائحة المرشحين للوزارة .

كان وقتاً حافلاً ببضع تهديدات مبطنة . ففي وقت مبكر من مساء ذلك اليوم استدعي المفتي الى معسكر للجيش خارج عمان . وحين وصل ذلك الوطني المخلص ، دُعي للجلوس في غرفة خاصة ، كان فيها عدد من كبار الضباط ، فاخبره ابو نوار ، بوصفه قائداً للجماعة : «عليك أن تذهب فوراً الى الملك وتخبره أن الوضع في البلد وفي الجيش متوتر للغاية . وقل له ، إنه إذا لم تُشكل حكومة يقبلها الشعب وجميع الاحزاب وتعلن في الاذاعة في موعد لا يتعدى الساعة التاسعة من مساء هذا اليوم ، فاني وزملائي لن نكون مسؤولين عن أي شيء قد يحدث .»

غادر المفتي الاجتماع ، مذهولاً ، ومهاناً ، وغاضباً ، من دون أن ينطق بكلمة واحدة واتجه الى قصر بسمان لابلاغ الرسالة . اخبرته ألا يقلق . فلم يكن ذنبه أن يكلف بنقل هذه الكلمات المهينة .

لم أشأ أن اخضع للتهديد ، لكني قررت استدعاء النمر لمحاولة اخيرة .

تناقشنا طويلاً حول تشكيل الحكومة . لم يبد عليه أنه عنيد متشدد ، في الواقع أنه اعترف بأن «اصدقاءه» متشددين . وشعرت أنه ربما كان ثمة مخرج من هذا المأزق . وغادر القصر لاجراء مزيد من المشاورات .

تطورت الامور بسرعة الآن . جاء ابو نوار الى القصر وتحدث مع رئيس الديوان بحضور سعيد المفتي . وأعلن مرة أخرى : « إن لم يسمع الجيش بأن الحكومة شُكلت بحلول

الساعة التاسعة ، فان البلد سيقع في مشاكل انتم مسؤولون عنها» . ثم اضاف كلاماً له مغزاه : «اعتبروا هذا البيان انذاراً نهائياً .»

كان تشكيل الحكومة ما زال ممكناً ، لكن حادثاً جرى وحطم امالي . وصل الى القصر عدد من الضباط من الزرقاء يصحبهم ابن احد زعماء العشائر البارزة في الأردن . لم يطلبوا مقابلتي ، لكنهم سلموا رئيس الديوان رسالة عاجلة كي يسلمها لي شخصياً .

فتحت الرسالة ، وحين بدأت في قراءتها نسيت كل شيء آخر . وبشعور من الذهول وخيبة الامل اعدت قراءة الفقرة الحاسمة :

«الضباط الموالون في منطقة الزرقاء قلقون ، سيدي ، بسبب اوامر غريبة تلقيناها . لدينا معلومات بأن بعض الوحدات ستوجَّه اليها الاوامر بمحاصرة عمان . سيدي ، يطغى علينا الشك في مدى ولاء من يتولون القيادة . ونلتمس من جلالتكم أن تسمح لنا بأن نتلقى اوامرنا من خلال جلالتكم .»

وتمضي الرسالة فتقول إن بعض الوحدات التي يقودها ضباط يُعتمد على ولائهم قد أُرسل الى مناطق بعيدة في مختلف انحاء الأردن ، وكنت على علم بذلك . كانت كتيبة المصفحات الاولى ما زالت في الزرقاء ويقودها نذير رشيد ، وهو صديق حميم لابي نوار . كان ابن عم أبي نوار ، معن أبي نوار يقود لواء مشاة الاميرة عالية في الزرقاء ، وكانت تساورني شكوك حوله اكثر من بعض قادة وحدات معينة في الزرقاء ، وهو اكبر معسكرات الجيش واهمها في بلدنا .

بعد ذلك مباشرة حضر الشريف ناصر ، الذي كان قائداً لكتيبة المصفحات الاولى قبل أن يترك الجيش ، وقال لي : «يوجد ضابط يرغب في مقابلتكم بشكل سري ، في مسألة عاجلة للغاية .»

طلبت من خالي احضار الرجل - وهو ضابط كنت أعرف ولاءه - الى مكتبي الخاص فوراً . اسمه عبد الرحمن سابيلا . كان قد أرسله ضباط وضباط صف وافراد الكتيبة المدرعة لمقابلتي . وهو شخص رائع ، وعربي حميم .

سألته : «الى أي مدى وصلت الامور؟» فرد علي بصوت عميق وعينين تلتمعان

بالتصميم : «مولاي ، يوجد خونة في كل مكان لكن ليس في الكتيبة المدرعة الاولى . ثق بنا ياسيدي . فالضباط وضباط الصف والجنود يقفون خلفكم بثبات .»

ثم أخذ يشرح لي خطة المؤامرة . جمع قائد الكتيبة بعض الضباط في مركز قيادته وشرح لهم أن الخطة تقضي بالتحرك فور تلقي الاشارة الى عمان ، ومحاصرة القصر الملكي والاستيلاء عليه والقبض عليّ . وعند ادنى بادرة للمقاومة كانت الاوامر تقضي «بالرد على كل رصاصة بقذيفة مدفع عيار ستة ارطال .»

وجرى اختيار الكتيبة المدرعة الاولى لهذه المهمة ، ووُعدوا جميعاً بالمجد . الاّ أن الضباط اجتمعوا فيما بينهم واقسموا على الولاء للملك والبلد . ثم تشاوروا بعد ذلك مع ضباط الصف والجنود الذين يثقون بهم ، ووافقوا جميعاً على التظاهر بالولاء للمتآمرين ، وفي الوقت نفسه إشعاري بالتطورات وانتظار تعليماتي . فشكرت الله أن في الأردن رجالاً مثل هؤلاء .

طلبت من عبد الرحمن العودة الى وحدته ، وقلت له : «انصح اصدقاءك وزملاءك أن يحرصوا على عدم اظهار لونهم حتى اللحظة الحاسمة . إبق على اتصال ، الله معكم .»

بعد ذلك ، جلست وحيداً أفكر . كنت في غاية القلق . لم أكن خائفاً من الموت – فقد رأيته كثيراً وعن قرب بحيث لم اعد اخشاه – لكنني كنت خائفاً جداً على بلدي وشعبي وعلى القوات المسلحة التي كانت مصدر اعتزاز دائم لي وفخر لكل أردني . عدت الى مكتبي وطلبت من ابي نوار الحضور لمقابلتي . لقد حان الوقت للعمل بسرعة قبل أن تخرج الامور عن سيطرتي . وقررت حسم الامر مع قائد قواتي المسلحة مرة والى الابد .

جلست انتظر ، متأملاً في غرابة الجنس البشري . فما هي القوى الدافعة وراء السلوك الخائن لعلي أبي نوار؟ فها هو رجل كان في يوم من الايام صديقي ، علقت عليه آمالاً عظيمة – مع ايمان وثقة ايضاً . هل يعقل انه استسلم ببساطة للشيوعيين واعوانهم المصريين؟ من المؤكد أنه وقع تحت سيطرتهم وتورط معهم بشدة ، لكن هل هذا كل شيء؟ أم أن شيئاً آخر دفعه ، الضعف الاكبر للانسان ، شهوة السلطة؟

كنت اعلم أنه اذا انهار الأردن فسوف تكون تلك أقسى ضربة توجه للقضية العربية

منذ زمن بعيد . فلا شك في أن اسرائيل ستضرب ضربتها ، وستصبح الدول العربية - او ما تبقى منها - تحت سيطرة الشيوعية او يقسَّم كما يقسم المنتصرون الغنائم . ثمة عائق واحد يجب أن يختفي قبل أن يكتسح المد الشيوعي العالم العربي كله . وكان ثمة ايضاً من يقولون علناً : «دع اسرائيل تأخذ الضفة الغربية ، وسوف نستعيدها بقيادة عبد الناصر ودعم الشيوعية .»

كانت الساعة قد شارفت السابعة مساءً . وقد مضى عليّ اسبوع تقريباً من دون أن يغمض لي جفن . كنت اعمل في مكتبي ليل نهار ، محاولاً حل بعض الامور . وحين دخل ابو نوار الى مكتبي ، نظرت الى الرجل الانيق المتوسط الطول ذي الأربعة والثلاثين عاماً ، وشاربه الاسود الذي خُط بعناية ، ولم استطع تمالك اعصابي اكثر من ذلك . طلبت منه بغضب تفسيراً كاملاً لكل ما علمته في ذلك المساء .

وما أن بدأ في الكلام حتى رن جرس الهاتف : رنة طويلة حادة . مكالمة مستعجلة لابي نوار . على الجهة الاخرى من الهاتف كان ابن عم ابي نوار ، معن قائد لواء الاميرة عالية .

سمعت صوته المذعور يتحدث بسرعة ، تغير لون ابو نوار واسترق نظرة اليّ . ثم صرخ في الهاتف : «امنعهم ، اوقفهم بالله عليك مهما كان الثمن . ماذا عن المدفعية؟ اين اللواء الحياري؟»

سمعت بوضوح صوت معن على الخط : «خرج الامر عن السيطرة . اللواء كله يعتقد أن ملكهم قد قُتل ، او أنه سيقتل هذا المساء . الضباط لا يستطيعون السيطرة عليهم . وهم يحاولون التحرك الى عمان . ولا يمكن انقاذ الموقف الا الحضور الفوري لصاحب الجلالة .»

نظر علي اليّ . اختطفت الهاتف من يده ، وصرخت قائلاً : «سأكون عندك على الفور!» ثم قلت لابي نوار : «انتظر هنا ، سأعود بعد قليل .» ثم خرجت مسرعاً من المكتب .

امرت التلهوني ، رئيس الديوان : «احضر لي سيارة بسرعة .»

في قاعة القصر قلت لاثنين من الضباط ، احدهما ابن عمي زيد والآخر قائد قوات

حرسي الخاص قليلة العدد : «أنتما الاثنان اخرجا فوراً واخبرا أية قوات متجهة الى عمان بأنني حي وبخير . اخبرا الجنود أن يعودوا الى معسكراتهم . وسوف الحق بكما بعد قليل .»

غيرت ملابسي ، ولبست الزي العسكري ، وعدت في غضون دقائق قليلة . استدعيت ابا نوار : «تعال معي سنذهب الى الزرقاء .»

قفزت الى المقعد الامامي المحاذي للسائق . في سيارة شيفروليه رمادية اللون من سيارات القصر . وجلس خالي ، الشريف ناصر ، وابو نوار في المقعد الخلفي . وانطلقا في اتجاه الزرقاء . تتبعنا سيارة أبي نوار والضابطان الآخران . لااعتقد انني شعرت بالغضب في حياتي كلها كما شعرت في تلك اللحظات .

فجأة التقينا بشاحنة عسكرية ممتلئة بالرجال عند جسر الرصيفة . وحين توقفت السيارتان والشاحنة ، كان في امكاني رؤية الشاحنة ممتلئة بالجنود والمدنيين ، وهم يصرخون بغضب ، ويلوحون بالعصي والبنادق فوق رؤوسهم . حين قفزت من السيارة خرج ضابط وبعض الجنود من الشاحنة وتعرفوا عليّ فجأة . وكانت لحظة مؤثرة للغاية . تفجرت الدموع من عيني وتبادلنا جميعاً القبلات ، وتحلقوا حولي قائلين : «نحن رجالك!»

طلبت منهم العودة وصعدت الى السيارة . لم الحظ ابا نوار الذي كان يقف مختبئاً خلف السيارة . صعد الى السيارة ، وحين تحركنا استدارت الشاحنة وتبعتنا ، وكان الجنود مازالوا يهتفون ويطلقون النار في الهواء . وكان ابو نوار يرتجف من الخوف . حين قال :

«سيدي ، ارجو أن تسمح لي بالعودة الى عمان .»

«لماذا؟»

«سيدي ، لقد سمعتهم يطالبون بموتي . إن لدي عائلة واطفالاً . واذا ذهبت معك ، فلن يطلع عليّ نهار .»

«اوقف السيارة» ، امرت السائق بذلك ، وأضفت وانا أحس بالقرف «انزل ، عد الى عمان وانتظرني في القصر .»

وهكذا اتجهت بالسيارة الى المجهول من دون قائد جيشي . وسرعان ما مررنا بالمزيد من الشاحنات ، والمزيد من الجنود الغاضبين ، والمزيد من المدنيين ، والمزيد من الطلقات التي تقطع سكون الليل ، والمزيد من التوقف ، والمزيد من حواجز الطرق . كان الضباط يوجهون بنادقهم نصف الآلية الى قائدهم الاعلى من دون أن يعرفوا ، ولم يكونوا يميزونني الاّ بعد أن اخرج من السيارة او أن اصرخ بهم قائلاً : «انا حسين . انا بخير ، حياتي ملك لكم ،كل شيء على ما يرام . عودوا الى ثكناتكم . سأكون عندكم قريباً .»

كان مشهداً رائعاً . بعض الجنود كان يضع خوذة فولاذية على رأسه وبعضهم لم يكن يرتدي سترته ، حتى اني رأيت رجلاً وآثار صابون الحلاقة الجاف مازال على وجهه . ابتهجوا جميعاً . وفي لحظة اصبحت سيارة الشيفروليه تصدر صوت قرقعة بعد أن ضغطت زنبركاتها الى اقصى حد بسبب الثقل ، حتى أن سقفها خُسف ايضاً . فقد صعد الجنود الى سطح السيارة ولم يشاؤوا أن ينزلوا . على أية حال ، قام خالي وهو رياضي قوي البنية بدفع سقف السيارة بكتفه واعاده الى وضعه . كما تخلصنا من بعض الركاب!

في معسكر الزرقاء لم أعثر على أثر للضابطين المرافقين لي ، ولكنني انقذتهما فيما بعد قرب قيادة الفرقة ، وقيادة لواء الاميرة عالية ، حيث قام بعض الجنود باعتقالهما رافضاً تصديق روايتهما معتقداً أنهما من المتآمرين . وكانا في غاية الانزعاج حين وصلت اليهما! .

عند نقطة معينة توقف تقدمنا بسبب شاحنات محترقة اصيبت بسبب اطلاق النار ، وكان ثمة المزيد من الصدمات .

بدأت صورة ما حدث تتضح ببطء . جرى استعراض احدى الكتائب من لواء الاميرة عالية ، وتحدث اليها قائد اللواء الذي اخبر الجنود أن عليهم المغادرة فوراً في مسيرة تدريبية طويلة ، من دون سلاح . لكن الجنود كانوا قد سمعوا بعض الاشاعات ولم يكونوا مطمئنين .

فجأة صرخ احد ضباط الصف : «وماذا عن الملك؟» وخلال ثوان فتحت ابواب الجحيم . قام افراد الكتيبة وتبعهم افراد اللواء كله باقتحام مستودعات الذخيرة ، وتجمهروا

حول الضباط المشبوهين ، واتخذوا طريقهم الى عمان لمعرفة الحقيقة بانفسهم . ووجدت أنا شخصياً قائد اللواء يركض في الطريق وحيداً . اخذته معي ، لكن بعض الضرر كان قد وقع فعلاً ، فقد تصرف المتآمرون بسرعة . احضروا وحدات المدفعية واخبروهم أن المشاة تحركوا الى عمان ضد الملك . فخرج رجال المدفعية المذهولين لايقافهم . وبدأ القتال ، وكل فريق يعتقد بأن الفريق الآخر مذنب .

اتجهت الى قيادة الفرقة ، فوجدت الجنود وقد دمروا كل شيء في طريقهم ، وفي مركز قيادة اللواء ايضاً ، وجدت كل شيء محطماً ، فيما عدا صورة للاميرة عالية . تحدثت الى الجنود من على غطاء محرك السيارة ، ثم من على ظهر عربة مدرعة . وكنت اسمع بين الحين والآخر رشقات متقطعة من رشاشات ثقيلة تئز قريباً من رأسي ، حتى أني كنت استشعر لهيب الطلقات وهي تلتمع في الظلام . وكدت افقد مسدسي في احد الاماكن حين احاط بي الجنود . ولم استطع ترك قيادة اللواء الا بمنتهى الصعوبة . في البداية رفض الجنود أن يدعوني اواصل التقدم . وكانوا يصرخون ، «سوف يقتلونك ، سيدي ، لن ندعك تذهب» . في النهاية قدت السيارة إلى مواقع المدفعية . كان الوضع دقيقاً ما بين خطي اطلاق النار ، لكن شيئاً لم يحدث ، لحسن الحظ . ورغم أني لم ادرك ذلك في حينه ، فقد نجوت باعجوبة في تلك الليلة . إذ قام احد الضباط المتمردين ، بعد أن عرف بقدومي بلغم جسر صغير وكان ينتظر مروري عليه لينسفه ، لكن رصاصة اصابته في الظلام فجرح ومررت انا على الجسر بسلام .

عرفت الآن أن ابا نوار ، وبدلاً من أن يعود مباشرة الى عمان حاول دخول منطقة المعسكر من طريق خلفي ، لكن حين وجد الجنود يقودون عرباتهم في اتجاه سيارته ، عاد ادراجه الى قصر بسمان . لاشك في أنه كان يأمل في أن يجد كتيبة المصفحات وقد طوقته . حين وصل أخبر رئيس الديوان أني أعدته كي يؤكد له وللجميع أني بخير وأن ينتظروا عودتي .

أمضيت عدة ساعات في الزرقاء ،كانت الساعة قد قاربت منتصف الليل حين بدأت العودة الى عمان ، بعد أن أعدت النظام الى المعسكر .

عند وصولي ، صعدت درجات القصر راكضاً بحثاً عن ابي نوار . كانت القاعة

الامامية مزدحمة بالجنود الموالين من كتيبة المصفحات ، الذين اخبروني أن ابا نوار موجود في مكتبي الصغير . كما سمعت ما حدث . حين وصل الجنود حاول ابو نوار التحدث الى الضباط ، معتقداً أنهم حلفاء له . لكن رقيباً اوقفه ، وبيده رشاش «ستن» ، ونظر في وجه قائده وقال : «لو لم تكن في قصر الملك لمزقتك ارباً . ارجع وصلِ من أجل أن يعود الملك سالماً معافى ، عندها سيخبرنا هو ما نفعل بك .»

في الداخل كان ابو نوار في حال انهيار تام ، والجنود يرددون حول القصر هاتفين : «تسقط الشيوعية! الموت لابي نوار والخونة!»

جاء ضابطان ، وسمحت لهما بمواجهة ابي نوار ، الذي انسحب بعد ذلك الى الغرفة المجاورة . كان يبكي الآن ، منكسراً ، ومنظره يثير الشفقة .

ماذا أفعل بهذا الرجل الذي كان في يوم من الايام صديقاً حميماً؟ الماضي كله مرّ امامي وانا ارى الضباط يصرخون عليه . تذكرت الصحبة الجيدة ايام باريس (حتى العشاء الذي استمتعنا به في مطعم الكوليزيه) . تذكرت المساعد الشاب النشط الذي وضعت فيه ثقتي . تذكرت كيف تحدثنا عن افتخارنا بالأردن ، والمرات التي ناقشنا فيها خططنا ودوره في هذه الخطط . ها هو الآن ينتحب والدموع على وجهه ، يملأه الخوف على حياته .

أمرته بأن يأتي الى مكتبي الخاص . سألته : «حسناً ، مالذي تتوقع أن افعله بك؟»

تحول وجه أبي نوار ذو الشارب الاسود ليصبح بلون الرماد . توسل اليّ أن ابقي على حياته .

سألته : «ماذا فعلت بالثقة والايمان اللذين وضعتهما فيك ذات مرة؟»

توسل اليّ مجدداً أن أُبقي على حياته ، وراح يردد الاكاذيب بشكل غير مترابط . فجأة احسست بأني في غاية التعب - هبوط مفاجيء على ما اعتقد بسبب الازمات التي تلاحقت الواحدة تلو الاخرى طوال الاسبوع - وأحسست بوجع في القلب . كيف يمكن لشخص وثقت فيه أن يتصرف على هذا النحو ، وكيف يكون في وسع البشرية أن تولد مثل هذا الخداع .

لم اطاوع نفسي في تسليمه الى الموت . وقد انتقدوني لعملي الرحيم هذا - ومن المؤكد أن ابا نوار انقلب عدواً نشطاً لي منذ ذلك الحين - لكن هكذا كان . هل هي ذكريات الماضي التي تقيد مشاعر المرء؟ كنت تعباً للغاية ، واحس بالغثيان والخجل من ابناء جنسي بني البشر ، ولم استطع قتله .

رغم اعتقاد العديدين باني اخطأت حين حافظت على حياته ، لكنهم نسوا عاملاً مهماً اكتشفته من مشاعري الشخصية . لم اشأ أن اقول في ذلك الحين ماذا كان سيحدث بعد بضع اسابيع ، وكان في ذهني اعتبار واحد ، وأنا في منتهى هدوء الاعصاب - لم اشأ أن أجعل منه بطلاً . فلو اسلمته للموت ، لحظي اسمه باحترام اكبر بكثير مما يحظى به اليوم .

سألته مرة اخرى : «حسناً ، مالذي تريدني أن افعله؟»

فاجاب : «هل تسمح لي باجازة لمدة اسبوعين أقضيها في ايطاليا حتى تنجلي الامور؟» قلت له : «حسناً ، اذهب!»

كنت اعرف أنه ما أن يغادر الأردن حتى لا نراه ، في الأغلب ، مرة اخرى . في الحقيقة أنه قضى الليل مع سعيد المفتي ، الذي طلبت اليه أن يعتني به . وقام شقيق سعيد ، وهو طبيب ، باعطائه مسكن . وفي اليوم التالي ، غادر ابو نوار وعائلته البلد الى دمشق ، ولم يعودوا ابداً .

تجاوز الوقت منتصف الليل ، لكن لاسبيل الى النوم . ثمة امران يجب انجازهما : تشكيل حكومة ، والاعداد لاطلاع الأردنيين على الحقيقة عبر الراديو . كان مركز البث الرئيسي في القدس ، وليس لدينا في عمان سوى ستوديو صغير وجهاز ارسال لا يغطي مداه البلد كله .

على اية حال ، لم تنته متاعبنا عند هذا الحدّ ، استغرق الامر بضعة ايام حتى تمكنا من إعادة الهدوء . في تلك الايام والليالي المؤرقة ، شكلت حكومة لم تدم . عينت رئيساً جديداً للاركان هرب الى سوريا . ولم تعمل محطة الاذاعة الرئيسة من القدس حين كنا في أمس الحاجة اليها لأن مديرها وبعض موظفيه الشيوعيين اغلقوها . وبدأت وحدات الجيش تعلن ولاءها للملك والبلد ، الواحدة تلو الاخرى . وجرت اعادة تنظيم الكثير من

مواقع القوات . في الخارج كان الضغط هائلاً . القوات الاسرائيلية احتشدت على الجبهة الأردنية مستعدة للانقضاض علينا . الحملات الاذاعية من جميع المحطات اليسارية في المنطقة تصاعدت الى درجة لم نعهدها من قبل . ثم ، وفي خضم مصارعتي لكل هذه المشاكل ، تحرك لواء مدرع سوري بقيادة الفريق عبد الحكيم عامر ، في اتجاه عمان من قاعدته في الشمال وطوق مدينة اربد الأردنية . ألن تنتهي مشاكلنا؟ منذ حرب السويس ، كان يرابط في الأردن ، بموافقتنا ، لواءان - واحد من سوريا والثاني من المملكة العربية السعودية . لكن لا الرئيس السوري ولا رئيس أركانه كان يعرفان شيئاً عن هذا التحرك او عمن امر به . على أية حال هرع الملك سعود لمؤازرتي في هذه المرحلة بأن وضع قواته الموجودة في الأردن تحت قيادتي المباشرة . كان لواء جيداً بذلنا كل ما في وسعنا لتدريبه ليصبح قوة ذات كفاءة .

في اليوم التالي للتحرك السوري - الذي قمت على الفور باصدار امر بالغائه - ذهب القائد الجديد للجيش الأردني للقاء نظيره السوري قرب الحدود . وكنت قد عينت بشيء من الريبة اللواء علي الحياري لخلافة ابي نوار . وبعد أن ادى اليمين القانونية ، ذهبت لآخذ قسطاً من النوم ، وذلك لاول مره منذ ايام ، تاركاً خالي الشريف ناصر ، الذي عاد الى الخدمة في الجيش ، مناوباً . كنا قد اعتدنا الازمات الى درجة أنه حين علم بأن اللواء الحياري عبر الحدود الى سوريا واعاد حرسه الخاص لم يكترث حتى لايقاظي واطلاعي على الامر! كانت السابعة صباحاً حين دخل الشريف غرفتي . وقد ترك الحياري البلد منذ ساعات .

قال : «صباح الخير ، سيدي .»

رددت : «صباح الخير ، هل من جديد؟»

«لا شيء مهم ، سيدي ، سوى أن قائد الجيش فر الى سوريا!»

«ماذا ! لماذا لم توقظني؟»

«لم اعتقد أن للامر كل هذه الاهمية بحيث ازعجك وانت بحاجة ماسة للراحة .»

لم أتمالك نفسي من الضحك ، لاننا كنا نعرف أن الحياري متورط مع أبي نوار وهو

شخص ضعيف . وقد جعلته قائداً للجيش لأني لم أجد شخصاً مناسباً للمنصب . ادهشني هذا الهدوء الطبيعي في خالي واسعدني كثيراً . فكرت وقلت : «على اية حال ، لن تسوء الامور اكثر من ذلك!»

على الفور عينت اللواء حابس المجالي ، وهو صديق قديم امين ، في قيادة القوات المسلحة . التفت بعد ذلك الى المسرح السياسي . لم تستطع الحكومة البقاء . شكلها الدكتور حسين فخري الخالدي وضمت ممثلين عن النابلسي والجماعات الاخرى ، لكن الشد والضغط من الداخل مزقها ارباً ، وكان العنف الغوغائي في الشارع يحطم هيبتها . وفي القدس هدد قائد الجماعة الشيوعية في البرلمان ، يعقوب زيادين ، بأن الغوغاء سيحرقون الاماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية - التي اسماها «افيون الشعوب» - إنْ لم يتظاهر الشعب ضد حكومة الخالدي .

حين جاء الخالدي لتقديم استقالته كانت الدموع في عينيه . قال لي : «لقد فقدت أبوي ، سيدي ، من دون أن تنهمر الدموع من عيني . اما الآن فلا استطيع أن امسكها ، وانا ارى ما يفعله انعدام المسؤولية بوطني . لكني أعددت كل شيء وبذلت ما في وسعي في حال ما اذا اعلنت الاحكام العرفية . ويبدو أنها المخرج الوحيد . حظاً طيباً ، سيدي ، واشكركم على ثقتكم .»

شكرته على كل ما فعله . فقد تعرض لضغط شديد . كان يوجد عدد آخر من السياسيين في الديوان ، وقد شارفت الساعة على العاشرة مساءً . ومن بين هؤلاء صديق قديم هو ابراهيم هاشم ، الذي قُتل بوحشية في العراق فيما بعد ، وسليمان طوقان ، وسمير الرفاعي ، الذي تولى رئاسة الوزراء مرات عدة في الأردن . لم يكن هذا وقت الكلام . اطلعتهم على الصورة كاملة . قلت : «ايها السادة ، هذا ليس طلباً ، انه تجنيد ، نحن في سباق مع الزمن - مع طلوع شمس الصباح ، إما أن تشكل حكومة قبل الفجر ، والا فان هذه هي نهاية الأردن . نحن بحاجة لسيطرة - سيطرة سريعة وحازمة . لايمكنني تحقيق ذلك وحدي . هذا بلدكم ، تذكروا أن الكثيرين منكم اسهموا في بنائه . وهذا ليس وقت المجادلات التافهة .»

تشكلت حكومة في زمن قياسي برئاسة ابراهيم هاشم ، مع سمير الرفاعي وآخرين . واصبحت الاذاعة جاهزة لالقاء كلمة مطولة على الشعب الأردني . فرضنا الأحكام العرفية ، ومنعنا جميع الاحزاب السياسية ، ووضعنا الجيش في حال طوارىء على اساس مؤقت .

وقفت امام القصر ، اتنسم هواء الصباح العليل . كان ذلك هو اليوم الذي عاد فيه السلام الى الأردن وفر الخونة إلى مختلف الاتجاهات ، وانكشفت اسرارهم ، بعد أن ساد الهدوء والسكينة . اخيراً ، وفي نحو العاشرة صباحاً ، ذهبت للنوم . وصلت الليل بالنهار في الايام الاخيرة حتى لم اعد اميز بينهما ، لكنني نمت طويلاً باطمئنان بعد أن شكرت الله على نعمه . لقد تعدى الأردن الأزمة بأمان .

انتهى شهر رمضان ، واحتفل الناس بعيد الفطر . واعتقد أن الجميع لم يغفلوا عن شكر الله لانقاذه بلدنا ، الذي كان وجوده كله في عالم الغيب طوال شهر الصيام المبارك .

هكذا أنتهت الجولة الاخيرة . واكتشفت فيما بعد أنه جرى حتى تصميم اعلام جديدة لجمهورية الأردن ،حيث وجدنا نموذجين في مكتب ابي نوار . كان واثقاً من النجاح الى درجة أنه لم يكلف نفسه اخفائهما . من الواضح أن المؤامرة نظمت في الخارج ، وكان الهدف النهائي ، بعد اغتيالي ، تشكيل نوع من الاتحاد الفدرالي مع مصر ، وجعل الأردن عملياً دولة تابعة لروسيا السوفياتية ، هذا اذا بقي قائماً .

آخر ما سمعته عن أبي نوار أنه في مصر . عبد الحليم النمر ، الذي حاول ابو نوار أن يفرضه عليّ كرئيس للوزراء ، يعمل الآن مزارعاً في مكان غير بعيد عن عمان . بقي النابلسي قيد الاقامة الجبرية في منزله حتى العام ١٩٦١ ، لكنه الآن حرّ في عمان . معن ابو نوار يعمل في وزارة الخارجية . فبعد محاسبته على اعماله درس العلوم السياسية ، وهو اليوم أردني مخلص وموال ، ويعمل بجد .

حين أعود بنظري الى الماضي ، لا اكاد اصدق أن بعض هذه الشخصيات تورط في انقلاب أعد له بذكاء ومن كافة النواحي سوى أنه لم ينجح . والمتآمرون الذين ارادوا تدمير الأردن نسوا عاملاً واحداً : الشعب الأردني .

١٢

١٩٥٨ - الاتحاد العربي - وتحذير

عدني أن تخبر الملك عن الخطر

يوم ١٤ شباط/ فبراير ١٩٥٨ ارتبط العراق والأردن باتفاقية دستورية متبادلة لتشكيل الاتحاد العربي . كانت لحظة تاريخية ، لم تكن فقط تتويجاً لسنوات كفاحي وحسب ، بل ايضاً ، بداية لحقبة جديدة للقضية العربية ، كما كنت آمل ، تقوم على المساواة المطلقة . كانت محاولة لاتحاد أنموذجي بين دولتين ، تشكل اول خطوة عملية تجاه الوحدة العربية الشاملة التي نفتقر اليها هذه الايام . لكنها للاسف كانت اكثر مما يستطيع بعض الزعماء العرب هضمه . بعد خمسة اشهر من توقيع الإتفاقية ، سقط ابن عمي ، الملك فيصل ، قتيلاً بوحشية ، واصبح الاتحاد العربي ، مع كل اهدافه وغاياته بقايا حلم . وكان الذنب في هذا كله يقع على شخص واحد - الرئيس عبد الناصر .

السبب بسيط ، اتحادنا كان فيه كل ما يجب أن يكون في اتحاد بين دولتين صديقتين ؛ قبل اسبوعين من اتحادنا ، شكلت مصر وسوريا اتحاد الجمهورية العربية المتحدة - وفيه ، حسب رأيي ، كل ما لا يجب أن يكون في اتحاد بين بلدين . في الاتحاد العربي كان الأردن والعراق شريكين متساويين . اما الجمهورية العربية المتحدة فكانت ترتيباً غير متوازن يحظى فيه احد الشريكين - مصر بدور مسيطر ، في حين أن الطرف الآخر تابع . من المحتمل أن عبد الناصر كره في اتحادنا المثالية التي كان يفتقر إليها اتحاده . إضافة إلى ذلك ، اعتقد أن لدى عبد الناصر من الدهاء بحيث يدرك أن الدول العربية الاخرى ستقارن على المدى الطويل ، بين ما فعله هو وما فعلناه نحن ، وهي مقارنة لن تكون في صالحه . فضلاً عن أن العراق ، الذي يحاذي هدف عبد الناصر الخالد ، الخليج الغني بالنفط ، هو أحد اغنى الدول العربية ، والاتحاد العربي كان سيعني نهاية احلامه الخفية في جعل الجمهورية العربية المتحدة وحدة جغرافية واحدة . فالاتحاد العربي

الجديد ، وبرنامج دفاعه المشترك يمتد من سيناء الى الكويت . ربما كان عبد الناصر يأمل في ابتلاع الأردن في يوم من الايام ، ويشكل بذلك اتصالاً برياً ما بين سوريا ومصر ؛ فإن كان الامر كذلك ، فان اتحاد الأردن والعراق وضع حداً لطموحه هذا .

كان اتحادنا رداً طبيعياً على نمو الشيوعية في العالم العربي ، خاصة اننا ، انا والملك فيصل ، من احفاد الشريف الهاشمي حسين الذي رفع راية الثورة ضد الاتراك خلال الحرب العالمية الاولى (وهي ثورة لم تحقق بعد كامل اهدافها) . وقد توج كلانا ملكاً في اليوم ذاته ، وكلانا يؤمن ، بحرارة ، بالتحرر العربي الحقيقي الذي حارب جدنا الاكبر من اجله . كانت تلك فرصة حقيقية نظهر فيها للعالم العربي كيف يمكن لنظام ديمقراطي دستوري في الحكم أن يعمل بين دولتين متحدتين وتقدميتين .

يالها من آمال عريضة حملناها صباح يوم ١٤ شباط ، وحين فردنا علم الثورة العربية الكبرى – بالوانه الاسود ، والاحمر ، والابيض ، والاخضر – للمرة الثانية! عملت من دون كلل من اجل وحدة بلدينا ، ولو كان الامر بيدي لحدثت تلك الوحدة في وقت مبكر اكثر . حين عانقت الملك فيصل ، كنت قد أعددت الخطاب الذي كنت سالقيه من الاذاعة بعد وقت قصير : «هذا أسعد يوم في حياتي ، يوم عظيم في التاريخ العربي . تظللنا راية واحدة ، راية العروبة التي حملها جدنا العظيم ، الحسين بن علي ، في الثورة العربية الكبرى .»

وافقت بسرور أن يكون الملك فيصل رئيساً للدولة الموحدة ، وأن اكون انا نائبة . اما عاصمة الاتحاد فسوف تنتقل من عمان الى بغداد وبالعكس كل ستة اشهر . وسيكون الاتحاد مفتوحاً اما الدول العربية الاخرى التي قد ترغب في الانضمام اليه . اما السياسة الخارجية ، والمالية ، والتعليم ، والتمثيل الدبلوماسي فسوف يأتي في الاشهر القادمة ، وأن تحافظ كل دولة على كيانها المستقل وسيادتها الاقليمية والنظام القائم .

في بداية عهدي بالملك تخيلت شكلاً من اشكال الاتحاد القومي مماثلاً لحلف بغداد ، لكن احلامي تبخرت حين شكل حلف بغداد بتلك الطريقة المتسرعة ، ليشمل العراق فقط ، في حين كان من الحكمة بناء حلف دفاعي يشمل جميع الدول العربية .

ورغم أن الأردن كان طرفاً في الاتحاد العربي فانه لم ينضم الى حلف بغداد ، وما زلت اشعر أن اتحادنا يقوي الى حد بعيد موقفنا الدفاعي ضد السياسات التي تفيد الشيوعية في تغلغلها داخل العالم العربي . كانت حركة عربية اصيلة ، هدفها القومية العربية البعيدة عن الانانية ، ومناهضة الشيوعية ، لأن الأثنتين لا تلتقيان . اما بالنسبة للاستعمار ، فقد كنا ضحاياه وحاربناه منذ بداية الثورة العربية الكبرى .

كانت لدينا اختلافاتنا حين شكلنا الاتحاد . فليس في وسع بلدين أن يتحدا من دون صعوبات . بعض الصعوبات سببها المشاكل التي يواجهها الملك فيصل . فنظراً لكونه ابن عمي وزميلي في كلية هارو ، كان قريباً مني للغاية . وأردد هنا كلمات عبد الناصر التي قالها لي في العام ١٩٥٥ ، «اتمنى له النجاح كله وأعلق عليه آمالاً عظيمة .» لكن مأساة فيصل تكمن في حقيقة أنه لم يُسمح له قط بتحقيق احلامه . كما لم يُسمح له قط بتولي المسؤولية فعلياً . حين اعود بفكري الى الايام التي وقّعنا فيها الاتحاد ، يطوف بذهني فيض من الذكريات ، واعتقد أن من المهم سردها ، إن لم يكن لشيء فللدفاع عن ذكرى فيصل ، صديقي وأخي في كل شيء ما عدا الاسم . وكما سأقص بعد قليل ، حذّرت مسبقاً من اغتيال ابن عمي ، الا أن المسؤولين في العراق لم يصغوا لتحذيراتي ، وبدا فيصل عديم الحيلة للحكم على الامر او التصرف حياله . فكيف يمكن لوضع كهذا أن يحدث؟

اتذكر ، قبل مدة طويلة في هارو ، كيف تمتعت على الدوام (رغم النظام الداخلي الشديد) باحساس كبير بالحرية ، وأشعر بالاسف للطريقة التي حوصر بها فيصل ، وعدم قدرته على التصرف وحده ، بحيث يمكن للمرء أن يقول ، إنه كان سجين منصبه . ولا يقع اللوم كله على قدامى السياسيين هناك . فالمشكلة تكمن في علاقته بخاله ، ولي العهد ، الذي خسر حياته ، وياللسخرية ، الى جانب الملك في مذبحة بغداد .

عين ولي العهد ، الامير عبد اللاله ، وصياً على العرش بعد مقتل الملك غازي ، الذي كان يحظى بشعبية واسعة ، في حادث سيارة . وكان فيصل في ذلك الحين ولداً صغيراً . سيطر ولي العهد على المسرح السياسي طوال سنوات ، الى أن تولى ابن عمي

سلطاته الدستورية . وقد صلى جميع العراقيين لليوم الذي سيصبح فيه ملكاً . لكن في الواقع أن توليه العرش لم يغير شيئاً . قدم ولي العهد الكثير للعراق ، لكن علاقته تجاه فيصل كانت قد تغلغلت عميقاً في نفسه بحيث أنه تشبث بسلطته . ورغم أنه لم يتمتع بأية شعبية في العراق ، فقد مارس سلطة عظيمة استمرت حتى يوم مقتله ، واعتقد أن نفوذه أسهم في الموقف اللامبالي الذي ابدته حكومة العراق تجاه التحذير الذي تلقته حول الكارثة الوشيكة . ففي ذلك الحين كان حكمه على الامور قد تردى .

للاسف ، لم اكن انا وولي العهد على وفاق ابداً . لقد تربينا على احترام من هم اكبر منا سناً ، لكن يحدث في بعض الأحيان الا يكون سهلاً التقيد بهذا التقليد ، كما حدث في علاقتي بولي العهد . وتعود برودة علاقتنا الى حادثة وقعت في ساندهيرست . حين كنت مرشح ضابط هناك ، كان فيصل يملك بيتاً في منطقة ستاينس ، يستخدمه عند زيارته لبريطانيا . في احدى المناسبات جاء فيصل مع ولي العهد لزيارة ساندهيرست . كان يوم سبت ، على ما اذكر ، وثمة حديث عن اجازة لنا ! وكنت قد خططت لزيارة لندن ، لكن عند انتهاء الزيارة ، سألني فيصل : «لم لا تعود معنا الى ستاينس لتناول الشاي؟ يمكنك بعدها الذهاب الى لندن .»

وافقت وغادرنا جميعاً معاً . وقام ولي العهد بقيادة السيارة . جلس المساعد (الذي اصبح ، حين وقع الانقلاب ، قائداً للحرس الملكي) في المقعد الامامي ، وجلسنا انا وفيصل في المقعد الخلفي ، وتبعتنا سيارتي .

في الطريق بدأت مشاحنة عائلية ما بين فيصل وولي العهد . كان الاخير غاضباً من الملك ، ورغم أني رأيت أن من غير المناسب بدء هذا الجدل امامي وامام المساعد ، فقد حاولت كتم انزعاجي المتزايد . في الحقيقة اني كنت في غاية الغضب : فمثل هذا التصرف بالنسبة لي لا يحتمل . بعد ذلك هدأت المشاحنات .

حين اقتربنا من ستاينس ، سأل فيصل ولي العهد : «خالي ، هل يمكننا القيام بجولة قصيرة رجاء؟ انهم يصورون فلماً في مكان قريب هنا ، وقد يكون من الممتع أن نتفرج لبضع دقائق .»

لم يكلف ولي العهد نفسه حتى عناء الرد . صعقت لذلك ، ففيصل هو ملك العراق على كل حال! .

ثم ، ومن دون الاهتمام بأي اعتبار ، فقد وتّر ولي العهد اعصابه مرة اخرى . ومن دون سابق انذار شن حملة طويلة موبخاً الملك وكأنه ولد صغير مشاغب . عند ذلك فقدت اعصابي ، فانفجرت في ولي العهد قائلاً : «خفف السرعة ، رجاءا» وحين اجفل والتفت اليّ ، قلت له : «يؤسفني أن أحضر هذه المشاحنة العائلية ، خاصة مع وجود آخرين ، لقد حاولت تمالك نفسي بقدر الامكان ، لكني غير مستعد لسماع المزيد من هذا . لطفاً أوقف السيارة .»

فتوقف ، وخرجت من السيارة من دون النطق بكلمة أخرى ، وصفقت الباب الخلفي .

كانت تلك نهاية حفلة شاي ستاينس! انتظرت سيارتي ، وحين وصلت قدتها عائداً الى لندن . ربما كان تصرفي طائشاً ، لكنه لم يكن نتيجة شجار واحد ، بل نتيجة لتراكمات فترة طويلة كنت ارى فيها روح ابن عمي الذي احبه وهي تتحطم .

ربما أن ولي العهد لم يسامحني قط . في الحقيقة أنه حين ساء مرض والدي وبدأ البحث في مستقبل الملكية في الأردن ، صدف أن كان في عمان .

قال ولي العهد لرئيس الوزراء : «مهما كان قراركم ، لا تدعوا الامير حسين يصبح ملكاً! في الاقل ليس الآن .»

فسأله رئيس الوزراء : «لماذا بالله عليك؟»

«إنه عديم المسؤولية ، ولا يعرف شيئاً عن هيبة المُلك .»

هذا ومثله كثير قاله عني ، لكن لحسن الحظ كان رئيس الوزراء يعرف خيراً منه!

اذكر مثالاً آخر جعل الدم يغلي في عروقي . كنت في زيارة لبغداد ، وخرجت مع فيصل لرؤية الموقع الجديد للقصر والمكاتب الملكية . وكنت انا وهو في المقدمة ، وملك العراق يقود بنفسه سيارة رياضية صغيرة ، رثة المنظر ، تبدو كأنها التقطت من مزاد

للسيارات المستعملة . وكان ولي العهد وكبار المسؤولين الآخرين يتبعوننا في سيارة حديثة فخمة من افضل ما صنعت شركة رولس رايس .

فسألت الملك : «ألا تعتقد أن عليك الحصول على سيارة افضل؟»

فهز فيصل كتفيه ، ولم يجب ، وبقيت انا صامتاً .

استشطت غضباً الى درجة أني حين عدت الى بغداد اتصلت هاتفياً بموريس رينور في عمان وقلت له : «اريدك أن تكون في بغداد غداً . هل يمكنك أن تقود سيارة الاستون مارتن الجديدة الى هنا؟ لقد اهديتها الى الملك فيصل .»

هذا الحادث ، ومثله كثير ، لم يفعل سوى زيادة الجفاء بيني وبين ولي العهد . ولم آت على ذكره الاّ لأنه يظهر سبب الفجوة التي كانت قائمة بين الملك فيصل وشعبه . لم يكن في وسعه قط أن يفعل شيئاً او يرى احداً من دون اذن ، ويمكنني القول ، إنه حتى الاذن لم يكن يمنح له دائماً . وتبين هذه الامثلة ايضاً لماذا كانت لدينا صعوبات معينة في تشكيل الاتحاد العربي .

خلال المحادثات الاولية ، حضر فيصل الى عمان من دون ولي العهد وسار كل شيء بيسر . وافق على اقتراحي أن نتولى انا وهو دورياً رئاسة الاتحاد .

ثم حضر ولي العهد . اعترض بشدة على الترتيبات ، وخلال واحدة من اصعب ليالي المفاوضات تجادلنا وتجادلنا الى أن وضعت ، في نهاية الامر ، امام خيارين : إما أن يكون فيصل رئيساً دائماً لدولة الاتحاد ، او ، اذا كنا سنتبادل المنصب ، أن يكون للعراق عدد أكبر من الاعضاء في البرلمان المشترك .

بدا الملك فيصل محبطاً ، وشعرت انا بالاهانة ، لكن القضية الحقيقية كانت تفعيل الاتحاد . قلت : «لا يهمني منصبي ، لكن مكانة بلدي تهمني ويجب أن يكون للأردن في البرلمان المقترح عدد من الاعضاء مساو للعراق . فأساس هذا الاتحاد كله هو المساواة .»

على هذا الاساس اتفقنا ، تنازلت ، واصبح الملك فيصل رئيساً للاتحاد ، وتشكل الاتحاد العربي .

بالطبع ، كنا مهتمين بموقف الرئيس عبد الناصر تجاه الاتحاد الجديد . البداية كانت كلها ابتسامات . ابرق بالتهنئة للملك فيصل حتى قبل وصوله الى بغداد ، واصفاً الاتحاد بانه «خطوة مباركة» يتطلع اليها العالم العربي كله بأمل كبير . ومعبراً عن ثقته في أن شباب الملك فيصل وايمانه واخلاصه ستكون القوة الدافعة لتحقيق الحلم العربي الكبير في الوحدة . القومية العربية تفخر بهذه الخطوة التي اتخذت في عمان ، ولا شك في أن الاحداث الاخيرة في «هذه الايام الجيدة للامة العربية» تشير الى أن يوم الوحدة قد بزغ . واختتم البرقية بالقول : «اهنئكم من كل قلبي ، ياصاحب الجلالة . واسأل الله أن يوجه خطاكم للفلاح ويبارك شعبكم العظيم .»

ابرق الملك فيصل الرسالة لي ، راغباً في سماع رأيي . ابتسمت حين قرأتها . فمنذ ايام العنف حين كان عبد الناصر يحرض على اضطرابات حلف بغداد ، وانا احاول اصلاح الامور بين بلدينا . في الحقيقة ، أن الأردن لعب دوراً اساسياً في جمع كلمة العالم العربي خلال غزو السويس في العام ١٩٥٦ . وكنا أول من وقف الى جانب عبد الناصر حين أمم قناة السويس ، وأول من دعى العالم العربي للوقوف الى جانبه بعد هجوم اسرائيل والدول الغربية ، وقد عملت انا والرئيس اللبناني كميل شمعون معاً لترتيب اجتماع للدول العربية لمناقشة سبل دعم مصر . وكم كان صعباً جمع الدول العربية الى جانب عبد الناصر! ورغم ذلك ، تناسينا الماضي ، وقمنا بذلك . حتى اننا وافقنا في وقت سابق على وضع جيوش كل من الأردن والمملكة العربية السعودية ومصر وسوريا تحت قيادة واحدة . عادت اليّ كل هذه الذكريات حين لمست البرقية . ورغم أن عبد الناصر كان يعرف أن الأردن بذل جهداً كبيراً لتحقيق هذه الوحدة ، فإنه لم يبرق لي وانا اعرف السبب . كانت طريقته في اشعاري بأن الأردن كدولة وانا كملك ليس لنا اهمية عنده . ولا أشك في أنه كان يستمتع بتصور أن العراق سيسيطر على الأردن كما بدأ هو يسيطر على سوريا . لم يكن في وسعه ادراك اننا احرار وشركاء على قدم المساواة .

قلت لفيصل : «عليك الاجابة على البرقية ، بالطبع ، واخبرته الا يأخذ الكلمات المعسولة فيها على محمل الجد ، وشرحت له اسباب ارتيابي . وكنت على حق ، فخلال بضعة أشهر بدأ زعماء ما يدعى بالجمهورية العربية المتحدة ينظرون الى قوتنا المؤسسة

حديثاً على أنها تعرقل طموحاتهم بحيث اتخذوا كل الخطوات الممكنة لتصفيتها . وحين فشلت الدبلوماسية ، استخدموا الرشاشات .

وصلت الآن الى القصة المأساوية حول معرفتنا بأن ثمة انقلاب يجري التخطيط له في العراق ، ورغم ذلك لم يكن في وسعنا اقناع العراقيين بالاصغاء الى تحذيراتنا . انا شخصياً كان لدي تحذير مسبق عن الانقلاب قبل فترة من اغتيال ابن عمي . جاءت المعلومات الاولية بعد اعتقال عميل ناصري من الأردن هو مرشح الضابط احمد يوسف الحياري ، من كتيبة الدبابات الرابعة . كان احمد مكلفاً بمحاولة اغتيالي واغتيال خالي الشريف ناصر وعدد آخر من المسؤولين عن طريق قذف قنابل يدوية في احتفال عام . وعند اعتقاله ، أدلى باعترافات كاملة ، بيّن فيها أن ثمة انقلاباً تحرض عليه الجمهورية العربية المتحدة سيقع في العراق في اواسط تموز ، مع انقلاب آخر في الوقت نفسه في الأردن . وكنا قد اكتشفنا معلومات اخرى ، قبل فترة ، ولم يكن لدي الكثير من التفاصيل وحسب ، بل ايضاً اسماء بعض قادة الانقلاب . وكانت الاحداث في بغداد قد هُيئت للقيام بانقلاب جرى توقيته بحيث يتزامن وقوعه مع انقلاب عمان .

كان اول ما يجب عليّ فعله هو تحذير ابن عمي . فاتصلت به شخصياً بالهاتف ، وقلت له ، «لدي معلومات في غاية الاهمية عن انقلاب يجري التخطيط له في العراق ، ارجوك كن حذراً جداً جداً .»

سألني : «ماذا تقترح؟»

رددت : «ابعث شخصاً لرؤيتي ، شخصاً مهماً . وسو ف أشرح له شخصياً كل شيء . صدقني ، هذا الامر مستعجل للغاية ، بالفعل .»

شكرني الملك فيصل وأعد الترتيبات لسفر الفريق رفيق عارف ، قائد قوات الاتحاد العربي ، الى عمان . لم يكن لدينا وقت نضيعه اذا اردنا كشف المتآمرين . وحال وصوله عقدنا مؤتمراً في مكتبي في الديوان الملكي .

مازلت اذكر المشهد تماماً . استدعيت الى مكتبي رئيس الديوان ورئيس الوزراء وحضر ايضاً القائد العام للقوات المسلحة الأردنية . ببطء ودقة ، قام ضابط من المخابرات بقراءة

التفاصيل المشؤومة التي جمعنا قطعها . استرقت النظر الى الفريق عارف عدة مرات . كان يبدي ضجره بشكل مؤدب . وعند الانتهاء من سرد الادلة ، تمطى وضحك - الضحكة العالية المرحة المشهورة في الشرق الاوسط كله - وقال : «ياصاحب الجلالة ، نشكركم على اهتمامكم ، وانا اقدر كل ما بذلتموه من جهد ، لكنني أؤكد لكم أن الجيش العراقي مبني على التقاليد . وهو بشكل عام افضل جيش في الشرق الاوسط . لم يواجه المشاكل - او التغييرات - التي واجهها جيشكم في السنوات القليلة الماضية ، سيدي» .ثم توقف قليلاً لالتقاط انفاسه واردف : «اشعر أننا نحن من يجب أن يقلق على الأردن ، ياصاحب الجلالة ، هذا الانقلاب يستهدف بلدكم ، ونحن قلقون عليكم انتم . اتوسل اليكم أن تحذروا .»

صرخت :«لكن عليك أن تدرك أن الامر خطير بالنسبة للعراق ايضاً!»

رد : «انني ادرك ذلك» . لكنني اتساءل إن كان قد فهم .

«في الاقل ، عدني ، حضرة الفريق ، بأنك ستنقل المعلومات كاملة الى صاحب الجلالة في بغداد ، عدني بأن تُطلع الملك والمسؤولين على الخطر .»

«اعدكم بذلك ، ياصاحب الجلالة ، سأطلع الملك والحكومة على كل شيء .»

بعد ذلك ، استأذن الفريق عارف بالانصراف . لقد فعلت كل ما استطيع . وفي يوم الجمعة السابق ليوم الاثنين الذي حدث فيه الانقلاب الدامي عاد عارف الى بغداد .

بعد ان تُركت لظنوني ، لم يكن في وسعي فعل شيء الا الصلاة بأن يكون عدم اهتمام الفريق عارف صحيحاً . وتبين فيما بعد أن تحذيري لم يكن الوحيد . فالاتراك ايضاً حذروا العراقيين من الانقلاب .

خلال عطلة نهاية الاسبوع تحدثت مرة اخرى مع ابن عمي . كان ذلك قبل يوم من رحلة مقررة له لزيارة تركيا ، تمنيت له الخير . وفي اثناء غيابه كان عليّ تولي رئاسة الدولة ، واخبرته بأني سافعل كل شيء لخدمة الاتحاد . في الواقع انني كنت اخطط للذهاب الى العراق شخصياً ومحاولة حل بعض الامور ، الا أنني لم اذهب قط .

١٣

١٩٥٨ - اغتيال الملك فيصل

ألن تنتهي متاعبنا ابداً؟

كان اغتيال ابن عمي ، فيصل ملك العراق يوم الاثنين ١٤ تموز / يوليو ١٩٥٨ اقسى ضربة اتلقاها انا شخصياً حتى الآن . وكان ايضاً كارثة سياسية من الدرجة الاولى بالنسبة للأردن ، لأنه حطم آمال بلدينا اللذين ضمهما الاتحاد العربي منذ فترة وجيزة فقط .

كانت الساعة نحو السابعة صباحاً حين ايقظتني اول مكالمة هاتفية تعلمني بالانباء . لكن الكثير منها في ذلك الصباح ، كان مجرد شائعات : مرة تقول أن الملك قد قُتل ، وبعد لحظة تقول إنه سالم وبخير ، وبلاغ آخر يقول إنه في طريقه الى تركيا كما كان مخططاً في الاصل . حاولنا عبثاً الاتصال ببغداد بواسطة الهاتف ، لكنه كان مستحيلاً . حاولنا الاتصال عن طريق اللاسلكي ، وهذا ايضاً كان ميؤوساً منه . لاشك في أن العراق عُزل عمداً عن العالم ، وبقي الحال حتى وقت متأخر من ذلك النهار حين تأكدت مخاوفي الاولى .

اتذكر أنني حدثت نفسي : «أنها لسخرية أن يُقتل ابن عمي بدلاً مني .» ففيصل الذي يكبرني ببضعة اشهر ، لم يؤذ أحداً قط ، ولم تكن له سيطرة على الاحداث تمكنه من اتخاذ قرار سياسي رئيسي واحد يمكن أن يغضب احداً . ورغم ذلك ، هو ، وليس انا ، من مات .

كنا قريبين من بعضنا خلال فترة حياتنا القصيرة معاً ، متحدين بكل الطرق الممكنة . وكان جدانا على علاقة وثيقة مع بعضهما - جدي الملك عبد الله ، وجده شقيق الملك عبد الله ، الملك فيصل الاول ، الذي لعب دوراً رئيسياً في الثورة العربية الكبرى ، وخدم لورنس الشهير الى جانبه . في صغرنا كنا نلعب معاً - ألم يعطني فيصل

اول دراجة لي؟ – وبعد ذلك في هارو ناقشنا المشاكل التي قد تواجهنا في يوم من الايام . الآن ، وبعد أن فقدناه ، اعتقد أن الكثيرين من العراقيين ، سواء منهم المؤيدين للملكية او المناهضين لها ، يشعرون بالعار للطريقة الوحشية التي قُتل بها .

كان للملكية شعبية كبيرة في العراق على الدوام . فوالد الملك فيصل ، الملك غازي كان رجلاً قريباً من شعبه ، وحين قُتل في حادث سيارة ، رحب العراق كله بفيصل الصغير وانتظروا لحظة توليه السلطة . لكن الطموحات التي كان يحملها أُخمدت وأُحبطت ببطء . وكنت ارى ذلك يحدث ، لكن ، رغم محاولتي التدخل ، كان ثمة الكثير مما يتوجب عليّ مواجهته . ولم تفضِ جهودي الى حدوث اي تغيير .

في عمان اجتمع مجلس الوزراء في اليوم نفسه . وناشدني عدد كبير من الوزراء مواجهة النظام الجديد في العراق بالقوة ، نظراً لوجود معاهدة تربط بين العراق والأردن . فالجيش العربي الأردني لم يكن قط تواقاً لذلك كما هو الآن . الحوا بضرورة تحريك القوات على الفور الى الجانب العراقي من الاتحاد (الذي لم يكن قد حل بعد) ومحاولة اسقاط المتآمرين واعادة النظام . شرحت بقدر ما استطعت من تبسط اسبابي لرفض ذلك : «لسنا من ذلك النوع من الناس الذين يفرضون انفسهم على الآخرين . فاذا اختار شعب العراق طريقة اخرى للعيش ، عندها – ومهما كان رأينا فيها – عليهم أن يختاروها لانفسهم . قد نتحرك فيما بعد اذا طلب منا ، لكن ليس الآن .»

كنت متأثراً بعدة عوامل : اولاً ، من بقي هناك حتى ننقذه؟ حسب معلوماتنا ، الملك وعائلته والكثيرين من الشخصيات المهمة قتلوا ؛ ثانياً ، لا نعرف حقيقة ما الذي يجري في العراق ، وليس في وسعنا ارسال قوات من دون تقييم كامل للموقف ؛ ثالثاً ، اذا زحفنا على العراق فسوف نحارب ونقتل عرباً أخوة لنا ، ليس ذنبهم أن هذا الانقلاب وقع . إن كان علينا أن نحارب احداً ، فانهم هؤلاء الذين دبروا الانقلاب من خارج العراق . وليس الابرياء الذين تبعوهم .

كنت قلقاً ايضاً من التهديد الذي يتعرض له الأردن . ففي كل مرة تحدث فيها مشاكل داخل الدول العربية ، تتحفز اسرائيل للانقضاض علينا . وليس في وسعنا ترك

حدودنا البالغة ٤٠٠ ميل من دون حراسة ، فذلك بمثابة دعوة للمشاكل . ومنذ أن احسست بأن القاهرة تخطط لاسقاط الملكية في الأردن ايضاً ، كان لدينا عدوان نواجههما . فالأردن اليوم هو العقبة الكأداء امام الشيوعية وطموحات الجمهورية العربية المتحدة - وهو طموح اعتقد أنه كان يعني في ذلك الحين السيطرة على العالم العربي .

من الصعب على الذين لم يزوروا بلدنا قط ادراك ما مررنا به في ذلك الصيف المشؤوم من عام ١٩٥٨ . لم يبق طريق واحد مفتوح للخروج من البلد ؛ وممرنا الجوي الوحيد للعالم الخارجي اغلقه السوريون ؛ وكذلك الامر بالنسبة للسكة الحديد . وميناؤنا الوحيد في العقبة التي تبعد ٢٠٠ ميل الى الجنوب من عمان ، لم يكن قد طُور بشكل مناسب ، حتى الطريق الصحراوي الذي يربط عمان بالعقبة لم يكن مكتملاً . كنا محاصرين بشكل كامل .

بعض القوات العراقية كانت مرابطة في الأردن عند حدوث انقلاب بغداد . وحين سمع الجنود الانباء احتفلوا علناً ، متوقعين أن دورنا قد حان . دار جدل في البداية في التعامل معهم بمنتهى الشدة ، لكن الاعتدال طغى على هذا الاتجاه . احتفظنا بعدد من الضباط العراقيين في الأردن لفترة من الوقت - عاملناهم خلالها معاملة حسنة - الى أن علمت بأن الأردنيين الذين ما زالوا احياء في بغداد سيسمح لهم بالعودة . وكما حدث ، فقد خسرنا عدداً من الوطنيين العظام ، من بينهم سليمان طوقان وزير الدفاع في الاتحاد ، والشيخ الجليل ابراهيم هاشم ، العقلية القانونية والادارية العظيمة ، والذي تولى رئاسة الوزراء الأردنية مرات عدة ، وكان نائباً لرئيس وزراء الاتحاد نوري السعيد .

كان صيفاً حاراً وبطيئاً شهر آب من ذلك العام ، قفزت الى ذهني عشرات الصفات المجازية التي يمكن أن اصف بها ذلك الشعور القاتل بالقدر المحتوم الذي يهدد عمان . لم يكن الخوف هو الشعور السائد . لأن اساس المأساة يكمن في حقيقة أنه لم يكن في وسعنا عمل شيء سوى الانتظار ومعرفة الخطوة التالية التي سيخطوها اعداؤنا .

لكن الاسوأ لم يكن قد حدث بعد . فاصدقاؤنا في القضية ذاتها التي فقد زعماء العراق حياتهم بسببها - دول العالم الحر التي وقف العراق معها بكل صلابة في مواجهة

الشيوعية - بدأت الآن تمارس ضغطها علينا كي لا نتخذ اي اجراء . واخذت تلك الدول تعترف بالنظام الجديد الواحدة تلو الاخرى وكأنها تريد أن تعطي ضغطها شكلاً قانونياً . ويالهم من أرامل هرعوا الى الزواج بسرعة لا تليق بعد دفن جثمان الزوج! استولى القتلة على الحكم يوم ١٤ تموز ، واعترفت تركيا بالنظام الجديد في ٣١ تموز ، وبريطانيا والولايات المتحدة يوم ١ آب . وكما يبين السير انتوني ايدين في مذكراته «الدائرة الكاملة» : «خلال بضعة ايام اعترفت دول العالم الحر الغربية بالحكومة التي أيدت تلك الاعمال الشنيعة ، إن لم تكن من اقترفها ، في لندن ، وبمبادرة من بعض الاصدقاء فقط ، ومن ضمنهم وزراء عملوا ضد صعوبات كبيرة ، على تنظيم احتفال صغير احياء لذكرى تلك الشخصيات الوطنية التي اثبتت اخلاصها للصداقة وحتى آخر لحظة من حياتها . ولا يبدو أن ذلك كافياً للتعبير عن مدى احترام بلدنا وامتنانها لها .»

كانت حاجاتنا الملحة من شقين - الوقود والاصدقاء . في وقت سابق اغلق السوريون حدودهم في وجه جميع الصادرات والواردات الأردنية وحركة السير ايضاً ، مما يعني أننا لا نستطيع استخدام طريق نقل الوقود التقليدية بالصهاريج من لبنان عبر سوريا . لذلك بدأنا في استيراد الوقود بالصهاريج الثقيلة من العراق . الآن ، جف هذا المصدر من دون سابق انذار . وحتى تزداد الامور سوءاً ، احتجز عدد من هذه الصهاريج في العراق . كنا بحاجة للوقود لكل شيء : لضخ الماء للحفاظ على الحياة في عمان والمدن الاخرى ؛ وللكهرباء ؛ ونقل المؤن الى الجنوب ، الذي عانى من موسم سيء ، ولنقل الماء .

بيأس ، لجأت الى الولايات المتحدة ، التي كان لديها مصادر لا حدود لها من النفط في المنطقة .طلبت من القائم بالاعمال ، السيد توماس رايت ، الحضور لمقابلتي وشرحت له المشكلة بمنتهى الصراحة ، واضفت : «الوضع يائس من دون وقود لن نتمكن من البقاء .»

بعد بضع ساعات تلقت السفارة الامريكية رداً من واشنطن .

«حكومتي على اتم استعداد للمساعدة ، سيدي» ، قالها لي السيد رايت واردف ، «تستطيعون اخذ كل ما تحتاجونه من وقود ، سينقل اليك بالطائرة من الخليج ، عبر المملكة العربية السعودية ، الى الأردن .»

خلال اربع وعشرين ساعة حطت اول طائرة خارج عمان ، واصطفت صهاريجنا القليلة الباقية والعديد من الشاحنات لجلب المحروقات الى المدينة . ثم ، وحين بدا أن كل شيء على ما يرام ، نزلت بنا ضربة اخرى ، كما يحدث دائماً ، من حيث لا ننتظر .

فجأة توقف هدير طائرات النقل ، ولم نستلم سوى اقل من عشر شحنات من النفط . فما الذي حدث؟ اتصلت هاتفياً بمهبط الطائرات . كان اول ما فكرت به أنه ربما لسبب فني لم تتمكن الطائرات من الهبوط ؛ لكن لا ، جرى اعداد كل شيء على اكمل وجه . هل غيرت واشنطن رأيها؟

اصدقاؤنا في المملكة العربية السعودية ، الذين كنا نعتمد عليهم ، رفضوا فجأة ، في هذا الوقت الحرج ، السماح للطائرات الأميركية بالتحليق فوق اراضيهم محملة بالنفط من الخليج ، وهو المسار الوحيد الذي يمكنها اتباعه . كان السبب الضمني واضحاً : بعض المستشارين الاقوياء في السعودية اعتقد أن تلك هي نهاية بلدنا ولم يشأ اغضاب عبد الناصر .

كان الموقف حرجاً . لم اشأ أن أُطلع شعبي على ما لا يعرفه سوى عدد قليل منا – بأن الوقود الذي لدينا في البلد بالكاد يكفي لبضع ساعات واننا محاصرون تماماً بالاعداء .

ثم جاء السيد رايت لمقابلتي حاملاً أنباءً اسوأ : «اخشى ياصاحب الجلالة أن السعوديين لا يرفضون السماح لنا بنقل الوقود جواً اليكم وحسب ، بل أنهم يرفضون السماح للطائرات الموجودة في الخليج بالعودة – حتى وهي فارغة .»

اليس لمتاعبنا من نهاية؟ قد أستطيع ايجاد مصدر بديل للحصول على النفط ، لكن حتى لو استطعت فمن اين ساحصل على طائرات صهريج لنقله؟ غضبت بشكل لا اذكر أني غضبته من قبل . التقطت الهاتف واتصلت بمكالمة شخصية مع الملك سعود . تطلب الامر نحو ثلاث ساعات للاتصال . فالسعودية ببساطة ، لم تكن بلداً يسهل الاتصال به هاتفياً ، فكرت وانا انتظر في تعقيدات الطبيعة البشرية . ها نحن وحدنا ، محبطون ومعزولون ، لماذا؟ الشيوعية عدو يمكن أن افهم عدوانه ، ولا اتوقع رحمة في مواجهته ،

لكن الامر مختلف مع اشقائنا العرب . فقد كان من الواجب أن يعقدوا العزم على توحيد الجهود لتحقيق العزة للعالم العربي ، وليس أن يختصموا فيما بينهم . واذكر اني فكرت : «الى اين سيقودنا جبن اخواننا العرب؟ الى اين نتجه ، منقسمين على انفسنا بهذا الشكل؟»

بعد لحظة سمعت صوت الملك سعود على الطرف الثاني من الخط . لم استطع تمالك نفسي ، فحين سألته لماذا اتخذت المملكة العربية السعودية هذا الموقف ضدنا ، اعتذر وقال : «لو كنت اعرف جميع هذه التفاصيل من قبل ربما تمكنت من عمل شيء ، لكنني اخشى أن الأوان قد فات – لأن الحكومة اتخذت قرارها .»

فكرت ، ياله من عذر سخيف! ثم قلت : «لن انسى هذا العمل ضد بلدي وشعبي في ساعة الضيق هذه حتى آخر يوم في حياتي .» ثم اقفلت الخط .

التفت الى رئيس الديوان والآخرين الذين كانوا يستمعون للمكالمة وقلت بمرارة : «ربما هذه المرة الاولى في التاريخ الذي تتخذ فيه أية حكومة سعودية قراراً ، او حتى ، بالنسبة لهذه القضية ، تواجه قراراً .»

تلقينا وقوداً بعد توقف قصير ، لكن الطريقة التي وصل بها هي من أكثر الامور اذلالاً في هذه القضية القذرة . في النهاية جاءنا الوقود من لبنان ، وكل جالون تلقيناه كان يجب أن يحلّق في الاجواء الاسرائيلية . وحيث رفضت الامة العربية ، وافق العدو .

في اثناء سعيي لحل هذه المشاكل ، دعوت لاجتماع للحكومة في القصر ، وقررنا الطلب الى الولايات المتحدة وبريطانيا أن ترسل لنا قوات . كنا بحاجة للمساعدة – ليس مساعدة مادية بقدر ما هي معنوية . قوة رمزية تكفي . كان الوضع ، في الواقع ، فوق طاقتنا .

واجهنا مؤامرات في الداخل ، وكان يوجد حشد القوات على حدودنا ، ونحن ما نزال أعضاء في الاتحاد العربي . وقد اصبحت بشكل اوتوماتيكي رئيساً للاتحاد ، الذي لم يحل بعد ، وكما تنص المعاهدة الأردنية العراقية فان في وسع أي من الدولتين التدخل في حال حدوث اضطرابات داخلية في البلد الآخر ، وربما كان علينا القيام باعمال

عسكرية ، فإنْ قمنا بها ، فنحن بحاجة لقوة تصد أي معتد قد يحاول مهاجمتنا حين تكون قواتنا خارج البلد .

كان قراراً كبيراً لاتخاذه ، ولم ارغب في أن اتخذه وحدي . وحين وافقت الحكومة على ضرورته ، دعوت الى اجتماع مشترك يضم الحكومة ومجلس النواب والاعيان . كما دعوت جميع أعضاء برلمان الاتحاد العربي للحضور إن رغبوا . اخبرتهم أن الحكومة تريد استدعاء قوات اميركية وبريطانية للمرابطة في الأردن ، وقلت لجميع الحاضرين : «إن كانت لديكم وجهة نظر حول هذا الموضوع ، ارجو أن تفصحوا عنها الآن بمنتهى الحرية .»

وافق المجتمعون على الخطوة بالاجماع .

كان السفيران الاميركي والبريطاني غائبين عن الأردن ، لذلك طلبت من القائمين بالاعمال لكلا البلدين الحضور لمقابلتي . قابلت القائم بالاعمال البريطاني هيث مايسون ، والاميركي السيد رايت معاً . واخبرتهما أننا لا نطلب القوات لحل مشاكلنا الداخلية بل كدليل على أن دولة حرة صغيرة لاتقف وحيدة في الازمات . وأضفت : «لايهمنا الدولة التي سترسل قواتها الينا . سوف نحتاج هذه القوات لفترة محدودة . وأنا اعتبر هذه الخطوة كرمز للروابط التي تجمع دول العالم الحر في اوقات الازمات .»

تعمدت السماح للبريطانيين والاميركيين تحديد البلد الذي سيرسل قوات ، وجاء الجواب بسرعة . جنود مظلات بريطانيون سيطيرون الينا من قبرص .

يوم الاربعاء ، ليلة ١٦ تموز ، قبضنا على آخر جماعة من المتآمرين الذين كانوا يخططون للقيام بانقلاب في الأردن ، قبضنا عليهم في الوقت المناسب بالضبط . كنا نراقب كل تحركاتهم ، منذ أول اشارة وردتنا عن المؤامرة . الآن امسكنا بالاوامر الفعلية للمتآمرين للتحرك وتنفيذ الخطة في اليوم التالي ، السابع عشر من تموز . أُنقذ الأردن قبل بضع ساعات من التنفيذ . وكانت الخطة الاصلية معدة للتنفيذ يوم ١٤ تموز ، الا أنها أُجلت بسبب تدابيرنا الاحترازية .

بعد أن اودعنا المتآمرين السجن ، آويت الى فراشي الساعة ٣,٣٠ ظهراً . ولاول مرة منذ اغتيال ابن عمي قبل يومين ، نمت لمدة ساعتين ، واستيقظت بعد الغروب . وفي

الساعة ٩،٣٠ سمعت ازيز طائرات ثقيلة تصل الينا . كان جنود المظلات البريطانيون يهبطون .

لم أتمكن من جمع خيوط القصة التي جرت في الوايتهول ، وأسباب الرد الرائع الذي قام به السيد ماكميلان - خاصة السرعة التي تحرك بها . كان الرأي أن من الانسب ارسال قوات بريطانية واميركية . كان لدى البريطانيين قوات ممتازة متأهبة في قبرص ، يمكنها أن تصلنا خلال يوم واحد . وكانت قوات المارينز الاميركية مشغولة في لبنان . لكن هل في وسع البريطانيين تجاوز الخط الاحمر والوصول الى قرار في الوقت المناسب؟ لقد فعلوا . في اللحظة التي استلم فيها البريطانيون طلبنا للمساعدة ، تلقت استخباراتهم تفاصيل عن المؤامرة الانقلابية ضدنا . وكان تزامن هذين العاملين هو الذي مكن رئيس الوزراء من اتخاذ ما وصفه بانه «اصعب قرار» اتخذه في حياته العملية .

في الساعة ١٠،٠٥ من مساء يوم الاربعاء (١٦ تموز) كان السيد ماكميلان يستعد للذهاب الى منزله بعد الانتهاء من مناقشة مسألة الشرق الاوسط في مجلس العموم . ارسل سكرتيره الخاص ، السيد انتوني باربر ، لمرافقه الليدي دورثي من البهو ، بحيث يمكنهم العودة الى ١٠ داوننغ ستريت معاً . لكن حين وصلت الليدي دورثي ، كان رئيس الوزراء قد الغى فكرته في العودة الى المنزل ، خلال الدقائق القليلة تلك ، سلمت اليه تقارير المخابرات عن المؤامرة ضد الأردن ، وطلبي للمساعدة . ولمعرفته بأن مصير الأردن بات متعلقاً بخيط رفيع ، امر السيد ماكميلان على الفور بعقد اجتماع لكامل مجلس الوزراء .

كان مجلس الوزراء البريطاني مقتنعاً أنه ما لم يتخذ اجراء فوري ، فان الموقف في الشرق الاوسط سيتدهور بسرعة ويطال بلاد غير الأردن ؛ لأنه اذا حدث في الأردن ما حدث في العراق ، فقد يمتد ذلك الى الكويت ، وهي مركز رئيسي لانتاج النفط ، ومن يعلم الى اين سيمتد بعد ذلك . في الساعة الثانية من ظهر يوم الخميس ، انهى مجلس الوزراء اجتماعه وبعث برسالة بالشيفرة الى قبرص تأمر جنود المظلات البريطانيين بالطيران الى الأردن . لم يكن ثمة وقت للتدقيق والتفكير . لم يكن لدى البريطانيين

وقت حتى لشرح الامر للاسرائيليين ، الذين ستحلق الطائرات البريطانية فوق اراضيهم . لأنه كان من الملّح أن يصل المظليون الى عمان .

وهكذا اقلعت الطائرات التي تقل المظليين البريطانيين قبل استكمال اجراءات الحصول على اذن من الحكومة الاسرائيلية ، وهذا يفسر «متابعة» المقاتلات الاسرائيلية لطائرات النقل البريطانية عند تحليقها فوق الشاطىء في ساعة مبكرة من صباح يوم الخميس . واستدعاء القيادة العامة في قبرص للجزء الأعظم من المظليين للعودة . حيث سمح الاسرائيليون لثلاث طائرات نقل من طراز «بيفرلي» ، تحمل دفعة أولى قوامها ١٠٠ رجل تقريباً بالعبور . وتطلب الامر ست ساعات اخرى ، للحصول على إذن مجلس الوزراء الاسرائيلي يسمح للجسر الجوي من قبرص بمواصلة نقل باقي القوات .

حادث بسيط شوه اجراءات البرلمان البريطاني ، حين اقترح احد الاعضاء الاشتراكيين في مجلس النواب أنه بدلاً من ارسال القوات البريطانية الى عمان ، «الن يكون الملك اكثر امناً هنا ، حيث يمكن حراسته من قبل اثنين من رجال الشرطة؟»

وصلت هذه الكلمات الى مسامعي بعد عام تقريباً . حين اقام السيد ماكميلان حفلة غذاء على شرفي في ١٠ داوننغ ستريت . وحين طُلب اليّ القاء كلمة ، قلت : «قال أحد أعضاء البرلمان أن شرطيين بريطانيين يكفيان لحمايتي ، وانه لم تكن ثمة حاجة لارسال الجنود البريطانيين الى الأردن . اسمحوا لي أن اقول إنني شخصياً لست بحاجة الى اي حماية ، فلم تأت القوات البريطانية لحمايتي او حماية بلدي - بل لحماية الحرية .

١٤

١٩٥٨ - محاط بالأعداء

حصل السوفيات على موطىء قدم لهم في ديار الاسلام

بقيت القوات البريطانية في عمان حتى يوم ٢٩ تشرين الاول / اكتوبر . غادرت آخر مفرزة صغيرة العقبة يوم ٢ تشرين الثاني . كانت القوة البريطانية صغيرة ، الاّ أن مجرد وجودها اعطانا الفرصة لنتنفس . فوجود اصحاب القبعات الحمر المشهورين في الشوارع جعل الناس يدركون أننا لسنا وحدنا ، وأن لا مبرر لليأس ، الاّ أنه كان يوجد الكثير مما يجب عمله . وما زلنا نواجه مشاكل صعبة .

قُتل العديد من الشخصيات الأردنية البارزة ، الذين صادف وجودهم في بغداد عند وقوع الانقلاب ، مع الملك فيصل . ولم نكن بحاجة للكثير من الخيال لتصور أن ما حدث كان يستهدف الأردن كما استهدف العراق . وسرعان ما تلقينا دليلاً يؤكد هذا .

من المؤكد أنني التالي على القائمة ، وكنت في غاية القلق ، ليس على نفسي او عائلتي بقدر ما هو على الأردن – عائلتي الاكبر . في الازمات الاخيرة وقف خلفي جميع الأردنيين . اصبحت بالفعل رب عائلة كبيرة ، وقفت الى جانبي باخلاص ضد جميع محاولات الدول الاخرى لتدميرنا . كنت اعلم أنه اذا حدث شيء لي ، فان الأردن سينهار بسهولة ، ولن اترك الأردن الا حين اصبح عديم الفائدة لشعبي .

المشكلة الرئيسة الآن هي اليأس : ماذا سافعل لهذا الشعب الذي اعطاني ثقته؟ لم تكن مشكلة سياسية داخلية يمكن حلها عن طريق تشكيل حكومة جديدة . كنا نواجه باعداء لا يردعهم شيء عن اسقاطي وتدمير الأردن ، وكانوا اعداء خطرين .

حين اعود ببصري الى الوراء ، أرى أن العام ١٩٥٨ ، كان ذروة ثلاث سنوات تعرض فيها الأردن الى حرب لاهوادة فيها ، دعائية ؛ وتخريبية ، وتسلل عملاء تتحكم فيهم

الشيوعية من البلاد العربية الشقيقة ، كانت دعاياتهم في غاية البراعة . وكان من المستحيل التهرب منها ، حتى لو سافرت الى ابعد منطقة في الارض . وفي حين كان لدى القاهرة محطات ارسال قوية حديثة ، كانت قوة اذاعة عمان ، في ذلك الحين ، لا تزيد عن ٥ كيلو وات ، نطاق ارسالها لا يزيد عن ٣٠ ميلاً ، بذلنا جهدنا لمحاربة الاكاذيب التي كانت تنهال علينا بكشف اكثرها افتضاحاً في الصحف والاذاعة . وكان الناس الذين امضوا يوماً هادئاً في عمان ينفجرون ضاحكين حين يسمعون اذاعة القاهرة تقول : «قتال بين الجنود في عمان والدم في الشوارع الى الركب!» وما شابه ذلك . لكن لم يكن في الامكان منع الكثير من التحريفات والمبالغات من الوصول الى الشعب العادي . فليس في وسع المرء منعهم من الاصغاء .

اذكر أنني ، في احدى الامسيات ، خرجت بالسيارة مع صديق «للابتعاد عن كل شيء» لبضع ساعات . وحين وصلنا الى جبل نبو ، الذي رأى منه موسى ارض الميعاد لاول مرة ، سمعت على جهازنا الذي يدار بالبطارية صوت القاهرة يقول : سنقاتل الى أن نقضي على ملك الأردن المجرم» . وفي القدس ، وفي اثناء زيارة مفاجئة للمدينة ، سمعت اذاعة دمشق ، التي كان يديرها المصريون في ذلك الحين ، تكيل الشتائم لي عند اقدام جبل الزيتون في المدينة حيث ضحى المسيح بنفسه من اجل ابنائه .

الاكثر خطورة من الدعاية ، كانت الاضطرابات المدنية التي تتبعنا مصادرها لنعرف أنهم عملاء لمصر وسوريا . كنت مقتنعاً أن العملاء الشيوعيين يريدون نظاماً واسعاً للرشوة في الأردن : لا بد من وجود ضعاف النفوس في كل مجتمع . اعدوا لتسلل عملاء العدو على نطاق واسع ، وكانت توجد عمليات تهريب جدية للاسلحة عبر الحدود التي تمتد مئات الاميال ، ومن المستحيل حراستها بشكل فعال .

كان الوضع سيئاً الى درجة اننا اضطررنا لسحب جزء من قواتنا من الحدود مع اسرائيل لحراسة حدودنا مع الدول العربية . امر مثير للسخرية ، لكن هذه الاعمال ذهبت الى مدى لا يصدق . حالتان مازالتا في ذاكرتي هما اوضح مثال على الاساليب التي اتبعت . شارك في الاولى الملحق العسكري المصري في عمان الرائد فؤاد هلال ، الذي

اجرى اتصالاً مع احد جنودنا ، صفوت شقير ، الذي يعمل في الدائرة القانونية في قيادة الجيش ، وحاول رشوته لاغتيالي .

لم تعد محاولات التآمر على حياتي تقلقني كثيراً – طالما اني اكتشفها في الوقت المناسب – لكن هذه كانت شيئاً جديداً وغير سار : نشاط معاد من سفارة «صديقة» محمية داخل عاصمتي يالها من وقاحة!

قام ضابط من المخابرات بتوضيح خيوط المؤامرة لي : «سيدي ، لا نعرف بعد كيف ستنفذ . فقد طلب من شقير انتظار موعداً آخر مع المصري .»

«مالذي فعله شقير؟»

«سعى على الفور لمقابلة رئيس هيئة الاركان وأخبره بكل شيء . وجرى تسجيل دليله على شريط آلة تسجيل ، يامولاي .»

كان ذلك هو ابعد ما وصلت اليه القضية . ماذا بعد؟ في اجتماع عقد في صباح اليوم التالي قررنا أن نطلب الى شقير الحفاظ على موعده في السفارة المصرية ، وأن يحمل آلة تسجيل صغيرة مخبأة في ملابسه . لسوء الحظ ، فان نظام التجسس المصري كان من القوة بحيث عرف المصريون بأمر آلة التسجيل . ذهب شقير في الموعد المحدد ، لكنه عند دخوله السفارة انقض عليه اثنان من العاملين في السفارة ، فتشاه وأخذا سلاحه وآلة التسجيل منه .

أُحتجز طوال تلك الليلة ، ضُرب وعُذب وهُدد بالقتل . وكشخص ذكي – كان يعلم أن براءته تقوم على الدليل السابق المسجل على شريط – فوقع على «اعتراف» . وحين حصل القائم بالاعمال على ذلك الاعتراف ابلغ الشرطة أن أردنياً مشبوهاً قبض عليه وهو يحاول الدخول عنوة الى السفارة المصرية وسرقتها . فطلبنا من المصريين تسليمنا الرجل وممتلكاته . وبعد تردد سُلم شقير الى الشرطة ، لكن من دون آلة التسجيل او المسدس . بعد ذلك طلبنا من الحكومة المصرية سحب الملحق العسكري من سفارتها في عمان .

بعد هذه الحادثة ،جرى اعتقال تسعة عشر رجلاً ، وكشفت المحاكمة اللاحقة أن

القنصل العام المصري ، محمد عبد العزيز ، كان ينظم عصابات تخريب وتهريب للاسلحة من قطاع غزة الى الأردن ، شيء ملائم جداً لمصر ، وكان عليه هو أيضاً أن يرحل .

القضية الثانية جرت قبل فترة من اغتيال ابن عمي وبعد فترة وجيزة من احداث الزرقاء ، حين كنا ما زلنا نسعى للعيش بسلام مع جيراننا ، او حتى نجرب تشكيل قيادة عسكرية مشتركة تضم الأردن ومصر والسعودية . وكنت في القصر ذات مساء - وقد عدت من جولة بالطائرة ، وأهم بتناول عشائي بهدوء - حين طلب ضابط كبير في الجيش مقابلتي ، اخبرني احد مساعديي أنه منفعل للغاية وكنت اعرف انه رجل لا تنتابه نوبات هيستيريا .

دخل الى مكتبي ووضع مغلفاً رمادياً امامي ، وقال دون مقدمات : «رجاء سيدي ، اقرأ هذا .»

كان رسالة كتبها يسري قنصوة ، ممثل مصر في القيادة المشتركة لجيوشنا ، والتي جرى اكتشافها في خزنة قنصوة في قيادة الجيش . نظرة واحدة تكفي لاثبات تواطؤ المصريين في محاولة السيطرة على الأردن والقضاء عليّ . كانت الرسالة موجهة الى العميد محمد حافظ اسماعيل ، في قيادة الجيش المصري في القاهرة ، تبلغه أن اللواء السابق الحياري (الذي فر من الأردن بعد احداث الزرقاء) «سيتبع الخطوط ذاتها» ، مثل تلك التي وضعها ابو نوار الذي تآمر على قتلي في الزرقاء . كان الحياري مازال في دمشق . وقد وضعت الخطط بتستر من ابي نوار لاسقاط العرش . كما تورد الرسالة لائحة باسماء الأردنيين المخلصين الذين يعتبرهم قنصوه «خائنين للقضية» وآخرين يعتبرهم «مخلصين لها» .

تصرفنا بسرعة . واجرينا اعتقالات ، وفي اثناء المحاكمة التي تلت اعترف ١٧ متهماً بانهم أُسلوا من سوريا لنسف جسور وطر ق وشن هجمات على القصر ، فيما بعد . كما نظموا ايضاً عمليات تهريب للاسلحة .

في ذلك الحين ، كان في وسعك شراء بندقية سوفياتية من أي مكان : فالسوق مترع بها . بعضها كان يأتي من سيناء ، من الاسلحة التي تركها المصريون خلال حرب

السويس . وقد اشترى احد المسؤولين عندي في القصر بندقية رشاشة من شخص غريب لا يعرفه في أثناء جلوسه في المقهى . كان قد ذهب للسباحة في البحر الميت ، وفي اثناء عودته توقف في اريحا لتناول القهوة . لم تتغير الحياة كثيراً هنا منذ ايام الحواريين . كان الشخص الذي شارك صاحبنا الجلوس الى الطاولة بدوياً يلفت النظر ،كانت اناقته ووجهه الملتحي صورة من الماضي . ولما كان المسؤول يعرف اني تواق دائماً لمعرفة رأي الناس فيّ شخصياً (لانهم غالباً ما كانوا يخجلون من قوله لي وجهاً لوجه) ،سأله المسؤول : «ماذا تفعل لو أن اعداء الملك ثاروا ضده؟»

لم يكن البدوي يعرف شيئاً عن المؤامرات التي كانت تحاك ضدي في تلك اللحظة . فقد بدا مندهشاً واجاب : «كيف ، سأقاتل من اجل الملك طبعاً!»

«بماذا؟»

بدا مرتبكاً ثم قال : «هذا طبيعي!» وسحب بندقية رشاشة تشيكوسلوفاكية الصنع ، وأضاف : «هل تريد واحدة؟ هل انت من انصار الملك؟ إن كنت منهم يمكنك أخذ هذه إن اردت – ففي وسعي الحصول على واحدة أخرى بسهولة . يمكن لاي شخص شراؤها من السوق .

اشترى المسؤول البندقية واحضرها لي في القصر ، جربت بضع صليات ، فوجدت انها سلاح ممتاز .

المشكلة أنه بعد صفقة الاسلحة الروسية الى مصر ، حصل السوفيات على موطىء قدم لهم في ارض الاسلام . واصبحوا مثل مندوب مبيعات يضع قدمه امام الباب رافضاً المغادرة وربة البيت تصر على انها لا تحتاج إلى أي شيء . من وجهة نظر متساهلة في الحكم على المصريين ، ربما أنهم لم يكونوا يرغبون في وجود حشود من الروس والتشيك حولهم ، لكن حين يشتري المرء ماكينات حديثة معقدة من بلد ما ، ينبغي الاعتماد عليه للحصول على قطع غيار وخدمات . وحين اشترى المصريون طائرات الميغ السوفياتية ، كانت تلك بداية القصة فقط . فشراء طائرات الميغ سمح للسوفيات بارسال تقنييهم (او عملائهم) الى مصر ، وبات على المصريين شراء قطع الغيار من الكتلة السوفياتية ، وأن

يعيدوا تنظيم اقتصادهم لايجاد الاموال اللازمة لذلك .

الزعماء العرب الذين هاجمونا في تلك الفترة كانوا ادوات في يد موسكو ، سواء ادركو ذلك ام لم يدركوه . لقد تمسكت بفكرتي أن الشيوعية لن تساعد قط في تحرير الشعوب العربية . لأن المحصلة النهائية للشيوعية لا بد أن تكون شكلاً من اشكال العبودية لموسكو . لا يمكن للشيوعية أن تكون حليفةً للقومية ،لأن القومية تمثل تهديداً رئيسياً لها . وهذا ما اود اخباره لشعبي . لكني ، للاسف ، لااستطيع التحدث اليهم بقدر ما يتحدث راديو الاعداء .

كان الامر اصعب على جيشي ، الذي لم يكن ولاؤه موضع شك في تلك الايام القاتمة ، ولا في أية ايام تلت . لم يكونوا رجال سياسة ، بل رجال عمل ، ورغم ذلك كان يواجههم عدو قوي ملموس الاّ أنه غير منظور . جنودي مستعدون للقتال حتى الموت ضد عدو يرونه ،لكننا كنا نضرب عدواً خفياً .

مشكلتي أنا من نوع مختلف . كان لدي مخاوفي ، وقلقي ، وشكوكي ، لكن لم يكن في وسعي أن اظهرها ولو للمحة خاطفة . وهذا ما جعلني وحيداً تماماً ، كان عليّ «أن اتصنع البشاشة» ، لاثبت لشعبي أن ايماني كبير في مستقبلنا . ولا أخجل من القول إني شعرت ، في بعض الاحيان ، أن في الموت نفسه راحة اتمناها . لكن كانت عليّ مسؤوليات لا استطيع التخلي عنها . في كل يوم ، حين كنت انهض عند الفجر ، بعد ليلة مؤرقة تعيسة في أغلب الاحيان ، كنت ارتدي ملابسي بسرعة وتأنق ، واحرص على أن اكمل مظهري برسم ابتسامة ثقة على وجهي .

١٥

١٩٥٨ - هجوم طائرات الميغ السورية

لم يكن الموت قريباً كما كان هذه المرة

في نهاية تشرين الاول ، شعرت أن الازمة قد انفرجت بما يكفي لتمكيني من أخذ اجازة قصيرة . لذلك قررت قيادة طائرتي «الدوف» الى اوروبا . وكانت رحلة كادت تكلفني حياتي .

اقلعت من عمان في الساعة ٨,٢٠ من صبيحة ١٠ تشرين الثاني في طائرة ذات محركين من طراز «دي هافيلاند دوف» ، كانت لجدي واصبحت الآن ملكاً لسلاح الجو . صحبني كمساعد طيار لي العقيد جوك داجليش ، وهو في ذلك الحين مستشار جوي لسلاح الجو الملكي الأردني . اما الركاب المرافقين فهم خالي الشريف ناصر ، وطياران من سلاح الجو الأردني كان يفترض بهما العودة بالطائرة الى عمان ، وموريس رينور . عرفت السلطات السورية الناصرية قبل مدة من مغادرتي أنني سأكون أحد الركاب ، وأنني انوي البقاء ثلاثة اسابيع في لوزان مع والدتي ، الملكة زين ، وابنتي عالية ، وباقي افراد العائلة . كما خططت للاحتفال بعيد ميلادي يوم ١٤ تشرين الثاني . جرى حجز الغرف في فندق بوريفاج ، وهو الفندق ذاته الذي تلقيت فيه البرقية المصيرية التي تبلغني المناداة بي ملكاً .

خرجت عن عادتي لاعلام شعبي بانني انوي اخذ هذه الاجازة القصيرة . حتى انني القيت خطاب وداع في الليلة التي سبقت مغادرتي الرسمية من مطار عمان ، بحضور جميع ممثلي السلك الدبلوماسي .

كان الطيران عبر سوريا ولبنان الى قبرص ، محطتنا الاولى ، يبدو بسيطاً للغاية ، نطير بعدها الى اثينا ثم الى روما . كان هذا الطريق المعتاد واقصر الطرق ، ولنا مطلق الحق في اتباع هذا الخط الى اوروبا .

كان صباحاً بارداً حين اقلعنا . كانت السماء ملبدة بالغيوم ، فصعدنا الى ارتفاع ٩ آلاف قدم متجهين الى الحدود السورية . وسرعان ما اصبحنا وسط غيوم متقطعة . اتصلنا مع دمشق بواسطة اللاسلكي وابلغنا عن موقعنا عند الحدود ، وحصلنا على إذن بمواصلة الرحلة .

لمتابعة ما حصل فيما بعد ، من المهم الاشارة الى أن مطار دمشق هو الذي اعطانا الحق بمتابعة الرحلة . وكنت أنا شخصياً استمع من خلال سماعات الرأس وعلى موجة لاسلكية عالية التردد ، حين وردنا الإذن ، ونتيجة لذلك واصلنا الطيران داخل الاجواء السورية الى نقطة انعطاف معينة ، حيث يتوجب علينا الابلاغ عن موقعنا وارتفاعنا لدمشق . وقد فعلنا ذلك . وطُلب منا الابلاغ عن الموعد المقرر لوصولنا فوق دمشق فاعطينا هذه المعلومات . بعد ذلك وصلتنا اولى بوادر المشكلة . بعد دقائق قليلة اتصلت دمشق بطائرتي مرة اخرى واخبرتنا : «غير مسموح لكم التحليق ، عليكم الهبوط في دمشق .»

رددنا : «لقد سُمح لنا بالتحليق ، لكن لم يُسمح لنا بالهبوط في دمشق . سنواصل رحلتنا الي قبرص .»

قالت لنا دمشق : «انتظروا لحظة!»

اعتقد كلانا ، انا ومساعد الطيار ، أنه لا بد من وجود خطأ ما . واصلنا الطيران واصبحنا لا نبعد اكثر من ١٥ ميلاً عن دمشق ، التي بتنا قادرين على رؤيتها من بين فرجات السحب المتقطعة ، عندما اتصلوا بنا مرة اخرى قائلين : «لم يُسمح لكم بالتحليق . عليكم الهبوط في دمشق .» وعلى الفور بدأوا بإعطائنا تعليمات الهبوط ، وطلبوا الينا ابلاغهم حال رؤيتنا ارض المطار .

نظرت الى دالجليش . ودون التفوه بأية كلمة ادرنا الطائرة في اتجاه مطار عمان . ورددنا عليهم : «إن كانت تلك تعليماتكم النهائية ، فان علينا الاتصال بعمان للمشورة .»

كنت في غاية الانزعاج ، اتصلت بعمان واخبرت البرج هناك بما حدث . جاءني الرد القلق بوضوح : «عليكم العودة الى القاعدة فوراً . ابقوا على هذه الموجة . لا تعترفوا باستلام أية اتصالات اخرى .»

فتحت اللاسلكي مرة اخرى على موجة دمشق . سألونا : «ما هو وضعكم؟» رددنا : «مازلنا ندور ، في انتظار تعليماتكم الاخيرة» . هذه المرة كان السوريون اكثر وضوحاً . مرة اخرى اعطونا الامر بالهبوط . فرددت باختصار : «آسف ، هذا ما لا نستطيعه!» وحولت الموجة على عمان .

اتجهنا الى اقرب نقطة من الاراضي الأردنية . لم نهتم للتحليق على الخط نفسه الذي اتخذناه حين انطلقنا من عمان . اتبعنا اقصر طريق الى الحدود . وفي تلك اللحظة اصبحت الغيوم متقطعة . كنا نطير على ارتفاع ١٠ آلاف قدم حين خطرت لي فكرة مفاجئة . التفت الى جوك وقلت له : «لم لا ننخفض ونحلّق على ارتفاع منخفض جداً؟»

وجهت الطائرة لتبدأ بالانخفاض بسرعة تقارب ٢٤٠ ميلاً جوياً بالساعة ، وهي اقصى سرعة تستطيع طائراتنا الدوف العتيقة المسكينة تحملها ، لأني اعرف أنني حين اطير على ارتفاع مستوى سطح الارض فان امكانية كشفنا بالرادار تنخفض ، ويصبح تحديد مكاننا بالضبط اكثر صعوبة ، خاصة أن الطائرات النفاثة لا تستطيع أن تناور جيداً على الارتفاعات المنخفضة ، كما أن كمية الوقود التي تحملها لا تكفيها للطيران فترة طويلة .

وصلنا سطح الأرض واصبحنا نطير على ارتفاع صفر عن سطح الارض ونحن نقترب من الحدود الاردنية .

فجأة دخل احد الطيارين الموجودين في الجزء الخلفي من الطائرة الى قمرة الطيار صارخاً : «لقد رأيت الآن طائرتين ميغ تطيران في الاتجاه المعاكس .»

وهذا يعني انهما تطيران في اتجاهنا من الحدود الأردنية ، او حتى ربما من داخل المجال الجوي الأردني . وحين نظر داجليش اليّ ادركنا كلانا معنى موقعهما . فهذه ليست طائرات ارسلت الينا حين رفضنا الهبوط في دمشق .

اعتقدنا اننا ، أنا وداجليش ، قد شعرنا برعشة من الخوف ، لكني طلبت من الطيار العودة الى الخلف وابلاغي إن رآهما مرة اخرى . وقمنا كلانا بربط أحزمة المقاعد .

بعد دقيقتين مرت طائرتا ميغ ١٧ تحملان شارة القوات الجوية للجمهورية العربية المتحدة . من فوقنا من جهة جناح الطائرة الايمن ، بارتفاع يقارب ارتفاعنا ، ثم استدارتا عند نقطة متقدمة من خط طيراننا وارتفعتا ، ثم انقضتا في اتجاهنا بشكل يطلق عليه حسب تعابير الطيران اتجاه الهجوم .

استدرت بالدوف العتيقة دورة حادة كادت تمزقها . قلت لنفسي : «إن كان عليّ أن اموت ، فسوف آخذ احدهما ، في الاقل ، معي .» بدا وكأننا قد انتهينا تقريباً . قررت أن احاول الاصطدام بالميغ الاولى ، حيث كان من الواضح انهما تريدان الهجوم .

حين استدرنا للهجوم تولى جوك القيادة ، وتمكن من تفادي اول مرور لهما عن طريق تضييق دائرة التفافه . كان تكتيكهما بسيطاً . كانتا تنقضان علينا الواحدة تلو الاخرى من الجهة اليسرى ، من موضع يتقدم قليلاً عن موضعنا ، تئز هابطة في اتجاهنا ، ثم تميل على جانبها في اتجاه مقدمة طائرتنا . المرة تلو الاخرى هوجمنا بهذه الطريقة . لم يكن في وسعنا عمل شيء سوى انتظار أن تأتيا الينا . لم يكن امامنا سوى طريقة واحدة للدفاع هي أن ندور داخل دائرتهم في اللحظة التي تضعنا فيها أية واحدة منهما في خط بصرها . أعرف أن في وسع طائرة الميغ أن تدور ضمن دائرة اضيق من طائرتنا الدوف البطيئة ، التي يمكنها عمل دائرة اضيق بسرعة لا تزيد عن ٩٠ ميلاً في الساعة . وحين كنا نستدير لمواجهة طائرات الميغ ، كانت تضطر الى تجاوزنا في كل مرة .

لكن خوفنا الاكبر لم يكن رؤيتهما وهما تهاجماننا . فقد كان كل واحد منا يلوي رقبته عند كل هجوم جديد . كنا نطير بطائرة الدوف العتيقة المسكينة باقصى سرعة يمكنها الطيران بها ، وبأقصى طاقة ، متجاوزين قدرة المحركات على التحمل ، لكنها صمدت . حين كنا نلف للدوران ، كنت اتساءل كيف هو الحال في مقصورة الركاب : لابد أنها في اسوأ حال . بطريقة ما جاهد خالي للوصول الى قمرة الطيار صارخاً : «بالله عليكم مالذي يحدث هنا؟»

فصرخت فيه : «اننا نتعرض للهجوم!»

كان رده نموذجياً ، حين صرخ قائلاً : «اعطني اللاسلكي ، ودعني اخبرهم رأيي فيهم .»

رددت عليه : «ليس هذا هو الوقت المناسب» ، ومع ذلك اسعدني موقفه الى حد كبير .

قبل فترة من اشتداد الهجوم ضدنا ، صرخ جوك : «اعتقد أن من الافضل ارسال إشارة استغاثة في حال ما اذا اجبرنا على الهبوط .»

كنت قد ارسلت اشارة استغاثة على موجة عمان ، لكن لسؤ الحظ - او ربما لحسن الحظ ، من اجل راحة فكرهم - لم تلتقطها عمان . والسبب من دون شك هو طيراننا على ارتفاع منخفض جداً .

ثم جاءت اللحظة التي كدنا نتحطم فيها . كان جوك يقود الطائرة ، ويراقب احد الجانبيين لاحتمال تعرضه لهجوم ، وكنت أنا اراقب الجانب الآخر . ادرنا رؤوسنا نحن الاثنين معاً في اللحظة نفسها - لنكتشف اننا نطير في اتجاه احد التلال مباشرة . بهلع شديد ، جذبنا عجلة القيادة ، فترنحت الطائرة العجوز وتمايلت ، وترددت تحت الضغط ، وحين ارتفع انف الطائرة الى اعلى لم نكن نبعد عن قمة التل سوى بضع بوصات .

لم تنته المعركة بعد . جربت الطائرتان الآن تكتيكاً جديداً . كانتا ترتفعان ثم تنقضان معاً في وقت واحد من كلا الجانبين .

كان هذا مخيفاً اكثر ، لا يمكنني أن اصفه الا بالقول إنه اشبه بلعب «الزقطة» في الهواء بسرعة هائلة . كانوا يطاردوننا ، وكان علينا أن نراوغ . لحسن الحظ أن الأمر كان خطراً عليهم ايضاً . تمكنا من تفادي احدى طائرات الميغ التي حلقت فوقنا مباشرة في حين انقضت الاخرى بحدة هابطة من الجهة الاخرى . وكان في وسعي رؤيتهما تكادان تصطدمان . وفرحنا في قرارة انفسنا حين ابتعدتا عن بعضهما بحركة عنيفة!

تواصلت الهجمات الى أن عبرنا الطريق الذي يصل المفرق بمنطقة «الاتش فايف» - الطريق الرئيسي الى العراق ، وداخل الحدود الأردنية . فجأة انتهى كل شيء . طارتا مبتعدتين ولم نعد نراهما حين اتجهتا عائدتين الى سوريا . وبقينا كلانا شبه فاقدين لوعينا في انتظار الهجوم التالي .

طرنا على ارتفاع منخفض جداً مسافة طويلة ، ونحن ما زلنا خائفين من الارتفاع

خشية أن يكشفنا الرادار السوري مرة اخرى ، وأن تكون ثمة مقاتلات أخرى قريبة . وحين شعرنا أن الخطر قد زال ارتفعنا . في تلك اللحظة دخل خالي قمرة القيادة وهو يحمل سيجارة في يده - افضل سيجارة دخنتها في حياتي . اشار لي مستحسناً بابهام يده ، وقال : «احسنتم! الا نستحق نحن الركاب اجنحة؟»

رددت عليه : «يبدو كل شيء على ما يرام الآن! هل يمكننا تناول طعام الفطار ، رجاء؟»

للأسف ، لم يكن لدينا أي شيء يمكن اكله . كان قد اختلط ببعضه بشكل تعافه النفس . الا أننا تناولنا شراباً ساخناً . طوال جميع عمليات الالتفاف والانقضاض ، تمسك رينور ، البريطاني الصميم ، بشدة «بثيرموس» مكننا من عمل كوبين من الشاي .

شاي وسيجارة - يالها من وليمة! وموسيقى مناسبة معها ، بوسعي أن اسمع الآن اصوات طياري مقاتلات سلاح الجو الملكي الأردني العذبة الغاضبة .

نظرت الى داجليش وأنا ارتشف الشاي الساخن . كان في حاله المعتاد . تكشيرة كبيرة تملأ وجهه الذي لوحته الشمس . قال : «كان الموت قريباً ، سيدي .» وحين واصلنا طيراننا بهدوء في اتجاه عاصمتي ، وقد زال الخطر ، فكرت كم كنا قريبين من الموت . وتساءلت ، ايضاً ، اي جنون دفع السوريين الى مهاجمتنا بهذا الشكل المستهتر؟

كانت طائرتي الدوف معروفة جيداً ، ولا يمكن الخلط بينها وبين أية طائرة اخرى كانت تحمل علامات سلاح الجو الملكي الأردني مع العلم الملكي وشعار الملكية وطارت الى دمشق عدة مرات ، مرة معي في زيارة رسمية . لا اصدق للحظة واحدة انهم كانوا يحاولون حملنا على العودة الى عمان . ثمة قانون دولي ، سلسلة كاملة من الاجراءات حول الطريقة التي تأمر بها الطائرات طائرة أخرى بالعودة ، وبعد استنفاذ هذه الطرق فقط يحق للمقاتلات أن تعتبر أنك «لعبة عادلة» اذا اخترت الاّ ترد على التعليمات . كل طيار يتعلم هذا ، طيارا الميغ كانا يعرفان ذلك كما أعرفه أنا ، ورغم ذلك أنقضا علينا بهجوم لا يمكن القول إنه حدث خطأً .

السوريون حساسون دائماً بالنسبة لمجالهم الجوي . فقبل بضعة اشهر تنبهوا الى وجود

طائرة لبنانية مدنية محلقة فوق مطار دمشق ، ففتحوا نيران اسلحتهم المضادة للطائرات من مسافة قريبة ، فانخفض الطيار ، وهو نيوزيلندي ، بحدة وفر باتجاه بيروت . كما حدثت احداث اخرى مماثلة ، لم تتضح اسبابها قط . لكن الحساسية ليست عذراً لمهاجمة طائرة غير مسلحة تحلّق بطريقة قانونية . النتيجة الوحيدة الممكنة : هي انهم كانوا يرجون قتلنا ، وكان قتلي بعد ثلاثة أشهر من مقتل الملك فيصل سيقضي عملياً على المملكة الهاشمية . ومن السهل عزو «الحادث» الى عنادي واصراري على تعلم الطيران .

من هما الطياران؟ وصوت من ذاك الذي كان في برج المراقبة وغيّر الامر الاول الذي صدر الينا بمواصلة الرحلة؟ لم نحصل قط على جواب مقنع من سلطات الجمهورية العربية المتحدة . رغم طلبنا المتكرر ، لم يخبرونا قط عمن اصدر الاوامر الى سلطات مطار دمشق وطائرات سلاح الجو للعمل .

بعد تفكير ، قررنا الاّ نباشر بتقديم شكوى الى الأمم المتحدة . وفضلت اعتبار الامر قضية شخصية ، وليست قضية دولية .

في المبارزة مع طائرات الميغ السورية اقتربت من الموت اكثر من اي وقت آخر ونجوت منه ، وعليّ أن اعترف أني شعرت في وقت من الاوقات بأني - واستعمل هنا تعابير سلاح الجو - «جلبته» لنفسي . لقد اصبحت الآن تاريخاً قديماً ، وعفى الزمن على الاحداث المرة للعام ١٩٥٨ . ورغم ذلك ، فان حادثة طائرات الميغ السورية كانت هجوماً ليس له مثيل في التاريخ ، على رئيس دولة ، وسوف احتاج لوقت حتى انساه ، اطول بكثير من الوقت الذي استغرقني لمسامحة المسؤولين عنه .

١٦

١٩٦٠ - اغتيال رئيس وزراء الأردن والمؤامرة ضدي شخصياً

نشك في وجود مؤامرة لدس السم لك

كانت المؤامرات التي تحاك ضد شخصي ماكرة ومتنوعة الى درجة جعلتني اشعر في بعض الاحيان ، كأني الشخصية الرئيسة في قصة بوليسية .

كنت اصنف المؤامرات في ذهني الي فئتين مختلفتين . الاولى الانقلابات الرئيسة ، مثل احداث الزرقاء ، والتي هدفها اسقاط الملكية والقضاء على الأردن . وفي مثل تلك الأحوال كان اغتيالي ضرورياً بالنسبة للمتآمرين ، لكن كجزء من استراتيجيتهم العامة . الثانية ، استهداف حياتي أنا شخصياً ، بعيداً عن اي انقلاب سياسي . ولئن تكن هذه الاخيرة قد تزايدت ، فاعتقد أن السبب هو ادراك الذين يريدون القضاء على الأردن الحر الديمقراطي أن ليس من السهل احداث ثورة في بلدي ، فليس في مقدورهم ، كما كانوا يأملون ، شراء قطاعات كبيرة من السكان ليس لولائهم واخلاصهم ثمن . وكان البديل الوحيد هو تهريب القتلة الى داخل البلد لقتلي او قتل قادة آخرين مهمين على أمل التعجيل بنشوب حرب اهلية .

من المرات التي نجوت فيها من موت محقق حين اكتشفت محاولة لقتلي بمادة الاسيد . لكن قبل أن أشرح ما حدث ، اود العودة الى الاحداث التي قادت اليها ، لأنها المرة الثانية التي اسعفني الحظ في النجاة من الموت خلال ٢٤ ساعة .

قبل يوم من تاريخ ٢٩ آب ١٩٦٠ ، وهو تاريخ اسوأ اعتداء في تاريخ الأردن ، مُزق فيه صيف عمان الهادىء . في ذلك اليوم ، قُتل هزاع المجالي ، رئيس وزراء الأردن ، و١٢ أردنياً آخر بمتفجرات زرعت في منضدة مكتب رئيس الوزراء . كان هزاع المجالي رجلاً

عظيم الشجاعة ، يؤمن بالحرية ، وأحد اكثر الشخصيات شعبية في البلاد . وما زال التفكير بموته حتى الآن يصيبني بالحزن والغضب .

كان يوم اثنين ، وهو يوم يفتح فيه رئيس الوزراء ابواب مكتبه للجميع يستمع الى افكارهم ، ومطالبهم او مشاكلهم ، وجرى اختيار ذلك اليوم ، كما اكتشفنا فيما بعد ، لأن المتآمرين كانوا متأكدين من أنه سيكون موجوداً . اضافة الى ذلك ، كان رئيس الوزراء صديقاً شخصياً لي . إفترض المنظمون الذين ارسلوا رجالهم لزرع المتفجرات ليلة يوم الاحد باني ساهرع على الفور الى مكتبه حين اعلم بخبر مقتله . فزرعوا هناك قنبلة ثانية .

لكن شاء القدر أن اكون مرهقاً في ذلك اليوم . كانت جيوبي الانفية تزعجني وقد نصحني الطبيب بأخذ قسط من الراحة يوم الاثنين . راجعت بعض المسائل مع رئيس الوزراء ليلة الاحد ، من دون أن يخطر ببالي أني لن اتحدث اليه مرة اخرى . اطلعني بحبور على نتائج مؤتمر وزراء خارجية الجامعة العربية الاخير في شتورة ، لبنان : حيث جرى الاتفاق على إزالة أسباب التوتر بين الدول العربية ؛ ووضعت الدول الاعضاء خطة مرضية لتحقيق ذلك ، كما احبط موقف الأردن محاولات الجمهورية العربية المتحدة لاجبار الدول العربية على قطع علاقاتها مع ايران ، التي اتهمت من دون وجه حق بالتعامل مع اسرائيل .

لذلك في صبيحة يوم الاثنين في نحو الساعة الحادية عشرة كنت لا أزال مستريحاً في بيتي الريفي في الحمّر حين رن جرس الهاتف ، وطلب رئيس مكتب معلومات رئيس الوزراء التحدث اليّ في أمر عاجل . جاءني صوته المضطرب المحزون على الخط ، ومن دون أية مقدمات تمتم قائلاً : «سيدي ، مكتب رئيس الوزراء نُسف وهزاع باشا مات .»

صفقت الهاتف بعنف ، وفي اثناء ارتداء ملابسي ، تذكرت مدى سعادة هزاع وهو يخبرني في الليلة الماضية عن نهاية المؤامرات والمؤامرات المضادة بين الدول العربية . وفكرت بمرارة ، «ماذا عن شتورة وقراراتها الآن؟» مسكين هزاع كيف تجرأوا على فعل ذلك؟

هرعت الى سيارتي ، وتأكدت مرتين من وجود رشاشي على المقعد المحاذي لي .

وطلبت من اثنين من الحرس الجلوس في المقعد الخلفي ، وقدت السيارة متجهاً الى عمان . لم أكد اصل الى مشارف المدينة حين فرملت سيارة وشحطت عجلاتها بالارض وتوقفت امامي . قفز منها وزير الدفاع . وخلف سيارته كانت توجد سيارة اخرى فيها قائد الجيش الفريق حابس المجالي ، وهو صديق لي وابن عم رئيس الوزراء القتيل . قال لي الفريق المجالي : «سيدي ، لا يمكنكم الذهاب في أي حال من الأحوال . لو أن في ذهابكم فائدة ، لما اوقفناكم . لكن كل شيء انتهى . أنا متأكد أن ثمة خطراً كبيراً لحدوث محاولة اخرى .»

سألت : «ماذا حدث؟»

رد المجالي : «دُمر نصف المبنى ، وسقط سقف مكتب هزاع عليه .»

«هل عثرتم عليه؟»

«ليس بعد ، سيدي ، لكن جزءاً من المبنى قد انهار ، واعمال الانقاذ مستمرة . لابد أن الانفجار وقع في مكتبه .»

رفض المجالي ووزير الدفاع رفضاً قاطعاً السماح لسيارتي بالمرور ، لكن وزير الدفاع اقترح علي أن اذهب الى القصر وأن احاول ضبط الامور .

بعد أقل من اربعين دقيقة على الانفجار الاول ، حدث انفجار ثانٍ ، تسبب في أضرار وخسائر في الارواح اكثر من الانفجار الاول ، خاصة بين الرجال الذين كانوا يحاولون انقاذ الاشخاص المحتجزين داخل المبنى . كان رئيس ديواني يغادر انقاض مكتب رئيس الوزراء حين انفجرت القنبلة الثانية . لن اعرف قط ما اذا كنت معنياً بها ام لا .

فظاعة الامر أثارت اشمئزازي ، فمن بين القتلى كان ثمة صبي في العاشرة ورجل في السبعين وامرأة عجوز كانت في زيارة للمجالي لتقديم مظلمة . المجالي نفسه كان رجلاً شريفاً ، يخاف الله ، بحيث أنه كان يرفض دائماً نصيحة ضباط الأمن بالاّ يسمح لعدد كبير من الناس بدخول مكتبه بعد كشف مؤامرة سابقة كانت تستهدفه .

المشكلة الملحة الآن هي السيطرة على الامور في اسرع وقت ممكن ، لأني كنت اعلم

أن هذه الشرارة قد تشعل جحيماً من النار . وبعد فترة وجيزة خرج «صوت العرب» من القاهرة ممتدحاً ما اسماه بالعمل البطولي ، ومشيداً بالطريقة التي قتل فيها الشعب «عميلا للاستعمار» ، وواعداً بتعابير غير محدودة بأن يلقى بقيتنا في الأردن المصير ذاته .

بعد وصولي القصر بفترة وجيزة ، منتظراً الاخبار ، جاءني بلاغ بأن رئيس الوزراء شوهد خارجاً من مكتبه في اتجاه المستشفى المقابل ولم يصب الاّ باصابة في الرأس . وقيل إنه كان ممسكاً برأسه . احسست بغصة في حلقي ، وهرعت خارجاً من مكتبي للتأكد مما اذا كان ذلك صحيحاً . لكن للاسف ، كان بلاغاً كاذباً . فقد جرى العثور على جثمان هزاع المجالي بعد فترة . وقد قُتل على الفور لحظة انفجار منضدة مكتبه مع المكتب كله .

طلبت عقد اجتماع لمجلس الوزراء . فمهما يكن من امر ، لا بد من تشكيل حكومة جديدة باقصى سرعة . وسيكون من الصعب ايجاد بديل لهزاع المجالي . فكرت بسرعة ثم عرفت الرجل الذي اريد - بهجت التلهوني ، رئيس ديواني .

لا اتذكر الكلمات التي قلتها بالضبط ، لكني استذكر ما قصدته ، حين اجتمع مجلس الوزراء تحدثت اليهم قائلاً : «ايها السادة ، من الضروري تشكيل حكومة جديدة على الفور . اعداؤنا جاهزون لاستغلال هذه الجريمة الفظيعة . وقد لا نستطيع مواجهة التطورات من دون قيادة . لقد نالوا من هزاع . ضربونا بقسوة اكثر من اي وقت آخر ، لكنهم لن ينالوا من الأردن .» وسط صمت قاتل تابعت حديثي : «بوصفنا رجالاً ، علينا الا نسمح لعمله او لبلدنا أن يضيعا ، نحن الذين بقينا احياء علينا تحمل مسؤولياتنا تجاه الوطن العربي ، سنثأر لهزاع بزيادة تصميمنا على جعل حياتنا جديرة بأن تعاش وانقاذ امتنا من المجرمين الذين يسعون الى تدميرها .

«لقد خسرنا رئيس وزراء عظيم ، لكن حتى في المحن ، ثمة بعض السلوى ، وأنا سعيد لأن عدداً كبيراً من وزرائي قد نجا وأن في وسعي التحدث معكم الآن .

«انني ارجو أن تبقوا جميعاً في المناصب التي شغلتموها بشكل جيد . وإنا افضل عدم اجراء تغييرات في هذه اللحظة . لقد ازدهر بلدنا في ظل هذه الحكومة والفضل يعود

لكم جميعاً . اطلب اليكم الآن البقاء في مناصبكم الحالية ، وقد قررت تعيين رئيس ديواني رئيساً للوزراء .»

سألت التلهوني إن كان مستعداً لتولي المنصب ، فأجاب بعد تردد - لأن هزاع كان أعز اصدقائه - أنه يتشرف بذلك . سادت لحظة صمت بدت طويلة بالنسبة لي ، ثم سمعت همسات معظم الحاضرين بالموافقة ، وعرفت أن توقعي كان في محله . استقال بعض الوزراء في اثناء الجلسة ، وجرى استبدالهم على الفور .

توصلنا الى اتفاق في غضون دقائق قليلة ، وقلدت التلهوني ، الذي خدم الأردن بشكل رائع رئيساً للديوان ، منصب رئيس الوزراء . احس بالاعتزاز لأننا تمكنا من تشكيل حكومة جديدة بعد ساعتين او ثلاث ساعات من عملية الاغتيال ، في تلك الايام المليئة بالمشاحنات السياسية والمناقشات المطولة .

أثبتت التحقيقات أن اثنين من موظفي مكتب رئيس الوزراء قد عبرا الحدود الى سوريا ، التي كانت تشكل القطاع الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة في ذلك الحين ، عندها تأكدت مما كنت أشك فيه .

حين هدأت الامور قليلاً في العاصمة ، توجهت بالسيارة عائداً الى منزلي الريفي لاحضار بعض اغراضي الشخصية ، وقررت تناول العشاء هناك قبل العودة الى عمان . وفي اثناء تناول عشائي اتصل ابن خالي الشريف ناصر : «سيدي ، أتحدث اليكم بحضور حابس ورئيس المخابرات السياسية (كان حابس باشا رئيس اركان القوات المسلحة) ولدينا دليل على أن ثمة محاولة للاعتداء على حياتكم عن طريق شخص من طاقم الموظفين العاملين معكم - قد يكون من العاملين في المزرعة او في القصر - رجاء ابقوا مكانكم ، ونحن آتون على الفور .»

خلال بضع دقائق توقفت سياراتهم امام الباب . وكان رئيس المخابرات يحمل في يده جهاز تسجيل .

«استمع إلى هذا يا صاحب الجلالة .» وبدأ في تمرير الشريط من خلال آلة التسجيل .

سألت : «من هذا؟»

«احد رجالي اصبح (ثم سعل بتحفظ) صديقاً حميماً مع أحد افراد سفارة الجمهورية العربية المتحدة هنا .»

جلسنا نستمع بهلع الى محادثة عميل المخابرات ورجل السفارة . بعد بضع مقدمات ، قال الاخير : «خلال فترة قصيرة سيلقى حسين المعاملة ذاتها . لقد زرعت شخصاً في مكان اقامته للقضاء عليه ولن يطول الامر . ولو أنه التزم بروتين معين لنلنا منه قبل ايام .»

قال خالي : «هذا صحيح فعلاً ، عليكم يامولاي الا تبقوا في قصر بسمان الليلة .»

انهيت عشائي بسرعة ، واتجهت الى عمان ، في الطريق قلّبت الامر في ذهني ، وقررت قضاء الليل في منزل موريس رينور ، الذي كان يشغله هو وعائلته في باحة القصر قريباً من مكتبي . مما يتيح لحراس القصر اجراء تحقيق دقيق في القصة التي سمعتها في اثناء العشاء ، وتفتيش محيط القصر بدقة .

حين وصلت الى القصر سألت رينور إن كان في وسعي استخدام الغرفة الفائضة لديه ، ثم اخبرته عما احتاج اليه من ملابس ، وطلبت اليه الترتيب لاحضارها الى منزله ، واضفت : «ويستحسن أن تحضر علبة دواء مختومة معك ، فجيوبي الانفية تزعجني . وقد احتاج لبعض القطرة . لطفاً اطلب من السيدة رينور أن تتخلص من الدواء القديم ، تحسباً لاي طارىء .»

منذ بداية شبابي وانا اعاني من مشاكل في الجيوب الانفية ، وقد اجريت لي عملية فيها حين كنت طالباً في ساندهيرست . لكن العلاج الحقيقي الوحيد للجيوب هو الراحة . لكن الراحة بعيدة المنال في الأردن ، لذلك وجدت أن اسهل طريقة لتخفيف الالم هي استعمال قطرة للانف . شعرت بحاجتي لهذه القطرة في تلك الليلة ، وما زلت حتى اليوم اتساءل عن ذلك الاحساس الغامض الذي جعلني اطلب من رينور احضار علبة جديدة .

قبل الغذاء مباشرة ، ذهبت الى بيت رينور ، وحين سألت عن زجاجة الدواء ، صرخت السيدة رينور : «سيدي ، تعال وانظر ، رجاء!» قادتني الى مغسلة الحمام فرأيت

على جانب الحوض زجاجة الدواء نصف فارغة ، وفي قاع الحوض بعض النقاط . نظرت الى السائل بهلع وهو يتفاعل على شكل فقاقيع .

سكبت جميع ما في الزجاجة ، فبدا لي السائل وكأنه حي . كان يفور ويخرج فقاقيع . حين نظرت مشدوهاً ، صرخت السيدة رينور : «انظر الى المغسلة ، سيدي!»

نظرت الى المغسلة ، فإذا لون الكروم فيها قد تغير .

وجدتني اهتف قائلاً : «حمد لله أنك سكبت كل ما في الزجاجة!»

كانت الزجاجة تحتوي على مادة أسيد قوية . لا بد أن شخصاً قريباً يمكنه الوصول الى حمامي قد سكب قطرات الدواء وملأ الزجاجة بهذه المادة .

لم نكتشف المذنب قط . فقد آلمني الحديث المسجل على الشريط جداً الى درجة لم اشأ أن أشك في أي من خدمي الشخصيين ، خاصة غير الأردنيين منهم ، بعضهم عمل في خدمتي منذ فترة طويلة . ورغم ذلك ، لا بد لي من ايجاد خدم جدد ، وشراء مجموعة جديدة من الادوية!

كانت حادثة قطرات الانف بمثابة انذار ، لكن ما هو أشد إثارة للخوف والتشاؤم كانت حادثة القطط المسمومة . عمان تعج بالقطط ، اغلبها ضال ، لا يعرف حدوداً ، ويمكنها التسلل من خلال اي سلك شائك . وكان جدي يحب القطط ، ويتسامح بوجود اعداد كبيرة منها تسرح في باحة القصر .

كنت اسير في الارض المحيطة بالقصر ذات يوم ، حين صادفت جيف ثلاث قطط ميتة . قلت في نفسي «ياللقطط المسكينة البائسة» ، وافترضت انها ماتت جوعاً . ولما كنت احب القطط أنا ايضاً ، فقد اردت أن اعرف على الفور خطأ من هو الذي تسبب في موتها .

حين دخلت القصر ، وجدت احد الضباط في انتظاري ، قلت له اني سأوافيه بعد لحظات ، مضيفاً : «سأخبر الخدم كي يدفنوا بعض القطط الميتة» .

بدأ عليه الاهتمام الشديد : «أية قطط ميتة ، ياصاحب الجلالة؟»

«هناك» قلت ، واشرت الى مكانها .

«لكن كم عددها ، ياصاحب الجلالة؟»

تساءلت في سري عما اصابه ، وقلت وأنا آمل الاّ يكون في صوتي رنة سخرية : «وهل هذا مهم؟»

«نعم مهم ، مهم فعلاً» ، اجاب بمنتهى الجدية ، «يوم امس وجدنا ست قطط ميتة في باحة القصر ، ووجدنا سبع قطط في اليوم الذي سبقه .

الآن جاء دوري ليبدو عليّ الاهتمام الشديد . سألت غير مصدق : هل هذا صحيح؟»

«صحيح يامولاي ، لقد سُمّمت .»

«لكن لماذا لم يخبرني أحد عن هذا؟»

«لم نشأ ازعاجكم ، سيدي ، حتى نتأكد . نحن نشك في أحد العاملين في المطبخ ، واردنا التأكد الاّ يكون له علاقة بطعامكم . ليس ثمة خطر عليكم ، مولاي .»

«من هو؟»

«تلقينا تقريراً قبل بضعة أيام من الملحق العسكري في بيروت يقول إن المكتب الثاني للجمهورية العربية المتحدة في دمشق على علاقة مع مساعد طاه في مطبخ القصر اسمه احمد نعناع . كنا ننتظر يا مولاي ، ونحن الآن على وشك القبض عليه .»

مالذي حدث؟ لم تكشف الحقيقة سوى اعترافات نعناع . كان له ابن عم في دمشق يعمل مع المكتب الثاني السوري ، كان يعرف أن نعناعاً يعمل كمساعد طاه ، فجنده ليقوم بتسميم طعامي ، ووعده بمبلغ كبير عند انتهاء مهمته . لكن نعناعاً لم يكن خبيراً في السموم ، لذلك راح يجري تجارب على القطط . واعترف أن السبب الوحيد في عدم قيامه بأية محاولة لقتلي هو أنه لم يكن قادراً على تحديد الجرعة اللازمة : فجميع القطط لم تمت بسرعة كافية . وكانت غلطته أنه ترك القطط تتجول في باحات القصر لتموت ، ولولا ذلك لما كشفنا المؤامرة قط .

أُدخل نعناع السجن ، بعد مدة من الزمن ، وبمناسبة احد الاعياد الاسلامية الكبرى ، كنت اقود السيارة عائداً من المسجد بعد اداء الصلاة ، شقت فتاة صغيرة طريقها في اتجاه سيارتي وهي تحمل في يدها نسخة من القرآن الكريم ، وتوسلت اليّ أن اطلق سراح والدها من السجن ، وهو احمد نعناع ذاته ، الذي حاول أن يسمّني . فما الذي يستطيع المرء ان يفعله في لحظة كهذه ، وهو عائد من الصلاة لله شاكراً اياه على نعمته في أنه ما زال حياً؟ كان رئيس ديواني يجلس الى جانبي ، تنهدت وقلت : «رتب الامر مع السلطات ، واطلق سراحه .» أطلق سراح نعناع للاحتفال بالعيد مع عائلته .

قبل العام ١٩٥٦ كان جهاز المخابرات في الأردن صغيراً للغاية ، فقد كان بلدنا خالياً تقريباً من المكائد التي لازمت مناطق اخرى من الوطن العربي . كانت تحدث مؤامرات بين الحين والآخر ، لكنها كانت تُكشف بفضل ولاء الافراد في الجيش ومشارب الحياة الاخرى . في احدى المرات ابلغ أب عن ابنه بعد عودة الاخير من سوريا في مهمة لاطلاق النار على المجالي ، او خالي الشريف ناصر ، قبل بضعة اسابيع من نسف مكتب رئيس الوزراء .

كنت ابغض أن أُحاصر بالاجراءات الامنية ، لكن مع ازدياد هجمات اعدائنا على الأردن ، توجب علينا اقامة شبكة محكمة ضد التخريب . واصبح لدينا الآن قوات أمن أفضل ، قوات اعتز بها .

كنت أنا وخالي الشريف ناصر محظوظين بشكل خاص بالنجاة من محاولة اغتيال قبل أشهر من مغادرة غلوب الأردن ، اعتدت في ليالي الصيف الحارة أن اذهب الى مزرعتي لتناول العشاء مع بعض الاصدقاء في نحو الثامنة مساءً . ولم اكن قد بنيت البيت الذي اسكنه الآن مع زوجتي ، واستخدم بدلاً منه بيتاً صغيراً كان ملكاً لجدي . في ذلك الوقت ، كنت اتنقل من دون حراسة ، وجدت في ذلك الحين أنني أنا وخالي كنا نمتلك سيارتين متماثلتين من طراز بويك لهما سقف قابل للطي .

في تلك الليلة بالذات ذهب خالي الى المزرعة قبلي . وفي اثناء قيادتي السيارة عائداً من جرش المدينة الرومانية الأثرية ، حيث قضيت الامسية في الاشراف على

ترتيبات حفل غداء قبل عودتي الى عمان والذهاب كالمعتاد الى المزرعة . كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة قليلاً ، وانا انطلق صاعداً احدى التلال في اتجاه عمان ، حين رأيت سيارة خالي الى جانب الشارع وقد سقطت عجلتها الامامية داخل قناة . توقفت وقفزت لاجد خالي يسير متجهاً اليّ وهو يتمايل بشكل واضح ، وملابسه يغطيها الغبار .

في البداية قال لي : «انه مجرد «بنشر» لا تقلق ، سيدي!»

حين نظرت عن قرب رأيت ثقبين احدثتهما رصاصتان في الزجاج الامامي فوق المقود بالضبط . عددنا الرصاصات فبلغت تسعاً ثقبت احداها الاطار الامامي للسيارة .

انتظر الاشخاص الذين عقدوا النية على القتل عند جانب الطريق المتجه الى عمان ، وحين وصلت سيارة خالي - التي تشبه سيارتي تماماً - الى حافة التل اشعلوا اضواء قوية في وجهه للتأكد من السيارة ، ثم فتحوا النار - من بندقيتين ومن مسافة قريبة . القى خالي بنفسه على مقعد السيارة ثم خارجها حين توقفت على جانب الطريق ، وتمكن من اطلاق النار مرتين على الاضواء الخلفية للسيارة المهاجمة قبل أن تختفي في اتجاه عمان .

لم انتظر لمعرفة المزيد . فالسيارة انطلقت في اتجاه عمان قبل عشر دقائق من وصولي تقريباً . اعطاني وصفاً سريعاً لها وانطلقت في أثرها ، لكني لم انجح ، ولم نعثر قط على المسؤولين عن تلك المحاولة .

وصلنا الآن الى القصة الاخيرة من قصص المؤامرات . لا اعتقد أن احداً ما ، من غير الاشخاص المقربين اليّ ،كان يعرف أنه خلال الاسابيع الخمسة التي قضيتها في الولايات المتحدة في العام ١٩٥٩ ، كان معي ، من ضمن الحاشية التي رافقتني ، أحد المتآمرين . تغدينا وتعشينا معاً ، وقدمته للعديدين من الزعماء الأميركيين ، ورغم ذلك وخلف ابتساماته ، كان زعيم مؤامرة ترمي الى اسقاط النظام في الأردن .

هذا الشخص هو اللواء صادق الشرع ، رئيس اركان القوات المسلحة الأردنية . فلماذا اصطحبته معي؟ حين كنت استعد للقيام برحلتي الى الولايات المتحدة ، وصلتني دلائل قوية على أن الشرع وعدداً من الضباط الآخرين يخططون لانقلاب ضد العرش في أثناء

غيابي ، بمساعدة خارجية . وعرفنا بعد ذلك أنهم يخططون لاحتلال قيادات الجيش ، ولقتل قائد الجيش ، ثم فتحْ نيران المدافع على قصر زهران ، حيث تقيم عائلتي . لم يكن الشرع شخصاً يحب الحلول الوسط ، لأنه أخبر المتآمرين الآخرين : «حين تضطرون لاطلاق النار على زهران ، لا تهتموا بالبنادق ، افتحوا نيران المدفعية!» ثم اضاف بشكل مقتضب : «ولا توفروا كتيبة المشاة المرابطة هناك ايضاً .»

جاءتنا المعلومات من ضابط تظاهر ، بناء على تعليمات مني ، أنه يؤيد المتآمرين ، لكنه واصل اطلاعنا على جميع الخطوات . الاّ أنه من الصعب التيقن من وجود مؤامرة واثباتها حتى اللحظة الاخيرة ، وعندما حان موعد سفري الى الولايات المتحدة ، ورغم معرفتي بأن المؤامرة على وشك أن تنفذ ، لم يكن في وسعنا التعامل معها .

لذلك أعلنت : «حسناً ، سأخذ الشرع معي كفرد من الحاشية .»

وضعت الشرع في موقف صعب ، فليس في وسعه رفض رغبتي ، ورغم أنه بذل كل ما في وسعه للتهرب من السفر معي بادعاء أنه وقع في الحمام واصيب اصابة بالغة في اضلاعه .

آمل الاّ ابدو حاقداً اذا اعترفت بأني استمتعت بوضعه في ذلك الموقف . بمجرد وصولنا الى الولايات المتحدة جرى اعتقال بعض المتآمرين فتزايد قلق الشرع أكثر فأكثر . كانت المعلومات الوحيدة التي تصله هي معلومات الصحف الاميركية ، لأني اصدرت تعليمات قبل مغادرة عمان بالا يرد اسمه في أية برقية علنية . على أية حال ، لم يطّلع على أية برقية ، كان يشتري الصحف الواحدة تلو الاخرى ، ويقرأ اخبار اعتقال رفاقه المقربين ، ولا شك في أنه كان يتساءل إن كان اي واحد منهم قد تحدث عنه وورطه . حين وصلنا شيكاغو كان في حال يرثى لها متلهفاً لمعرفة المزيد من التفاصيل . وحين اختفى لبضع ساعات من بين افراد حاشيتي قلت لرئيس الديوان : «اخشى أن يتركنا صادق الآن .»

لكنه ظهر مرة أخرى . حاول في واشنطن ونيويورك العثور على بعض الرعايا الأردنيين ممن وصلتهم رسائل من الوطن . كانت ايامنا مليئة بالارتباطات الرسمية ، فكان

يطلب اعفاءه منها على أساس أنه يشعر بتوعك . وكانت طلباته ترفض وبقي معنا .

في نهاية الرحلة ، طرنا من نيويورك الى لندن . هناك ، كان الشرع قد شارف على الخروج عن طوره من شدة القلق . قال لي إنه بحاجة الى عملية عاجلة ، والتمس مني الإذن بالبقاء في لندن عندما يحين وقت العودة الى الوطن . رفضت ذلك لكنني وعدته من دون أن انبهه لما في نفسي أننا بمجرد الوصول الى الأردن وانتهاء الرحلة ، سارتب له ، إن كان ذلك ضرورياً ، رحلة اخرى الى لندن لاجراء العملية .

جرى اعتقاله بعد فترة وجيزة من عودتنا الى الأردن ، وحكم عليه بالاعدام ، وهو حكم خففته فيما بعد الى السجن المؤبد .

١٧

١٩٦٠ - ذهابي الى الأمم المتحدة

لم أقطع آلاف الاميال لمجرد التحدث بالتفاهات

في أواخر ايلول / سبتمبر ، بعد شهر تقريباً من اغتيال هزاع المجالي ، قررت أن أطير الى الأمم المتحدة لإلقاء خطاب هناك . لم يكن الأمر مجرد نزوة ؛ فقد كان لدي أسباب كثيرة تدفعني للذهاب .

كانت الأمم المتحدة ذاتها تتعرض لحملات قاسية من قبل خروتشوف والكتلة الشيوعية . كان خروتشوف يحاول التخلص من همرشولد (الامين العام للأمم المتحدة في ذلك الحين) وإحلال نظام «الترويكا» الخاص به محله . وكان لدي إحساس قوي بأن الشيوعيين وما يدعى بالدول المحايدة تسيطر على الساحة ، وأن صورةً محرفة للرأي العام العالمي قد بدأت تبرز . وكان أصدقاء الحرية متخلفين في مجال الدعاية عن أصدقاء الشيوعية . وكنت قلقاً من تأثير ذلك ، وبشكل خاص ، على الدول الافريقية التي انضمت حديثاً الى الأمم المتحدة .

اما بالنسبة للشرق الاوسط فلم تعجبني الطريقة التي نسب فيها عبد الناصر لنفسه دور الناطق باسم العالم العربي . فعبد الناصر لم يكن يمثل ، ولايمثل ، بالضرورة ما يفكر به العرب . وشعرت أن من واجبي أن انبه الأمم المتحدة الى مشاكل الشرق الاوسط ، خاصة تجدد التوتر ما بين الجمهورية العربية المتحدة والأردن ، وأبرز مثال على ذلك المؤامرة التي فجرت مكتب رئيس الوزراء . واعتقدت ايضاً ، أن دولة عربية حرة ، مثل الأردن ، عليها أن تُسمع العالم رأيها في القضيتين ، الجزائرية والفلسطينية . كنت أعلم أن صوتي سيكون صغيراً مقارنة بهدير خروتشوف وخطب كاسترو الحماسية ، الاّ أنني قررت أن أذهب ، سواء استمعوا لي أم لا .

لم يكن الطيران سهلاً كما اعتقدت . مرة اخرى تدخلت الجمهورية العربية المتحدة

بخططي . وحيث أن الخطوط الجوية البريطانية عبر البحار لم يكن لديها محطة لطائرات «كوميت» في عمان ، لم يكن ثمة من سبيل سوى أن أطلب منهم إنزال طائرتهم في عمان ، في أثناء رحلتها من الخليج الى لندن ، لاصطحابي الى لندن ، فوافقوا على ذلك .

وحيث أنه كان على الطائرة التحليق في الاجواء السورية ، أبلغت دمشق عن التغيير في برنامج الرحلة ، وأني سأكون أحد الركاب . وبعد أن أعطت السلطات الإذن المعتاد ، رفضت في آخر لحظة وبصراحة السماح للطائرة بالتحليق فوق سوريا ، إن غيرت موعد طيرانها . بكلمة اخرى ، لا يمكنها الهبوط واصطحابي . وبدلاً من ذلك ، علي أخذ طائرة خاصة من الخطوط الجوية الأردنية والطيران مع حاشيتي جنوباً الى المملكة العربية السعودية ، ثم الى الخرطوم ، ومن هناك الطيران فوق ليبيا الى مالطة ثم لندن . والرحلة التي كان من المفروض أن تستغرق سبع ساعات استغرقت ثلاثة وعشرين ساعة . من لندن استقليت أول طائرة الى نيويورك .

صباح اليوم التالي هبطت في نيويورك ، وحضر السيد همرشولد الى فندق والدورف للترحيب بي . وهذا امتياز نادر – حيث علمت أنني اول رئيس دولة يقوم بزيارته – تأثرت به للغاية . وكنت على الدوام أكن احتراماً كبيراً لهذا الدبلوماسي السويدي الهادىء المتواضع الذي ضحى بحياته في سبيل قضية الحرية . وكان موته خسارة مريرة لقضية حقوق الانسان . وكان صديقاً مخلصاً للأردن .

واجهت الكثير من المتاعب في اثناء اعداد خطابي . لم يكن امامي سوى ٤٨ ساعة ، وخلافاً لبعض رؤساء الدول ممن لديهم الكثير من المساعدين ، كان عليّ القيام بمعظم العمل وحدي . وكنت أتعرض لضغط شديد – من أعضاء حكومتي وآخرين – لتخفيف لهجته ، لكني ، كما قلت لأحد الدبلوماسيين القلقين : «لم اقطع آلاف الاميال لمجرد التحدث بالتفاهات» . شعرت أن الدول الصغيرة تتطلع الى الأمم المتحدة من أجل الحماية والسلام والتقدم ، وقررت أن أقول ما أعتقده بالضبط . فلم يكن ثمة داع على الاطلاق للتقليل من أهمية التوترات في الشرق الاوسط . ولو فعلت ذلك ، لكانَ من الأفضل لي البقاء في البيت .

انكببت على اعداد خطابي حتى الساعة الرابعة من صباح ٣ تشرين الاول تقريباً ، ووصلت الى مبنى الأمم المتحدة في الساعة التاسعة والنصف . وكان من المفروض أن ألقي خطابي في الساعة العاشرة ، لكن بطريقة ما صعد خروتشوف أولاً . هاجم الأمم المتحدة بشدة . كما هاجم نواح عدة من الحياة في العالم الحر ، ساخراً من كل ما نؤمن به . وبدأ وكأني كتبت خطابي خصيصاً للرد على تقريعه . حين بدأت في القاء خطابي خرج خروتشوف ومندوب الجمهورية العربية المتحدة من القاعة ، لكني لم اهتم لذلك . فلم تكن كلماتي موجهة اليهم بل الى الرأي العام العالمي .

ونظراً لأن ذاك الخطاب قد أعد قبل أشهر قليلة فقط من بداية كتابتي لهذا الكتاب ، فانه مازال يمثل وجهات نظري . لهذا السبب قررت ان أضمنه نصوص هذا الفصل . وهو يمثل مجملاً لكل ما تعلمته منذ أن اعتليت عرش الأردن . بعد المقدمات ، قلت :

«ثمة أربعة أسباب لوجودي هنا اليوم ؛ أولاً ، أنا قلق للغاية مما يبدو كأنه محاولة لتخريب الأمم المتحدة ؛ ثانياً ، أردت التأكد من انه ليس ثمة أي خطأ في فهم موقف الأردن من صراع الايديولوجيات الذي يهدد السلم العالمي ؛ ثالثاً ، بصفتي رئيس دولة صغيرة ، أشعر أن من واجبي تجاه دول العالم الصغيرة الاخرى ، خاصة الاعضاء الجدد في الأمم المتحدة ، أن أشاركهم تجربتنا في الحفاظ على الحرية التي نحارب ، مثلنا في ذلك مثلهم ، من أجل الانتصار - لها ؛ رابعاً ، وأخيراً ، أعتقد أن من واجبي التعبير عن وجهات نظري في ثلاث قضايا حيوية في الشرق الاوسط تمس السلم العالمي - هي تحديداً ، ازدياد التوتر ما بين الأردن والجمهورية العربية المتحدة ، واستقلال الجزائر ، والقضية الفلسطينية المعلقة .

«لا حاجة للتأكيد بأن الأمم المتحدة تمثل الأمل الوحيد في السلم والحرية للانسانية . ولهذا أهمية كبرى بالنسبة لجميع الدول الصغيرة في العالم ، ورغم ذلك سعى الاتحاد السوفياتي لتحطيم الأمم المتحدة ؛ وعرقلة تدابيرها ، ووقف قراراتها بأساليب فظة ، وبالانسحابات المشاكسة ، للحط من سمعة مجلس الامن والجمعية العامة .

«وآخر دليل على ذلك هو اداؤه في هذه الدورة ، ومحاولة إضعاف سلطات الامين العام ، واقتراح نقل موقع رئاسة المنظمة . وهذه ليست سوى بعض الجهود لتحطيم الأمم المتحدة ذاتها .

«ولا يخفى على كل من تابع مداولات الجمعية العامة خلال الاسبوعين الماضيين أن يدرك مدى أهمية هذا الاجتماع . المشاكل التي نواجهها ليست جديدة ، لكن بقاءها دون حل جعلها تكبر وتتعاظم الى درجة أن استمرارها في الوجود لا يهدد السلم العالمي وحسب ، بل حياتنا ايضاً . ليست لدي خطة رئيسة لحل هذه المشاكل . وكبلد لا يمتلك أسلحة نووية ولا يمكنه الا أن يعاني من أية حرب نووية ، فإن الأردن يناشد القوى الكبرى المعنية بأن تستأنف جهودها ومساعيها ، رغم العراقيل التي تعترض طريقها ، لايجاد صيغة ، أو ربما افضل ، ايجاد طريق للحقيقة لن تنقذهم هم وحدهم ، بل تنقذنا كلنا .

«ثمة مشاكل أخرى ايضاً ، وسيكون المرء أعمى بالفعل ، إن لم يدرك أنه في كل قضية حيوية تواجه هذه الهيئة الممثلة لدول العالم تطرح خيارات . وليس ثمة سر حول مضمون ذلك الخيار : فهو يقع ما بين أن تصبح الدولة جزءاً من الامبراطورية السوفياتية ، وتخضع تماماً لما يفرضه مجلس السوفيات الاعلى ، او تقف كأمة حرة ولاؤها الخارجي الوحيد هو للأمم المتحدة ذاتها . هذا هو الخيار ، الذي يجب على كل أمة أن تختاره . وهل لي أن أقول على الفور ، بكل مالدي من قوة واقتناع ، إن الأردن قد اختار؟ لقد اعطينا جوابنا بافعالنا ، وأنا هنا الآن لتأكيد موقفنا لدول العالم . نحن نرفض الشيوعية؟ الشعب العربي لن ينحني قط للشيوعية ، مهما كان ما تتستر به لفرض نفسها علينا .

«الشيوعية لن تعيش ابداً في العالم العربي ، لانها إن فعلت ، فسوف تحل محل القومية العربية . عندها لن تكون هناك أمة عربية . وأنا أومن أن للقومية العربية جذور عميقة نستمدها من حبنا لله ، وحب الحرية ، وعقيدة المساواة بين الجميع امام الله ، بحيث لا يمكن أن نحل محلها نظاماً ينكر اهمية كل هذه الافكار . إضافة الى ذلك ، أومن ايماناً عميقاً بأن على جميع الدول المؤمنة بالله أن تُجمع على شن هجوم مضاد ضد

التحدي المشترك الذي يهدد وجودها نفسه . فلا القوة العاطفية المستمدة من حب الوطن ، ولا المقاومة المكتسبة من الرغبة في الرفاهية المادية ، ولا القوة المعنوية التي نستجمعها من مفهوم الحرية- يمكن لأي منها منفردة ، أن تواجه التهديد للسلام الذي تمثله الاوضاع الاستبدادية التي تفرضها الشيوعية . وما لم يُخلص الذين يحبون الله وما أمر به ، من حب ومساواة وعدالة اجتماعية ، في ترجمة هذه الافكار الى اعمال ، فلن تُهزم الشيوعية ولن يعود السلام الى الارض .

«في الصراع العظيم بين الشيوعية والحرية لا يوجد حياد . فكيف يمكننا أن نكون محايدين في موقفنا تجاه نظامين من انظمة الحكم ، وبين فلسفتين ، واحدة تناهض هذه المفاهيم والاخرى تنكرها وتكبتها؟حين نقف الى جانب العالم الحر ، فاننا لاننسى نضالنا الطويل من أجل التحرر . ولا يمكننا تأييد الظلم الواقع الذي يرتكبه بعض أعضاء العالم الحر ، لكن مع غروب شمس الاستعمار القديم ، فاننا لا نتعامى عن استعمار الشيوعية الجديد ، الاشد وحشية ، والأشد استبداداً ، والاشد خطراً على أفكار الشعوب الحرة وعلى مفهوم القومية ، من اي شيء عرفه العالم قط .

«وفي الوقت الذي نرفض فيه مذهب الحياد لأنفسنا فإننا نحترم حق أية دولة في أن تختار مسار عملها ، لكننا قلقون من استغلال الانقسام ما بين الشيوعية والعالم الحر . كما أننا قلقون من خطر التوسع الشيوعي تحت قناع الحياد .

«وصلت الآن الى قضية الشرق الاوسط ، البالغة الاهمية بالنسبة للسلام العالمي ، والتي تسبب قلقاً بالغاً للأمم المتحدة . في الجزء الخاص بنا من العالم أنظر الى مشكلتي الجزائر وفلسطين . ثمة وضع قائم يتوجب على الجمعية العامة أن تتنبه له لن أسهب في ذكر التفاصيل المحزنة ، لأن القيام بذلك قد يزيد الصراعات الداخلية بدل أن يقللها . كما أن التغاضي عنها وعدم تنبه الأمم المتحدة لها فيه القدر نفسه من الخطورة . لذلك أشعر بأن عليّ التحدث عن التوتر القائم ما بين الأردن والجمهورية العربية المتحدة .

«ومع مواجهة الأمم المتحدة لمشاكل أخرى تهم العالم ككل فقد يفترض بعضهم أن عرض ما يبدو أنه قضية محلية أمر غير مناسب الاّ أنه ، ليس ثمة من قضية محلية

بالكامل ، وكما يعلم العالم اليوم ، فان اي صراع فكري او تهديد بنزاع مادي لا يقف عند حدود الدول المشاركة في النزاع مباشرة . اضافة الى أن المبادىء التي يجب استخدامها لحلها ، يمكن تطبيقها في مختلف أنحاء العالم ، ومع حصول الدول المستقلة الجديدة على حريتها بأعداد متزايدة ، فإن التطبيق الفعال لهذه المبادىء يزداد أهمية .

«أن أبقى صامتاً بعد ذلك ، يعني تشجيع استمرار الوضع الذي قد يدمر الأمة العربية ، وستقود هذه العملية الى توريط القوى الكبرى ، ويؤدي ذلك الى نزاع عالمي .

«بدأ كل ذلك قبل سنوات عدة ، بعد فترة وجيزة من حصول الأردن على استقلاله التام ، واجه تهديداً جديداً هائلاً لحريته تمثل في تغلغل الشيوعية في منطقتنا . وتسببت تحذيراتنا لشعب الأردن والأمة العربية ككل الى تعرضنا للاذى ، والتخريب والضغوط الخارجية من مختلف الانواع ، كانت مكثفة الى درجة لم يكن في وسعنا الاّ أن نعتقد بأن هدف شقيقتنا الدولة العربية الكبرى وحكومتها ، التي كنا نفترض أنها تكرس نفسها بقوة لهدف الوحدة ، مثلها في ذلك ، مثل الأردن ، وهو تدميرنا . في الحقيقة ، أن هجمات الجمهورية العربية المتحدة ضدنا قد تواصلت بحيث صادقت الجمعية العامة للأمم المتحدة يوم ١٢ آب ١٩٥٨ على قرار جامعة الدول العربية الذي تتعهد فيه الجمهورية العربية المتحدة بوقف الحملات ضدنا . للأسف فانها لم تلتزم بتعهدها ذاك . فقد استؤنفت الهجمات ضدنا ، وأصبح التحريض على إسقاط حكومتنا واغتيال قادتنا يبث يومياً من الاذاعة الحكومية ؛ وأغلقت الحدود التي تفصل ما بيننا لتخريب اقتصادنا ، وشُجع الخونة المتواطئون ، او في الاقل سُمح لهم بالمشاركة في أعمال تخريبية ضدنا . وقد تفاقم الموقف مرة أخرى بحيث أن الجامعة العربية ، التي ينتسب لعضويتها كل من الجمهورية العربية المتحدة والأردن ، اتخذت قراراً يدعو الدول الاعضاء الى التوقف عن جميع النشاطات التي قد تؤذي العلاقات الأخوية بين الدول العربية .

«في اليوم التالي لانتهاء الدورة ، قُتل رئيس الوزراء الأردني ، هزاع المجالي ، بقنبلة زرعت في مكتبه مع احد عشر شخصاً آخرين ، بما في ذلك صبي في العاشرة من عمره . أحاول أن أمنع نفسي ، وأؤكد لكم أني أجد صعوبة كبرى في القيام بذلك ، عن قول

المزيد حول هذا الموضوع . الاّ أنني أود أن أضيف أن ثمة مغزى كبيراً لحقيقة أن متاعبنا مع جمهورية مصر العربية تعود الى تاريخ شجبي لتنامي الخطر الشيوعي في العالم العربي . إضافة الى ذلك ، اكتشفت تماثلاً كبيراً ما بين الأساليب التي استخدمت ضد الأردن وتلك التي استخدمها الشيوعيون في كافة انحاء العالم .

«ليس سراً أن سياسة الاتحاد السوفياتي تقوم على التفريق بين الاصدقاء ، وبث الانقسام بين الدول ، بهدف تحقيق هدفه في السيطرة الكاملة على العالم» .

«النقطة التي أريد ابرازها هنا ، إذا كنا نطمح ،كما يوحي الهدف من انشاء الأمم المتحدة ، الى المزيد من الحرية ، ومزيد من التعاون ، والى ما نشير اليه بعالم أفضل ، وأن بقاءنا يكمن في الالتزام بالطرق التي اتفقنا عليها جميعاً في تعامل بعضنا مع بعضنا الآخر ، فان علينا إيجاد طرق أفضل من الطرق الحالية ، لجمع الرأي العام كله وحشده بسرعة وفاعلية ضد أية دولة تنتهك هذا الاتفاق . لا أقول إن ثمة جديداً في هذه الفكرة ، إنها ببساطة فكرة الحكم وفقاً للقانون المطبق على أعمال الدول ذات السيادة . وهي بالنسبة لي ، كزعيم دولة صغيرة تتعرض لضغوط خارجية كبيرة ، مفهوم يستحق التأكيد عليه في هذا الوقت بالذات ، لأني أعتقد أن في تطبيقه بنجاح يتقرر بقاء العديد من الأمم الصغيرة وتقدمها . والأمم المتحدة هي الهيئة الوحيدة القادرة على تطبيق هذه الفكرة بنجاح .

«قبل أن أنتقل الى موضوع الجزائر وفلسطين ، أود أن أقول كلمة أخيرة عن الجمهورية العربية المتحدة . في الوقت الذي يرحب فيه الأردن بأي دليل على دعم الأمم المتحدة لموقفه ، والذي نعتقد أنه يجب أن يقوم على المباديء التي تهدف الى إقامة علاقات أفضل بين الأمم ، فان الأردن لا يتوقع ولا يطلب رداً خاصاً وفورياً على ما قلته . اذا كان في وسعنا جميعاً إيجاد وسائل أفضل مما لدينا الآن ، وتبنيها لضمان سلامة الدول الصغيرة ، وحماية قدرتها على تحسين وضعها ، من دون تدخل أجنبي ، أعتقد عندها أننا نكون قد حققنا تقدماً . وإذا كان ما قلته يسهم في تحقيق هذه الغاية ، فقد كان يستحق القول .

«مأساة الجزائر فادحة ، وثمة دلائل على انها تزداد فداحة . بالنسبة لي اقول مجدداً ، إن المشكلة تكمن في رفض الاعتراف بحق الشعوب في تقرير مصيرها ، وهذا هو جوهر الحرية . لايمكن للأمم المتحدة تحمل اتخاذ موقف سلبي من هذه المسألة ، كما لم تكن سلبية في موقفها تجاه كوريا وهنغاريا . والمشكلة هنا أخطر بكثير ، لأن أحد أطرافها ينتمي الى العالم الحر . نناشد فرنسا أن تتمسك بما يبدو أنها أهملته ، تقليدها في الحرية والتحرر والمساواة . لا شك في أن قطاعاً كبيراً من الشعب الفرنسي يؤيد بحرارة السماح للاخوة الجزائريين باختيار مستقبلهم . فهل للحكومة الفرنسية أن تعكس بأعمالها الإيمان نفسه وتمنح الجزائريين حق تقرير المصير الذي وعد به الرئيس الفرنسي . إن فعلت ذلك ، فان فرنسا ستسترد مكانتها بين الدول التي تحارب من أجل الحرية . ولن يكون ثمة عالم أفضل اذا ما واصلنا إخضاع المبادىء للحلول الوسط . علينا وضع حد للمذابح التي لا طائل تحتها ، فقد أقترف من الاخطاء ما يكفي .

«مشكلة الشرق الاوسط الثالثة هي فلسطين . يبدو أن ضمير العالم قد أغلق عينيه بطريقة شائنة ولفترة وطويلة عن هذه المأساة الانسانية ، بالغة الخطورة في حجمها ، بحيث أن أكثر من مليون لاجىء من عرب فلسطين يعيشون منذ ١٢ سنة ويتجاهلهم العالم الى درجة أنه لم يحاول مساعدتهم على استعادة أكثر الحقوق أهمية وقداسة في الحياة ، الاوهو الكرامة الانسانية . فشل الأمم المتحدة الاساسي في إعطاء الشعب حق تقرير المصير في العام ١٩٤٧ ترك الوضع من دون حل . لا يساور الشك عقل أي مراقب عادل غير متحيز أن الشعب العربي في فلسطين قد ظُلم بتقسيم فلسطين وما تبع ذلك من تأسيس لدولة اسرائيل . وكما كان الامر خاطئاً وظالماً من الناحية السياسية في ذلك الحين ، فهو لا يقل عن ذلك خطأً وظلماً اليوم . فالعالم ينزع بشدة الى قبول الامر الواقع كأساس للسياسة .

«كما يدرك الجميع هنا ، مازال يوجد الكثير من القرارات ، تلك التي اتخذت في العام ١٩٤٨ و ١٩٥٩ مثلاً ، ورغم ذلك لم يُفعل شيء لاقناع اسرائيل بالعمل وفقاً لها . على الأمم المتحدة أن تفرض ارادتها على عضو يرفض الالتزام بقراراتها . لن يكون ثمة

سلام حقيقي في الشرق الاوسط من دون حلّ عادل ، مشرف للمأساة الفلسطينية ، واستعادة حقوق الشعب العربي في فلسطين .

«قلت في السابق إننا لا نقف على الحياد ما بين الصح والخطأ - كما إننا لسنا محايدين في إيماننا بالله - واسأل الله الذي نؤمن به أن يسبغ بركاته على هذه الجمعية العامة ، وأن يعطينا الشجاعة على اتخاذ قراراتنا في المسائل المطروحة أمامنا بحكمة وجرأة .»

تأثرت للغاية بعد القاء خطابي حين تلقيت تهنئة من الرئيس أيزنهاور ، والسيد ماكميلان ، وحتى السيد نهرو . وقد دعاني الرئيس فيما بعد الى البيت الابيض ودار بيننا حديث طويل مفيد . وأقام السيد همرشولد حفل غذاء خاص لي ، وبعد ذلك قام هذا الرجل العظيم - كثير المشاغل والذي شُوهت سمعته كثيراً قبل موته - بإيجاد وقت فراغ ، رغم مشاغله التي لا تنتهي ، والحضور مرة اخرى الى فندق والدورف استوريا لوداعي قبل أن أطير عائداً الى الوطن .

١٨

اقتصاد الأردن

من المهم الرد على التوقعات

لا بد من وجود الكثيرين ممن يتساءلون عن شكل الأردن ، وما هي إمكانات البقاء لديه ، سواء منها السياسية والاقتصادية . يوحي بعض المراقبين أنه يفتقر الى الكثير من المقومات الضرورية للبقاء - مثل الحجم ، وعدد السكان ، والاقتصاد . ومن المهم الرد على حجج من هذا النوع .

قدرة الدولة على البقاء لا تقررها المساحة او عدد السكان ، بل إرادة شعبها وإيمانه ببلده ، وتصميمه على جعل حياة أبنائه جديرة بان تُعاش . ويهدف الأردن الى أن يكون مثالاً عالمياً للديمقراطية النموذجية . نحن نحاول أن نبني على التراث الذي ورثناه عن الاسلام ، وأن نتعلم من تجارب الدول الأخرى ، وأن نجعل الحرية مثلاً أعلى شاخصاً امامنا .

الأردن اليوم قوي اقتصادياً ويتطور بسرعة ، اذا أخذنا في الاعتبار الضغوط التي يتحتم عليه مواجهتها ، والأعباء التي يجب عليه تحملها ، وحداثة نشأته . الأردن كدولة مستقلة ظهر في العام ١٩٤٦ . أما المملكة الأردنية الهاشمية بشكلها الحالي فلم تظهر الا في العام ١٩٤٨ ، وبعد واحدة من أكثر الاحداث تخريباً وتدميراً في التاريخ .

رغم تقسيم السياسيين الاعتباطي لشرقي الأردن وفلسطين في أوائل العشرينات ، فقد شكلا على الدوام وحدة اقتصادية : فالمرتفعات والمنخفضات والمناطق الداخلية والساحلية ، والانهار والجداول واحواض البحيرات ، شكّلها الخالق العظيم لتكون كياناً واحداً أقرب الى الكمال .

في الحقيقة ، أن معظم مساحة الأردن الحالية البالغة ٣٧ الف ميل مربع يتلقى أقل

من خمس بوصات من الامطار سنوياً ، وهي من ثم منطقة صحراوية . وهذا راجع الى تحولات مناخية استمرت آلاف السنين ، ولم يكن في مقدور أي جهد بشري أن يوقفها . وقدمت شعوب جريئة ومجدّة مثل الانباط (من العرب الاوائل) والرومان إسهامات بارزة للحضارة الانسانية في أثناء اقامتهم على أرضنا ، قبـل أن يطويهم مسار الطبيعة الذي لا يرحم .

لكن مع قولي لما تقدم ، فان من الخطأ وصف الأردن بأنه مملكة قاحلة من دون أي أمل في تطوره اقتصادياً . فقد استوطن البشر مناطق مثل تكساس وكاليفورنيا ووادي النيل ، وازدهرت الحضارة فيها رغم الصحراء .

حين مُنح اللاجئون الفلسطينيون الجنسية وأصبحت المناطق الجبلية من فلسطين الضفة الغربية من الأردن ، تضاعف عدد سكان الأردن ثلاثة اضعاف ، لكن الاراضي المزروعة لم تزد الا بمقدار الثلث . ومن بين ما يزيد على المليون شخص الذين اضيفوا فجأة الى عدد سكان بلدنا كان نصفهم تقريباً لاجئين «فعليين» اقتُلعوا من وطنهم ووسائل عيشهم : كانوا بحاجة الى عمل . وكان يوجد آلاف من اللاجئين «الاقتصاديين» ،خسروا أراضيهم ، وأعمالهم ، ومؤسساتهم الصناعية : وكانوا بحاجة الى أعمال يديرونها . في الظروف العادية يمكن أن تتحول هذه الاضافة الكبيرة في عدد السكان الى ميزة اقتصادية وزيادة في الانتاجية والقدرة الشرائية ، لكن المشكلة التي واجهت شعبي لم تكن إعادة بناء أصول دمرتها الحرب ، كما حدث في العديد من الدول بعد الحرب العالمية الثانية ، وهي التحول من الحرب الى السلم ، او تحديث مصانع عفا عليها الزمن . بل كانت خلق اقتصاد ، من الصفر تقريباً ، قادر على إعالة حشد كبير من الناس بين ليلة وضحاها . وهي مهمة هائلة وفق جميع المقاييس .

ازدادت صعوبة الموقف ، لأن الاضطرابات الفلسطينية حطمت طرق الاتصال التقليدية التي اعتمد عليها هذا الجزء من العالم طوال قرون عدة . فالتجارة قبل العام ١٩٤٨ كانت تتجه غرباً . البضائع تتدفق على ساحل البحر الابيض المتوسط بموانئه الحديثة ، اضافة الى المطارات والطرق والسكك الحديد الفلسطينية . وفجأة واجه الأردن

تلك المهمة الهائلة ، وإيجاد طرق جديدة للتجارة . ولم يكن علينا اطعام مليون فم جديد وحسب ، بل كان علينا ايضاً شق طرق ، وبناء موانيء ومطارات جديدة ، عمل أجيال كان علينا أن نجمعه في عقد واحد .

اني فخور بالطريقة التي تقبل بها شعبي هذا التحدي وتغلب عليه ، خاصة بالنظر الى العوامل النفسية التي سادت في ذلك الحين ، فالأردن لم يتقبل قط قيام اسرائيل ، التي فرضت «كأمر واقع» على الدول العربية في العام ١٩٤٨ ، وليس ثمة من شيء يمكن أن يعيق جهود البناء الشاملة أكثر من الاعتقاد بأن ذاك الموقف الذي لا يمكن التسامح فيه هو وضع مؤقت .

إضافة الى ذلك ، كان لآلة الحكم ، التي يتعلق بها كل نجاح او فشل ، مشاكلها ايضاً . فقطاع الخدمة المدنية الفلسطيني تحطم ، ولم تكن حكومة الأردن مجهزة لمواجهة الموقف . بدايةً كان علينا دمج أفضل ما في الأردن القديم والحديث ، للضفتين الشرقية والغربية . كان للضفة الشرقية تقاليد أكثر عراقة في الحكم على مستوى صنع السياسة ، حيث أنها تمتعت بالاستقلال فترة أطول ؛ في حين كان لدى الضفة الغربية مفاهيم إدارية اكثر تطوراً ، نظراً لأن فلسطين كانت تفخر بأن لديها أفضل نظام للخدمة المدنية في الشرق الاوسط .

في البداية ركزنا تفكيرنا على مشكلة المواصلات . بعد العام ١٩٤٨ أُقفل في وجهنا الطريق المباشر الى البحر المتوسط ، ولم يعد في امكاننا الوصول اليه الاّ بعد قطع مسافة ٢٢٠ ميلاً عبر سوريا مروراً بجبال لبنان ثم الانحدار في اتجاه بيروت . وعدا عن الصعوبات والتأخير الذي تشتمل عليه عملية عبور الحدود الدولية ، كانت التكلفة بمثابة استنزاف هائل لمصادرنا الشحيحة . وحين توليت العرش ، كانت أولى الصدمات التي تلقيتها هي أن تكلفة نقل واردات النفط جعلتني اتخذ قراراً بإنشاء مصفاة للنفط خاصة بنا .

إضافة الى ذلك ، وافقت تماماً على رأي خبرائنا بأن الأردن لا يمكن أن يزدهر ما لم يكن له منفذ الى ميناء بحري خاص به . وحيث أننا بنينا الطريق الصحراوي الى العقبة

على البحر الاحمر - ٢٢٠ ميلاً من الطرق المعبدة ، التي يسعدني القول إنها أصبحت جاهزة تعمل الآن . وشيدنا ، في الوقت نفسه ، ميناءً حديثاً حسن التجهيز في العقبة ، سمح لنا بالتوسع في صادراتنا ، وخاصة المعدنية منها ، الى المحيط الهندي والشرق الاقصى . وقد اتفق أن في وسع دول عربية أخرى الاستفادة من ميناء العقبة ، خاصة العراق وشمال المملكة العربية السعودية ، نأمل أن يستغلوا وجوده أفضل استغلال .

ليس لدينا سوى خط رئيسي واحد للسكة الحديد ، الذي يمتد من عمان الى رأس النقب ، التي تبعد ٥٠ ميلاً الى الشمال من العقبة . وسيكون انجازاً كبيراً لو استطعنا مده الى مينائنا الوحيد ، وثمة فريق من خبراء السكك الحديد يقومون بدراسة هذه الامكانية . وبالنظر لتعاظم صادرتنا ، فلا بد من مدّ السكة الحديد ذات يوم .

لدينا الآن نحو ٢٠٠٠ كيلو متر من الطرق المعبدة بالاسفلت ، و ١٥٠٠ كيلو متر من الطرق الممهدة . وثمة طريق سريع يربط عمان بالحدود السورية يمر عبر جبال عجلون الجميلة ومدينة جرش التاريخية ؛ وطريق آخر يصل عمان بالقدس ويمر عبر وادي الأردن . الطريق الصحراوي الممتد من العقبة هو مفخرة لفن الهندسة ، وبالصدفة ، فإنه يتبع أحد أقدم طرق التجارة في العالم ، «طريق الملك» الوارد ذكره في التوراة ، والذي رفض شعب «إيدوم» (جنوب الأردن) السماح للاسرائيليين المرور منه .

أحد أحلامي الكبرى كان اقامة مطار دولي في القدس . لدينا الآن مطارين - واحد في عمان والآخر في المفرق - قادرين على استقبال الطائرات النفاثة الحديثة ، لكن طول مدرج مطار القدس لا يزيد عن الفي متر ، والمدينة هي أحد أهم مراكزنا السياحية . والمشكلة الكبرى هي اين يمكن أن تبني مثل هذا المطار . كانت وجهة نظري هي أنه بدلاً من اختيار موقع قريب من البحر الميت في وادي الأردن ، حيث ستؤثر الحرارة الشديدة طوال ايام السنة على راحة المسافرين ، فان علينا تحسين مطار عمان .

قادتني مشكلة المطار بالطبع الى مناقشة صناعة السياحة في الأردن . بصراحة ، أعتقد أننا لم نولِ هذا القطاع اهتماماً كافياً . كان لدينا ميل لاعتبار أن زيارة الاماكن المقدسة أمر مفروغ منه ، من دون أن ندرك بأن باقي العالم غير متنبه لها . معظم الاماكن

المقدسة المسيحية موجود في الأردن والكثير من الاماكن المقدسة الاسلامية ايضاً . في غضون ساعات ، يمكن للسائح أن يشاهد مدينة القدس المسورة ، والقبر المقدس ، وطريق الآلام ، والدرة الفريدة قبة الصخرة . وعلى بعد بضعة اميال الى الجنوب تقع مدينة بيت لحم وكنيسة المهد . وخلال أقل من ساعة يمكن للسائح الوصول الى اريحا ، والتي ربما تكون أقدم مدينة في العالم ، ويزور بئر السبع ، وأن يمر فوق نهر الأردن ، حيث عُمِّد المسيح . بعد ذلك ثمة جبل نبو ، الذي وقف عليه موسى حين نظر الى ارض الكنعانيين . ويمكن للباحثين عن تجربة جديدة الاستلقاء على ظهورهم وتدخين سيجارة وهم يطفون على سطح مياه البحر الميت شديدة الملوحة ، الذي هو اكثر المناطق انخفاضاً في العالم ، ١٢٠٠ قدم تحت سطح البحر . في قلب وادي الأردن يتلألأ البحر الميت وكأنه صينية مصقولة تحيط به جبال مؤاب واليهودية . وحين تشرق الشمس على المغيب يمكن للمرء أحياناً أن يرى في الافق البعيد ابراج جبل الزيتون كخطوط سود مستدقّة تلمع امام الشمس الحمراء .

اذا توغلنا أكثر نرى أماكن لا تقل جمالاً . بالنسبة لي ، فإن أجمل المناظر في الأردن هي مدينة البتراء الوردية . فأنا لا أتعب قط من زيارتها .

تترك الطريق الصحراوي عند معان وتدخل في شارع ضيق الى وادي موسى ، حين يزود مخفر للشرطة الزائرين بإرشادات المرحلة الاخيرة من الرحلة . ومن الضروري امتطاء الخيول والبغال لقطع المسافات التي قد تستغرق ساعة من الزمن والمرور عبر السيق الضيق الذي ضمن لسكان البتراء من الانباط السلامة من غزو الرومان ، في أوج مجدهم ، لمدة امتدت قروناً من الزمن ، بدأت في العام ٣٠٠ قبل الميلاد . ومكن هذا الصدع العميق من الصخر حفنة مترادفة من الرجال من الدفاع عن البتراء ضد جميع الجيوش طوال اربعمائة عام ، الى أن تمكن الامبراطور الروماني تراجان من الاستيلاء عليها في العام ١٠٥ ميلادية . وتنتصب جوانب هذا الممر الضيق المتعرج ، المكونة من صخور رملية بأشكال وألوان في غاية الروعة ، على شكل جرف شديد الانحدار يرتفع مسافة تصل الى ٣٠٠ قدم ، وتذكرنا قناة للماء منحوتة من الصخر أن الماء كان المشكلة الكبرى لهذه المدينة

القديمة ، والدفاع عنه ضروري مهما كانت التكلفة .

الضريح الرائع الاول في المدينة المنحوتة من الصخر يظهر فجأة في ضوء الشمس الساطعة . ولونه أحمر وردي ، مازال يحتفظ برونقه في الصخر وينبض بالحياة بشكل لا يصدق ، لكن ذلك ليس سوى بداية تشكيلية رائعة من المعابد ، والقصور ، والكنائس ، والاضرحة ، وخزنة البتراء التي ليس لها مثيل .

الآن وبعد فتح الطريق الجديد ، يمكن للمسافرين ، الذين ليس لديهم وقت ، القيام بالرحلة من عمان الى البتراء والعودة خلال يوم واحد ، رغم أن القيام برحلة شاملة يتطلب ما بين اربعة ايام الى خمسة . الرحلة بالسيارة الى معان ، التي كانت تستغرق ست ساعات ، يمكن القيام بها الآن بأقل من ثلاث ساعات . وبالنسبة للذين يرغبون في تذوق الصحراء الحقيقية ، فان زيارة العقبة ستكشف لهم كل ما فيها من متعة .

يمر الطريق الصحراوي عبر واحدة من أكثر المناطق قفراً في الشرق الأوسط . وهي المنطقة التي لاحق فيها لورنس ، مع القوات العربية ، الاتراك في الحملة التي طردتهم من العقبة الى الشمال .

عاصمة بلدنا ، عمان ذاتها (التي كانت تدعى فيلادلفيا في العصور اليونانية - الرومانية) فيها مدرج روماني رائع ، في حين تضم مدينة جرش الرومانية القديمة الى الشمال من عمان ، على طريق السيارات الجديد الواصل الى الحدود السورية ، بقايا واحدة من أكثر المدن الرومانية الاقليمية كمالاً في العالم .

تلك اسماء مألوفة للحضارة الغربية ، مع تداعيات توراتية معروفة للجميع منذ الطفولة . وهي منطقة تجعل الأردن بلداً لا مثيل له في العالم - حتى وإن لم يوفر له ذلك مكاسب اقتصادية . وفي حين حققت اليونان وايطاليا مكاسب هائلة ، تتزايد باستمرار ، من السياحة ، فان الأردن بالكاد استغل إمكاناته ، وأعتقد أنه حين يبدأ برنامجنا السياحي بالعمل فعلاً وبالشكل الصحيح (سوف نفتتح قريباً مكاتب في عدد من المدن الرئيسة) فان الدخل من السياحة سيضاهي عائدات النفط الهائلة للدول العربية الاخرى .

لا شك في أن جميع السياح ليسوا معنيين بالمعالم الدينية والتاريخية ، وفي هذه الناحية ايضاً ، فشل الأردن حتى الآن في الترويج لأحد أهم مرافقه السياحية : المشاهد الرائعة والمتنوعة والتغيرات المذهلة في مناخه ضمن مسافات قصيرة . في الشتاء حين يلف البرد مدينة القدس وتكون الحاجة ملحة للتدفئة ، يمكنك خلال نصف ساعة أن تصل بالسيارة الى وادي الأردن وتسبح . في عمان ، حيث ساعدت مرات عدة سائقي السيارات على الخروج من أكوام الثلوج المكدسة ، يمكنك الوصول في غضون ساعة بالسيارة الى البحر الميت ، او الطيران الى شواطىء العقبة الدافئة . في المناطق الجبلية مثل عمان والقدس ونابلس ورام الله ، الامسيات باردة دائماًحتى حين يكون الطقس حاراً . ويمكن للأردن أن يوفر لك الطقس الذي ترغب طوال ايام السنة .

أحد الاحلام العزيزة لدي هي أن أرى جميع اولاد الأردن وبناته في المدارس وقد تحقق هذا الحلم تقريباً . لقد بدأنا برنامجاً تعليمياً كاملاً حيث يقوم العديد من المدارس الثانوية باعطاء تدريب مهني في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة للطلاب الذين أنهوا دراستهم الابتدائية . قبل عشر سنوات كان عدد الطلبة الأردنيين الذين يدرسون في الخارج نحو مئة طالب . اما اليوم فيوجد سبعة آلاف طالب اردني يدرسون في مختلف جامعات العالم . والعدد يرتفع باطراد سريع . وسوف يأتي اليوم الذي نؤسس فيه جامعاتنا الخاصة ، ربما في القدس .

تبين الارقام بشكل افضل مدى التقدم في مجالات التعليم . في السنة المالية ١٩٥٠ – ٥١ انفقنا ١٤١,٧٤٩ جنيهاً استرلينياً على التعليم ،لكن في موازنة العام ١٩٦٠ – ٦١ وصل الرقم الى ٢,٨٥٧,٠٠٠ جنيه استرليني .

في مجالات الصحة العامة ، تضاعفت المخصصات اربع مرات خلال عقد من الزمان من ٢٤٠,٧٤٤ جنيه استرليني في العام ١٩٥١ الى مليون جنيه استرليني في العام ١٩٦١ . الملاريا التي كانت من الامراض المستوطنة ، خاصة في وادي الأردن ، جرى القضاء عليها فعلياً . اعداد المستشفيات تتزايد والاطباء يتزايدون في كل عام .

جميع قطاعات مجتمعنا تبذل جهوداً للتقدم . آخر مسح للسكان ، في العام ١٩٥٩ ،

أظهر تقدماً كبيراً عن المسح السابق الذي جرى في العام ١٩٥٤ : فقد ارتفع الدخل القومي بمقدار ٦٠ بالمئة ؛ وتضاعف الانتاج من التعدين والتصنيع ، واعمال البناء بمقدار أربعة أضعاف ؛ والمواصلات ازدادت بمقدار ١٢٠٪ ؛ تجارة الجملة والمفرق بمقدار ٨٪ ؛ الادارة الحكومية والدفاع بمقدار ٧٧٪ ؛ الخدمات بمقدار ١٠٠٪ ؛ والسلع والخدمات المتوفرة داخل المملكة ازدادت بمقدار ٧٥٪ من ٧١ مليون جنيه استرليني الى ١٢٤ مليوناً ، او ما يقارب ٧٠ جنيهاً للفرد الواحد .

الانفاق على الاستهلاك والسلع الرأسمالية الانتاجية ازداد من نحو ٦٥ مليون الى ١١٦ مليون جنيه خلال الفترة نفسها . الاستهلاك الشخصي ارتفع بمقدار ٧٣٪ ؛ ونفقات الحكومة الجارية بمقدار ٩٠٪ ؛ الرأسمال الخاص الثابت تضاعف ست مرات تقريباً ؛ أما رأسمال الحكومة الثابت فازداد بمقدار ضعف ونصف الضعف ؛ الصادرات ازدادت بمقدار ٤٤٪ ؛ والواردات تضاعفت من ٢٠ مليون جنيه استرليني الى ٤٣ مليوناً .

من الصفات التي لا تقدر بثمن في الانسان تطلعه الدائم الى حياة أفضل . والانجازات التي تحققت حتى الآن ليست سوى البداية . وحيث أن المستقبل هو ما يهم ، ففيما يأتي الاشياء التي آمل أن يحققها الأردن خلال العقد القادم .

قبل بضعة أشهر ، بدأت سلسلة مما أدعوه ، وسوف أستخدم هنا عبارة الرئيس الراحل روزفلت ، «احاديث الى جانب المدفأة» . وتدور جميع هذه الاحاديث حول موضوع واحد . هو : «فلنبن هذا البلد ولنخدم هذه الامة) . وهدفي من هذه الاحاديث هو إلهام شعبي إنشاء دولة عربية نموذجية ، وأن نصنع لانفسنا نوع الحياة التي كنا نتطلع اليها حين تخلصنا من نير الاتراك وبدأنا اليقظة العربية .

بدايةً ، وضعت الحكومة بالتعاون مع مؤسسة فورد خطة خمسية لتطوير مصادر البلد بشكل أكمل ، ووافق عليها وشجعها خبراء دوليون في مؤتمر عقد في الأردن مؤخراً . وتطمح الخطة الى مضاعفة دخلنا القومي خلال عشر سنوات وتقليص الفجوة في الميزان التجاري بحيث لا تزيد عن الاستثمارات المطلوبة للبلد . ومن المفترض أن يوفر هذا التوسع الاقتصادي العمل للجميع تقريباً ، رغم أننا نتوقع زيادة في عدد السكان مقدارها نصف مليون نسمة بحلول العام ١٩٦٩ .

ومن المتوقع أن تكلف هذه الخطة ٤٠ مليون دولار سنوياً لمدة خمس سنوات ، تحول من القطاعين العام والخاص ، وتشمل التوسع في انتاج الفوسفات ، الذي يجري العمل فيه حالياً ، ويحتمل أن يصل الى ٢ مليون طن في العام ١٩٧٠ (يمتلك الأردن مصادر لا تنضب من الفوسفات عالي النوعية ، وهو أحد المكونات المهمة لزيادة انتاج الطعام لسكان العالم الذين يتكاثرون بسرعة مذهلة) . كما نخطط لاستغلال أملاح البحر الميت ، بما في ذلك استخراج ٢٥٠ الف طن من البوتاس قبل العام ١٩٦٥ ، والبرومين ، والمغنيسيوم ، والماء الثقيل - اذا ضمنا سوقاً له - ومنتجات جانبية اخرى .

لن أسهب في الحديث عن الصناعات العديدة ، خاصة المتوسطة والصغيرة منها ، التي تجري دراستها الآن لهذا البرنامج ، لكنني اود الاشارة الى خطط الري ، خاصة في وادي الأردن . فبفضل الطقس نتمتع بامتياز فريد لانتاج الفواكه والخضروات خلال فصل الصيف .

أعظم آمالي كلها مشروع نهر اليرموك في وادي الأردن ، والذي يمكن أن يروي ١٥٠ الف فدان من الاراضي ويزيد الدخل القومي بمقدار ٢٠ مليون جنيه استرليني سنوياً ، وينتج كمية كبيرة من الطاقة الكهربائية للاستخدامات الزراعية ، والصناعية ، والمنزلية . وتبلغ التكلفة الإجمالية للمشروع ٤٩ مليون جنيه استرليني . اسمحوا لي أن أشرح باختصار كيف تبلور هذا المشروع صدفة في ذهن خبير أميركي لامع في مجال المياه .

اليرموك هو أحد فروع نهر الأردن ويتدفق عبر الأردن وسوريا باستثناء ستة أميال يمر فيها داخل المنطقة الحرام الفاصلة بين الأردن واسرائيل . في أحد ايام العام ١٩٥١ ، كان السيد ميلز بنجر ، مدير فرع المياه في فريق النقطة الرابعة الاميريكي في الأردن ، يحلق بالطائرة فوق نهر اليرموك . ورأى من خلال فرجة في الغيوم ، نقطة تصب فيها ثلاثة جداول صغيرة في اليرموك . تحت تلك النقطة كان الوادي يضيق ويزداد عمقاً . أدرك بسرعة انها نقطة ممتازة كموقع لسد : حيث يمكن الاحتفاظ بمياه اليرموك في خزان جوانبه ضفتي الوادي شديد الانحدار . ذهب الخبراء الى المنطقة ، وتدعى المقارن ، وأكدوا انطباعاته الأولية . وولد مخطط سدّ ارتفاعه ٤٨٠ قدماً يمكن أن يزود الأردن وسوريا

بالطاقة الكهرو- مائية . واجتمع رؤساء الحكومة الأردنية ، والاونروا والنقطة الرابعة معاً للتشاور .

الميزة الكبرى للسد (بالنظر لعلاقتنا مع اسرائيل) هي أن الخزان سيقع بكامله داخل الاراضي العربية . كانت الاونروا سعيدة به لأن الأمم المتحدة فوضتها بانفاق ٢٠٠ مليون دولار على إعادة تأهيل اللاجئين الفلسطينيين فخصصت على الفور مبلغ ٤٠ مليون دولار للاسهام في تكاليف السدّ . أنهت فرق الخبراء الثلاثة مسوحاتها الأولية بسرعة مضاعفة ، اسهمت حكومتي بحصتها مع الآخرين . وكما قال أحد الكتاب : «للمرة الأولى منذ العام ١٩٤٨ يسود المملكة الأردنية الراهنة شعور حقيقي بالامل والتصميم» .

وعد الخبراء انه في غضون ثلاث سنوات سيتمكن أكثر من مئة الف أردني من السكن والعيش في المنطقة . عقدنا اتفاقاً مع سوريا وبدأنا في تجنيد اللاجئين للعمل فيه .

ثم في خريف العام ١٩٥٣ ، وبعد عامين من العمل المضني والأمل ، اعترضت اسرائيل لدى واشنطن والأمم المتحدة : لأنها تفضل خطة تعود بالنفع على جميع دول المنطقة . حتى أنها طالبت بحصة من مياه اليرموك . الذي لا يصدق أن العالم الحر ساند هذا الافشال لمشروع داخلي محض ، والذي كان من الممكن أن يوفر ، ومنذ العام ١٩٥٦ ، لمئة الف لاجيء او اكثر ممن فقدوا بيوتهم بسبب الاسرائيليين سبل كسب معاشهم ويعيد اليهم كرامتهم .

بالمناسبة ، أود أن أضيف لإفادة من ينظرون الى تقدم اسرائيل كمعجزة عصرية «جعلت الصحراء تزدهر» أنه ، عند مقارنة ما حققناه من تقدم مع ما حققوه ، أن نأخذ بعين الاعتبار بعض الاحصاءات . من مصادر الاعانات الاجنبية ، فخلال الفترة من عام ١٩٤٨ وحتى اليوم ، تلقت اسرائيل ٢٢٠٠ مليون دولار في حين تلقى الأردن ، وخلال الفترة نفسها ، ٤٠٠ مليون دولار ، علماً بان في البلدين العدد نفسه من السكان تقريباً .

إنني على قناعة تامة بأن تردد العالم الغربي حول مشروع نهر اليرموك كان خطأً فادحاً في الحكم على الأمور . لأنه أنكر على الأردن شريان حياة رئيسي . كما قال السيد

فيليب تالبوت ، مساعد وزير الخارجية الاميركية لشؤون الشرق الادنى وشمال افريقيا للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ في آب من عام ١٩٦١ : «من المرغوب فيه اجراء المزيد من التطوير في نهر اليرموك ، لأن ذلك سيزيد مساحة الاراضي المزروعة في الأردن» .

وأضاف السيد هنري لابويس ، مدير ادارة التعاون الدولي ، الى هذا القول : «لو أمكن ري وادي الأردن كله ، بضفتيه الشرقية والغربية ، لاتيحت سبل العيش لاكثر من ١٢٥ الف نسمة ، وهو رقم يزيد عن عدد من كانوا يقطنون الوادي في ذلك الحين – لو استكملت العملية كلها» . لكنه خلص الى القول ، إن القيام بذلك يتطلب اتفاقاً سياسياً ما بين اسرائيل والأردن والجمهورية العربية المتحدة ولبنان ، وأضاف : «للهندسة أهمية كبرى ، لكن القضية الاساسية هي في الحقيقة سياسية» .

لكن هل هي قضية سياسية؟ بالنسبة لي القضية واضحة تماماً . الأردن يتطلع الى استغلال مياهه ، التي لا ينكر أحد ملكيته لها ، وأن يخزن فائض المياه بأمان داخل اراضيه . وهذا يمكن عمله ، وآمل بحرارة أن يعطي المهتمون باستقرار هذه المنطقة المشروع اهتماماً جدياً مستعجلاً ، خاصة بعد أن اعلنت اسرائيل نيتها تحويل مجرى نهر الأردن بحلول العام ١٩٦٣ ، رغم كل المبادىء المنصوص عليها في القانون الدولي .

١٩

١٩٦١- زواجي

منزل حقيقي للمرة الاولى في حياتي

قررت أن اختتم سيرة حياتي التي عشتها حتى الآن بالحديث عن زواجي من منى الحسين ، والسبب هو الاثر الكبير الذي كان له على حياتي ، وليس وضع نهاية سعيدة لهذا الكتاب كما في الامثال . والسبب الآخر أنه خاتمة مناسبة لقصتي ، فالصفحات السابقة مليئة بالمآسي واراقة الدماء . ومن المريح الآن الالتفاف الى الجانب المشرق من القصة - والى المستقبل .

قبل زواجي ، لم تكن حياتي الشخصية فارغة ، كانت مليئة بالاشياء التي تشغلني عن نفسي . شغلتني الواجبات والمسؤوليات طوال معظم ساعات أيامي كلها . لكن حين ينتهي يوم العمل ، كنت اعرف مثلي مثل اي رجل حيّ ، ملل الوحدة ، وحتى تعاستها ، فحياتي ، على أية حال ، لم تكن مثل حياة أي شاب عادي . الأزمات التي هددت حياتي وبلدي ، الهجمات المتصلة من اعدائي ، ووقوفنا منفردين في الشرق الاوسط العربي ضد الشيوعية ، والخيانات المتتابعة من أناس كنت أعلق عليهم امالاً كبيرة - كل هذه الأمور تآمرت على تحويلي الى ما لا أرغب في أن أكونه : رجل معزول . أصبحت عصبياً سيء المزاج وحاد الطبع . وبدلاً من أن أعمل بإلهام ، كان خطر الضياع وسط التيار يحف بي ، وأخشى على الدوام من انني اذا قمت بأي شيء من دون تفكير أن يقود ذلك الى قرارات لا تعكس مشاعري الحقيقية . في الواقع أني بدأت أخشى اتخاذ القرارات والشك في حكمي على الامور ، وبدا كأني غير قادر على النظر الى مشاكلي بتجرد .

طوال سنوات عودت نفسي على أن أكون دبلوماسياً ، أن أبتسم حين لا أشعر برغبة في الابتسام ،وأنوان أساعد حتى الاشخاص الذين لا أؤمن بهم لان السياسة تتطلب ذلك . اما الآن فقد بدأت أتجنب الناس . وبات عليّ أن أجبر نفسي على الاختلاط

اجتماعياً بالناس من خارج أفراد عائلتي .

كنت في الخامسة والعشرين من عمري وأصغر من أن أصبح انطوائياً . الاّ أن هذه المشكلة نشأت بسبب أمرين متضادين . كنت بحاجة الى أصدقاء أكثر من حاجتي الى معارف ، لكن من الصعب على ملك حاكم في الشرق الاوسط إيجاد اصدقاء مقربين . والأفراد أكثر صعوبة بالنسبة لشخص تولى السلطة في سن مبكرة مثلي . لدي عدد قليل من الأصدقاء الشخصيين ، لكن كان عليّ أن أحذر من الإكثار من مقابلتهم . لم يكن في وسعي أن أُلازم أية جماعة من الناس ، خوفاً من التسبب في تعقيدات وشكوك وتآمر . ووصلت في النهاية الى مرحلة لم أرغب فيها الاختلاط بأحد ، حتى أني بت أتجنب الصداقات الحقيقية . كنت صديق جميع الأردنيين ، اما الصديق الشخصي الحقيقي ، فلا وجود له تقريباً .

كم يختلف اليوم عن الامس! حدّة الطبع ، كما قيل لي ، انتهت . أُحس الآن بالراحة ، والسعادة . أصبح لديّ بيت ، وبعد بضعة أشهر من الزواج تدهشني الطريقة التي تعلمت فيها كيف أسترخي .

كانت توجد انتقادات في الخارج لزواجي من فتاة غير أردنية . ورأى الكثيرون أن هذا الزواج يوفر لأعدائي فرصة إثارة المشاكل ضدي . مهما تكن أوجه اعتراضهم ، لم أكن خائفاً من النتائج ؛ وحتى لو كنت ، فان ذلك ما كان ليغير شيئاً . فقراري لم يكن مبنياً على حب عميق للفتاة التي ستصبح زوجتي وحسب ، بل على تصورات أساسية لن أحيد عنها ابداً .

فوق كل شيء ، أنا أؤمن بالله ، وأؤمن ايضاً أن عليّ التعايش مع نفسي ، وأن أكون قادراً على مواجهة نفسي في كل صباح والقول : «لقد بذلت قصارى جهدي في الأمس ، وسوف أبذل قصارى جهدي اليوم ايضاً» . وعلى كل رجل ، أياً كان محتده ، رفيعاً أم وضيعاً ، الواجب اليومي ذاته في الأسهام في خير البشرية .

لدي فلسفة بسيطة حول الحياة والموت . فمن السهل أن توهب الحياة للمرء ومن السهل أن تنتهي! من هو الشخص الذي يستطيع اضاعة الوقت؟ ففي أية لحظة قد

يفاجئنا الموت ، وحين يحدث ذلك ، فان الموت ذاته غير مهم . الشيء الوحيد المهم هو العمل الذي أنجزه المرء .

قد أضيف لعقيدتي هذه في الحياة معتقداً آخر . أؤمن من كل قلبي بأنه كي يعطي المرء أفضل ما عنده ، عليه أن يحيا الحياة الاساسية للشخص العادي . فليس في وسع المرء الاختباء خلف اللقب او العرش . يمكن للمرء أن يفخر بمسؤولياته ، مثلي ، لكنه لا يستطيع استخدام المنصب كدرع . لن أعمل قط من أجل بناء سمعة لي ، تعطيني شعبية سطحية . مهمتي هي أن أقود بلدي من خلال خدمتي له . وأنا أؤمن بصدق أن زواجي سوف يساعدني بقدر كبير في كفاحي لإزالة الحواجز بين الناس العاديين في بلدي وبيني ، وعلى معرفتهم بشكل أفضل ، وأن أفهم بوضوح ما يريدونه ، كي أتمكن من خدمتهم بشكل أفضل .

أردت الزواج قبل فترة طويلة من لقائي منى الحسين . لم يكن زواجي السابق ناجحاً ، وكنت أعرف نفسي بما يكفي لأُدرك أن السعادة لا تكمن في اختيار فتاة ذات مرتبة او لقب . تطلب الأمر مني فترة طويلة للوصول الى قناعة عاهدت نفسي فيها أنني اذا تزوجت مرة أخرى فلن أتزوج إلا فتاة أستطيع أن ابني معها حياة خاصة سعيدة . من دون أن أهتم من تكون او من أي بلد جاءت . كل ما أريده إنسانة يمكنني أن أحبها . وسوف أتزوجها إن وجدتها ، فإن لم أجدها ، فسوف أبقى أعزباً ، لا ني أقسمت الا أسمح لأي عوامل أخرى أن تؤثر على اختياري لزوجتي . واذا ما تساهلت في مسألة زواجي فسوف أكون كمن يخدع نفسه .

أنا فخور جداً بزوجتي . قابلتها لأول مرة قبل سنة من زواجنا ، لكننا لم نر بعضنا كثيراً في الاشهر الاولى ، الا في بعض المناسبات الرسمية العارضة . كان اللقاء الاول في حفلة غير رسمية دعوت اليها في منزلي الشتوي في الشونة ، قرب البحر الميت . لا أقول إني وقعت في حب منى على الفور ، الاّ أن ذلك اللقاء مهد لما حدث بعد ذلك ، فللمرة الاولى في حياتي أجد فتاةً تهتم بي شخصياً كإنسان وليس كملك . مما أثر فيّ بعمق . في حياتي ، كثيراً ما كنت أرى أشخاصاً يضحكون بحبور في الجانب الآخر من

الصالة ، لكن ما أن يقدموا لي حتى تختفي العفوية وكأن ستاراً قد رفع بيني وبينهم . منى ،كانت فتاة في التاسعة عشر من عمرها ، ومع احترامها لمرتبتي ، لكن من الواضح انها أُعجبت بي لشخصي وقررت أن تعاملني وكأني شخص عادي . بصراحة ، لم أفاجأ ، لأني كنت أعرف والدها معرفة جيدة . كان عقيداً في سلاح الهندسة (وكان فيما بعد من أوائل من وصلوا حين نسف المبنى الذي قتل رئيس وزرائي في العام ١٩٦٠) . أحببت بساطة العائلة والطريقة غير المتكلفة التي تعيشها .

صرت التقي منى باستمرار ، وكان إعجابي بها يتزايد بعد كل لقاء ، وكان معظم هذه اللقاءات يجري في مناسبات رسمية . لم تكن عاطفة تفجرت فجأة . ثم بدأت أتصل بها بنفسي لدعوتها لعرض سينمائي في القصر مع والدتي والعائلة .

كان نادي عمان «للكارتنغ» هو في الحقيقة ما قربنا الى بعضنا بشكل غير رسمي . وهو نادٍ خاص لا يزيد أعضاؤه عن ١٦ شخصاً ، كنا نتسابق هناك مساء أيام الجمعة . وكانت منى وعائلتي تأتي للتفرج والمساعدة في توقيت السباقات ، وما الى ذلك . في أحد الايام سألتها : «هل تحبين قيادة احدى سيارات الكارتنغ؟»

ردت عليّ : «لا استطيع القيادة!»

قلت : «سوف أعلمك» . ولم يمضِ وقت طويل حتى اصبحت منى تشارك في سباق السيدات . بعد ذلك أصبحنا نلتقي مساء كل يوم جمعة في النادي . كانت المشاركة في سباقات الكارتنغ لمدة ساعتين كل اسبوع مصدر راحة لي . في الايام الاولى لتولي العرش كنا نقوم بسباقات السيارات وتسلق التلال مع اللبنانيين ، لكنها كانت خطرة بعض الشيء . كما أن الوقت تغير ، فقد بدأت المشاكل ولم تعد ثمة فرصة للاستمرار بها . لكن ، في العام ١٩٥٩ ، حين عدت من الولايات المتحدة ، وجدت ان عدداً من الهواة ، ومن ضمنهم رينور ، قد أسسوا نادياً صغيراً للكارتنغ ، واستوردوا على عجل بعض السيارات من انجلترا ، وحين رأيت رينور يبدد وقته على هذه الالعاب التي تبدو صبيانية ، إنزعجت للغاية حتى أنه اوصى على واحدة منها لي ، وأذكر أن رد فعلي عليها كان : «ما هو بالله عليك هذا الكارتنغ؟»

عُينت رئيساً للنادي في أثناء غيابي ، وهو منصب وافقت في النهاية على توليه حين ألح بعض الأعضاء الماكرين قائلين : «حين نتسابق بالسيارات تتفوق علينا بسيارتك الاقوى . اما سيارات الكارتنغ فكلها متشابهة . الآن السائق هو المهم!» كان ذلك تحدياً لم أستطع مقاومته . جربت واحدة . وفي لحظة كنت أهدر بهاحول المكان . وعدت الى المرآب صارخاً : «رينور ، إنها ليست سيئة ، متى سنبدأ السباق؟»

كان ذلك بداية الكارتنغ في عمان . ونحن نتسابق بها يوم الجمعة من كل أسبوع وقد أحبته زوجتي بقدر ما أحببته .

بعد أن قضينا بضع أُمسيات نتسابق ، سألتني منى (او توني كما كانت تدعى) : «هل تحب أن تأتي لتناول الشاي مع أمي وأبي؟»

سألت : «هل يعرفون أني قادم؟» لاني كنت أخشى أن تتحول الى زيارة فيها الكثير من الرسميات والتكليف .

أجابت : «كلا ، لم أخبرهم لكنني متأكدة أن لا بأس .»

هذا ما أردت سماعه . وحين ذهبت لتناول الشاي لم تحاول التغطية على أي شيء . لم تخجل من أن أباها ، وهو رجل شجاع للغاية ، لا يسكن في منزل كبير كالذي أسكنه . والأهم من ذلك ، أنها لم تحاول توضيح سبب ذلك . من جهتي ، أحببت على الدوام البيوت الصغيرة وكنت أشعر بالراحة فيها .

قدت السيارة مع منى الى بيت أهلها حيث تناولنا شاياً انجليزياً حقيقياً . وقدمت السيدة غردنر الساندويشات و «الكيك» ، وكان الشاي ساخناً قوي النكهة . أدركت فجأة أنني راضٍ وسعيد . لم يحدثوا هرجاً ومرجاً لقدومي . كنت وكأني في إجازة ، ضحكنا واسترخينا وقضينا وقتاً ممتعاً . وحين حانت لحظة المغادرة وعدتهم بالعودة ثانية .

كان قد مضى على معرفتي بمنى عدة أشهر الآن ، وحين عدت الى المنزل في تلك الليلة ، كنت احس في قرارة نفسي انه مقدر لهذه الفتاة أن تصبح زوجتي . ومرت في خاطري المضاعفات السياسية الممكنة بسرعة ، الا أنني استبعدتها .

لم أر منى طوال أسبوع كامل ، لكنني اكتشفت خلال ذلك الوقت انها قضت الكثير

من وقتها تعمل في مركز للرفاه الاجتماعي لمساعدة الامهات والاطفال الصغار . كان لديها اهتمام بالأردن اكبر بكثير مما تصورت . وقد أسعدني ذلك . أُحب الناس الذين يعملون . أؤمن بأن على الملك والعامل أن يكدحا في كل يوم ، وانا احب النساء اللواتي يهتممن بعمل الرجل ويرغبن في مشاركته فيه .

في الاسبوع التالي عدت الى عائلة غردنر لمزيد من الشاي والكيك ، والمزيد من المرح والضحك . مرة أخرى عدت الى القصر وحيداً وفكرت في الزواج . لم أقل كلمة واحدة لأي شخص حول الموضوع ، لكن في تلك الليلة كنت قد اتخذت قراري . استعرضت الاعتراضات التي قد أواجهها ، والصعوبات التي يتوجب عليّ التغلب عليها ، وأذكر انني قلت لنفسي : «عليّ أن أقوم بذلك ، واذا خذلت نفسي هذه المرة فسوف تكون بداية لخذلان كثير في المستقبل .»

في مساء اليوم التالي تناولت العشاء مع والدتي في قصر زهران . وكانت علاقتي بها قوية دائماً . بالطبع ، أردت أن أتحدث معها أولاً . وحين انتهينا من تناول العشاء ، قلت لها : «الجميع يحاولون حملي على الزواج والاستقرار . عندي مفاجأة لك ، أريد أن أتزوج ، وأتصور أنك تعرفين ممن .»

إبتسمت والدتي وقالت : «هل هي الأنسة غاردنر؟»

سألتها : «هل توافقين؟»

ضمتني والدتي وقالت : «بالطبع أوافق . أنت تعلم ياولدي ، أني اردت لك الزواج منذ فترة ، وانا سعيدة انك ستتزوج فتاه تحبها ، فمدى حبك لها واضح .» لا بد من الاشارة إلى أن والدتي قابلت منى مرات عدة على مائدة العشاء وفي سينما القصر . وكنت أعلق أهمية كبيرة على حكمة والدتي ، وفرحت حين سمعتها تضيف : «لاتقلق لأية معارضة . أهم شيء في الحياة هو السعادة . أعرف انك لم تحصل على الكثير منها ، ويهمني أن تكون سعيداً الآن . ولن تحقق السعادة قط إن تزوجت فتاة لاتحبها .»

في الليلة التالية طلبت من منى أن تتعشى معنا . حضرت في نحو الساعة السابعة . كنت منفعلاً الى درجة أني لا أتذكر ما كانت ترتديه . انتظرت حتى انتهينا من العشاء ،

ثم سألتها : «أود التحدث اليك ، هل تأتين معي الى الغرفة المجاورة؟»

جلسنا على مقعد طويل تحدثنا لوهلة قصيرة في أشياء لا أتذكرها . ثم قلت : «لا بد أنك تعرفين ما سأطلبه منك؟»

فردت بهدوء : «أعتقد اني أعرف .»

«ما رأيك بالموضوع؟»

لم تتفوه بكلمة ، بل هزت رأسها موافقة .

حذرتها ، «لن تكون حياة سهلة ، تعلمين ذلك ، فحياتي ليست حياة يمكن أن أطلب من فتاة مشاركتي فيها . لا بد أنك تدركين انها غير مضمونة وخطرة .»

قالت : «هل تريد أن تتزوجني حقاً؟»

«كنت أريد طلب يدك للزواج منذ مدة طويلة . في البداية اعتقدت أن ليس من الإنصاف طلب ذلك ، لكن بالنظر للشعور الذي أحمله تجاهك ، أعلم أننا يمكن أن نُسعد معاً . أمر واحد أبقاني صامتاً كل هذه المدة . وهو ليس حاجز حقيقي ، لأننا نحمل المعتقدات ذاتها ونؤمن بالله ، انا مسلم ، هل فكرت بذلك؟

ردت : «أفهم ذلك ، لقد فكرت باعتناق الاسلام منذ مدة . أعلم أن معتقداتنا متشابهة . أنا أصلي لله لجعل حياتي طيبة ومفيدة .»

«علينا أن نعطيك اسماً عربياً .»

ضحكت قائلة : «اعتقد ذلك ، سيكون الامر مضحكاً الحصول على إسم جديد وانا في هذا السن . ماذا سيكون؟»

ضحكت أنا ايضاً وزال التوتر .

أجبت : «حسناً لا أعرف ، علينا أن نفكر قليلاً بالامر ، ومن الافضل أن تبدأي بصقل لغتك العربية!»

أعدتُ منى الى البيت وأخبرت أمي أنها قبلت بي . ثم اتصلت برئيس الوزراء وطلبت منه الحضور الى القصر .

حين أخبرت رئيس الوزراء بالامر قال : «أنا سعيد للخبر يامولاي ، أنا سعيد للغاية» ، ثم فكر ملياً وأضاف : «أعلم أن ثمة بعض الصعوبات ، كما تعلمون ، وقد ذكرتم بعضاً منها انتم نفسكم . لكنني لا أعتقد أن ثمة داعٍ لقلقكم . مولاي ، سعادتكم تعني الكثير لعائلتكم الأردنية . اذا علم الشعب انكم وجدتم سعادتكم فلن يخذلكم ابداً .»

لم نعلن النبأ لفترة من الوقت ، وعم الابتهاج الشعب حين اذعت النبأ وقلت له : «انا سعيد للمرة الاولى في حياتي .»

قضيت الليل مع والدتي في قصر زهران ، وفي صباح اليوم التالي اتصل بي رئيس ديواني : «المئات من الناس في القصر ينتظرونكم لتهنئتكم . مولاي ، هل يمكنكم الحضور؟ فنحن نجد صعوبة في السيطرة عليهم . لم أر شيئاً كهذا ابداً .»

أجبته : «ساحضر على الفور .» لكن قول ذلك كان أسهل من فعله . في الشارع الرئيسي في عمان أوقفني حشد هائل من الناس حاولوا رفع سيارتي الرياضية على أكتافهم .

في البداية ، كان من الصعب عبور الشارع الذي سدته وجوه صديقة تتمنى لي الحظ الطيب .

الاستقبال الحار الذي لقيته في ذلك الصباح كان مختلفاً تماماً عن التوقعات الفائرة التي اطلقتها بعض المدن الاجنبية ، التي كانت بحاجة الى مزيد من الوقت حتى تهضم النبأ . كنت أعرف بالطبع أن الكثيرين كانوا يأملون أن أتزوج زواجاً سياسياً ، او من فتاة من عائلة حاكمة ، وأن أعدائي سينتهزون الفرصة لاستغلال الموضوع اعلامياً . إعتنقت منى الاسلام وأصبحت مواطنة أردنية بمجرد إعلان الخطوبة ، لكن العالم مليء بالاشخاص الذين لا يفعلون شيئاً سوى ايقاع الاذى بالناس ، فسرعان ما بدأ بعض العاملين في الصحافة بإرسال تقارير تحوي الكثير من المبالغة الى صحفهم . أعلم أن من المستحيل إفهام الجميع وجهة نظرنا ، ورغم ذلك صعقت للتقارير التي تتحدث عن فورات غضب ونزاع سياسي بدأت تظهر في لندن وواشنطن .

والامر الأشد سخافة ، التقارير الصحفية التي قالت انني هددت بالتنازل عن العرش

إن لم يحدث الامر . وهو أبعد ما يكون عن الحقيقة . كما أن الاقاويل التي أوحت بأن التوتر الذي ساد بين مواطنيّ أجبرني على حجب لقب الملكة حين تزوجت منى . الحقيقة مختلفة تماماً . عليّ أن أعترف باني أفكر بمسألة لقب منى . فأنا لست شخصاً يفكر كثيراً بالالقاب . ورغم ذلك فما الذي يمكن أن تدعى به زوجة الملك؟

قبل يومين من الزواج ، سألتني منى : «هل تذكر أنك اخبرتني ذات مرة أنك تفضل أن يدعوك الشعب «حسيننا» وليس «الملك حسين»؟ لقد فكرت ، سنشارك بعضنا الحياة والمسؤوليات . أنا ايضاً احب أن يدعوك الناس «حسيننا» . هل تعتقد بان الشعب سيدعوني في يوم من الايام «منانا»؟»

«بالطبع سيدعوك ، لماذاتسألين؟»

«حسن ، انت تعلم» قالت بعد تردد ، وكأنها تفكر بصوت عالٍ ، «ألن يكون سخيفاً لو قلت إنني لا أريد حقيقة لقب ملكة؟»

لا أعتقد أنني كنت فخوراً بها كما كنت في تلك اللحظة . كان ذلك يناسب معتقداتي الى درجة لم أكن احلم بها . فتيات كثيرات كن مستعدات لفعل أي شيء في العالم مقابل اللقب!

سألتها إن كانت تعني ما قالته فعلاً ، فأكدت لي ذلك . قلت لها : «حسناً إن كانت هذه رغبتك فسأفعل كما تريدين .» جلست في تلك الليلة مع منى ودبجنا رسالة الى رئيس الوزراء ، تلقاها قبل يوم من الزفاف . صعق الكثيرون من أبناء الشعب للانباء ، ولم يكن ثمة داع لأن يصعقوا . وكما أخبرنا رئيس الوزراء في الرسالة ، فان الملوك والملكات لا يعينوا بمرسوم ملكي ، وسوف نسعى على الدوام لأن نكون مقبولين من قبل الأسرة الوحيدة التي تهمنا - شعب الأردن .

ثمة أمر يتعلق بالأردن - وهو أنك تستطيع الاطمئنان الى أن الشمس ستشرق في يوم زفافك . ولم يكن الامر مختلفاً بالنسبة لنا ، كنا نأمل ، أنا ومنى ، بزفاف هادىء ، ورغم معرفتنا أن الزفاف سيتم ضمن اطار خاص ، فليس في وسعنا إبعاد الصحافة عن المراسم العامة لحفل الزفاف .

يا له من يوم رائع! لم أشهد قط هذا الفرح في شوارع عمان ، ربما الاّ بعد عودتي من المأزق مع طائرات الميغ السورية . لكن الوضع الآن مختلف ، كان فرحاً نابعاً من الأمل . كان الجميع يطلقون رصاص البنادق والمسدسات في الهواء ، وموسيقى القرب تصدح بحبور ، ومع كل ما حُشّد من جنود في عمان ، كان من المستحيل منع الحشود من شق طريقهم الى السيارة المكشوفة التي كنا نتجول بها في شوارع عمان .

الزفاف نفسه كان مختصراً وبسيطاً ، وفقاً للشريعة الاسلامية . أجريناه في قصر أمي الذي يقع وسط بستان هادىء مليء بالورود ، ومداخله محروسة بحرس من الشراكسة . أجرى مراسيم الزواج الشيخ حمزه العربي قاضي القضاة الشرعيين ، والذي كان أول من علمني الدين الاسلامي . حسب العادة لم تكن العروس ترتدي ثوب العرس ، بل ثوباً ازرق بسيطاً من الكتان تغطي أكمامه ثلاثة أرباع الذراعين ، ووشاح شفاف على رأسها . وارتديت انا بذلة رمادية وجلست على رأس منضدة منخفضة تستخدم لتناول القهوة ومنى الى يساري .

تلى قاضي القضاة بعض آيات من القرآن قبل أن يسألنا إن كنا نوافق على الزواج ، أجبنا كلانا : «نعم» ، وضعت خاتماً ذهبياً بسيطاً في إصبع يد عروسي اليسرى ، ثم أعطيتها خاتماً مشابهاً وضعته في إصبع يدي اليسرى . ثم وقع كلانا خمس نسخ من عقد الزواج ، وقع عليه شاهدان ، أخي الاصغر وخالي . قبّلنا بعضنا وقال الحضور : «مبروك» . حضر العقيد غاردنر الحفل مرتدياً بزته العسكرية ، لكن الحاضرين كانوا قلائل . شعرنا أن شعب الأردن كان لطيفاً ومتفهماً لعدم دعوة أحد سوى بعض الشخصيات البارزة . لكن رغم أن قلة من الناس حضرت مراسيم الزواج ، فقد حضر الكثيرون حفل الاستقبال الذي جرى فيما بعد .

في أثناء عقد مراسيم الزواج القانونية ، كان الضيوف الذكور . الذين حضروا الى قصر زهران ، يتجمعون في القاعات الثلاث في الطابق السفلي ، يرشفون شراب العرس التقليدي المصنوع من بتلات الورد والماء ويقبضون على علب الفرح المصنوعة من الصدف والمملوءة بالسكاكر .

حين انتهى حفلنا الخاص ، غيرنا ملابسنا ، وعكسنا بذلك اجراءات الزواج المسيحية ، حيث تقوم العروس بلبس ملابس الخروج عند انتهاء العرس . ارتديت بزتي الرسمية البيضاء ، ولبست مني ثوب العرس الابيض مع طرحة ، جرى تفصيلها لها في لندن ، وحملت باقة من براعم البرتقال .

كان مئات الضيوف قد تجمعوا في الطابق السفلي . اختلطت بهم وتلقيت تهنئتهم . في تلك الأثناء حضر المزيد من السيارات مع الضيوف من النساء وأفراد العائلة كان يجري اصطحابهم الى قاعة واسعة حين حضرنا ، انا وزوجتي ، حفل شاي أَعدت لها والدتي .

لم نستطع شبك ايدينا بعضها ببعض إلا بعد انتهاء حفلة الاستقبال . اصطف الشراكسة من الحرس الملكي بثيابهم الفضفاضة السود وقبعاتهم المصنوعة من الصوف الاسود المجعّد ، وأحذيتهم الطويلة وسيوفهم الفضية حين نزلنا الادراج لمواجهة كاميرات التلفزيون العالمية ، والمصورين والصحفيين .

مضى على زواجنا الآن بضعة أشهر . ولم نتمتع بشهر عسل حتى كتابة هذا الكتاب ،لأن مشاغل الدولة ربطتني في مكتبي ، لكننا استقرّينا . حققت زوجتي تقدماً ممتازاً في تعلم العربية ، وبدأت في الاطلاع بدور أكبر في نشاطات البلد الاجتماعية .

نحيا حياة هادئة في بيتنا الريفي الصغير في الحُمّر ، أطلقنا عليه اسم «دارة الخير» . ويبعد نحو عشرة أميال عن عمان ، أقيم في مكان البيت القديم ذي الطابق الواحد الذي كنت استريح فيه يوم قتل رئيس وزرائي في العام ١٩٦٠ ، واليوم الذي سبق محاولة اغتيالي بواسطة الأسيد .

هذا المبنى المنخفض المكون من طابقين من الحجر الابيض هو المكان المناسب لنا . فهو يحمل كل ما أؤمن به فعلاً . أعرف أن عليّ تحمل القصور والاستقبالات الكبيرة ، لكن القصور ليست ملكاً لي بل للحكومة . أما «دارة الخير» فهي لنا . حين أعود كل مساء ، أشعر للمرة الأولى في حياتي أنه بيت حقيقي .

يشتمل البيت الآن على اربع غرف للنوم وصالتين . الغرف بسيطة لكنها حسنة

التهوية ، والأثاث عصري ومريح من دون بهرجة . ونتطلع الى إقامة مسبح صغير قريباً في باحة الحديقة ، وهو في الحقيقة بيت رجل عادي يكدّ في عمله . ليس فيه شيء من حب المظاهر والتباهي ، ويقوم خادمان على إدارته بسهولة . لدينا طبّاخ ، لكن زوجتي تشغل نفسها بالمطبخ بحيث أننا قليلاً ما نحتاج لمساعدته ، وهي تقوم بإعداد طعام الافطار مرة كل يومين – مكون من البيض او المقانق ، والقهوة والخبز الحمص والمربى ، وأقوم أنا بإعداده في الايام الاخرى! ولدى زوجتي قائمة طويلة من الاطباق تستعد لتجربتها عليّ في المستقبل القريب .

في بعض الأحيان نتنزه على ظهور الخيل صباحاً ، وفي أحيان أخرى نقيم حفلة صغيرة غير رسمية ، او نتوجه بالسيارة الى عمان لتناول العشاء مع العائلة ، او نحضر فيلماً سينمائياً مع بعض الاصدقاء في القصر . ولدينا سباق الكارتنغ نمارسه كل يوم جمعة . وفي باقي الأيام اكدّ في العمل مثلي مثل زوجتي . في بعض الايام اتمكن من تناول طعام الغذاء في البيت حيث أن لديّ مهبطاً لطائرة الهيلوكبتر في الحديقة ، ومهبطاً آخر في قصري ، بحيث يمكنني أن اطير عائداً الى القصر خلال خمس دقائق .

يقع بيتنا على قمة تلة تطل على واحد من اجمل المناظر . وكان والدي قد ترك لي مساحة واسعة من الارض بعد وفاته ، وقبل عدة سنوات ، قررت أن ليس في وسعي زراعتها كلها ، وأن ثمة أناساً آخرين بحاجة الى ارض مروية ، فتخليت عن معظمها ، واحتفظت بقطعة صغيرة أقمت عليها ما آمل أن يصبح في المستقبل مزرعة نموذجية . حولي رفاقي من أبناء الريف يحرثون الارض فأشعر انني واحد منهم ايضاً ، حين أنهض صباح كل يوم وأذهب الى عملي .

الآن امتلأ كأس سعادتي وفاض بمولد ابننا ، الذي اسميته الأمير عبدالله إحياءً لذكرى جدّي ، وهذا لم يعطِ العرش الأردني وريثاً مباشراً وحسب ، بل كان من وجهة نظري البحتة ، أروع حدث عشته في حياتي . لم نتوقع أن نُرزق بطفل بهذه السرعة . في إحدى الليالي أيقظتني منى وقالت إنها تشعر بتوعك . ومثل جميع الازواج المقبلين على الابوة ، تجمدت من الخوف! ارتديت أول ما وقعت عليه يدي من ملابس ، وهرعت نازلاً

الدرج ، وأعددت السيارة ، وقدتها بمنى الى المستشفى . بعد فترة وجيزة وُلد إبني .

على الفور أُعلن ذلك اليوم عطلةً رسميةً في الأردن ، وفي ذلك اليوم قدت السيارة عائداً لزيارة زوجتي وسط شوارع مزدحمة بالناس ، وجدت صعوبة في شق طريقي من خلالهم . كل عربي حق يحب أن يُرزق بإبن ، وها أنا الآن اصبح لدي إبن ، اضافة الى إبنة جميلة ، ولا يمكن للمرء أن يطلب من الحياة اكثر من ذلك .

عليّ أن اقول إني استمتعت في اليوم التالي لمولد ابني عبدالله . فمن ضمن سيل الزوار الذين أتوا لتهنئتي رجل إنجليزي ، سألني بنبرة قلقة للغاية : «سيدي ، هل سترسلونه للدراسة في هارو؟» أعتقد انني سأفعل .

حين أشكر الله على السعادة التي أسبغها علينا ، أدعوه بعظيم حكمته أن يمنحنا جميعاً - زوجتي ، وأنا ، وعائلتي - طول العمر لنعمل لخير الارض التي نحبها كثيراً ، وأن نثبت لأنفسنا أننا جديرون بالانتساب الى العائلة الهاشمية .

المحتـــويات



جدي الملك عبدالله . أثناء دخول الجيوش العربية الى فلسطين



وظهر حماسي للسيارات السريعة باكراً



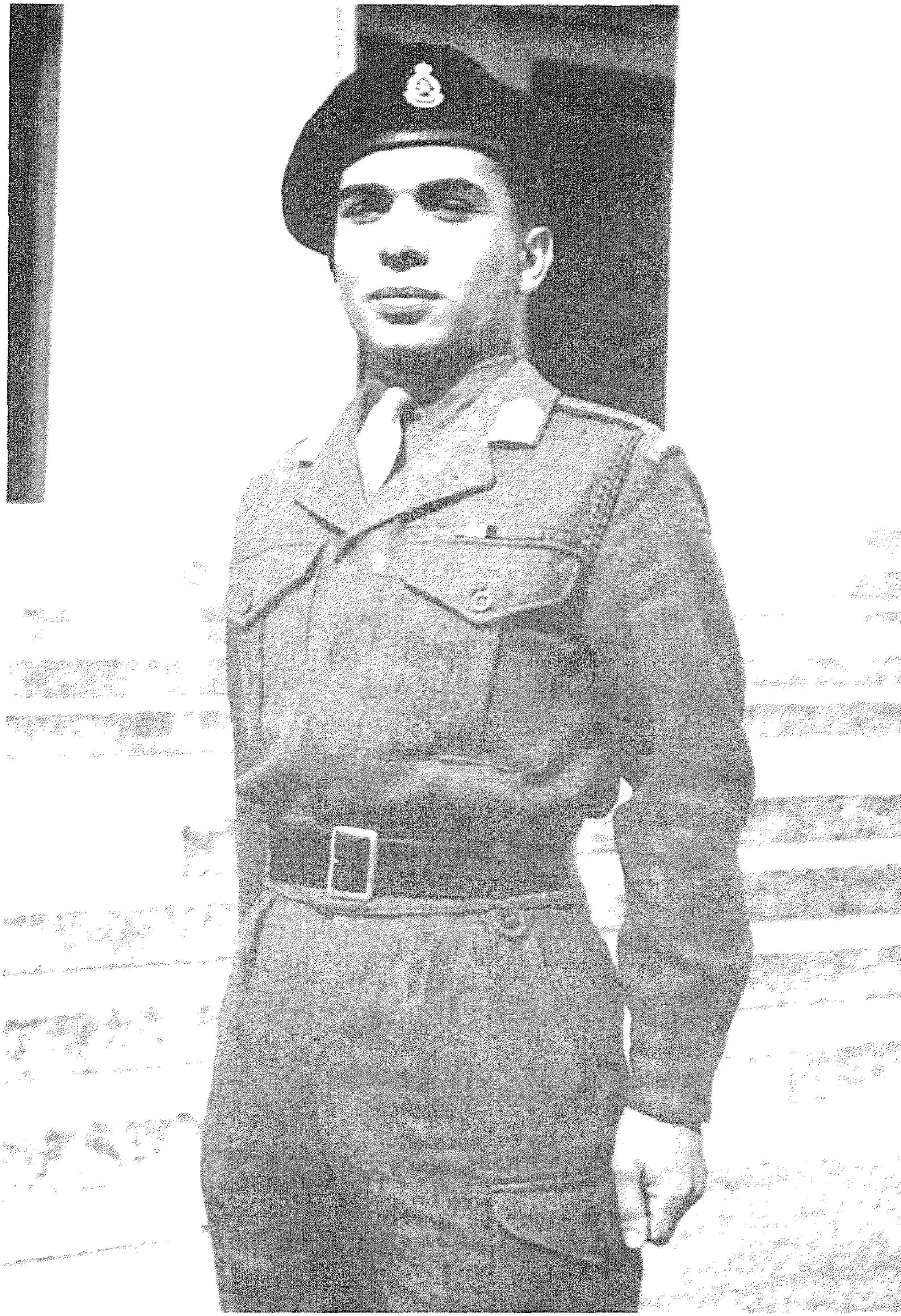
مع والدتي



اول طائرة اشتريتها بمالي الخاص



والدي الملك السابق طلال



في اتم الإستعداد لإستعراض التخرج

لقائي بالرئيس ناصر في الأردن

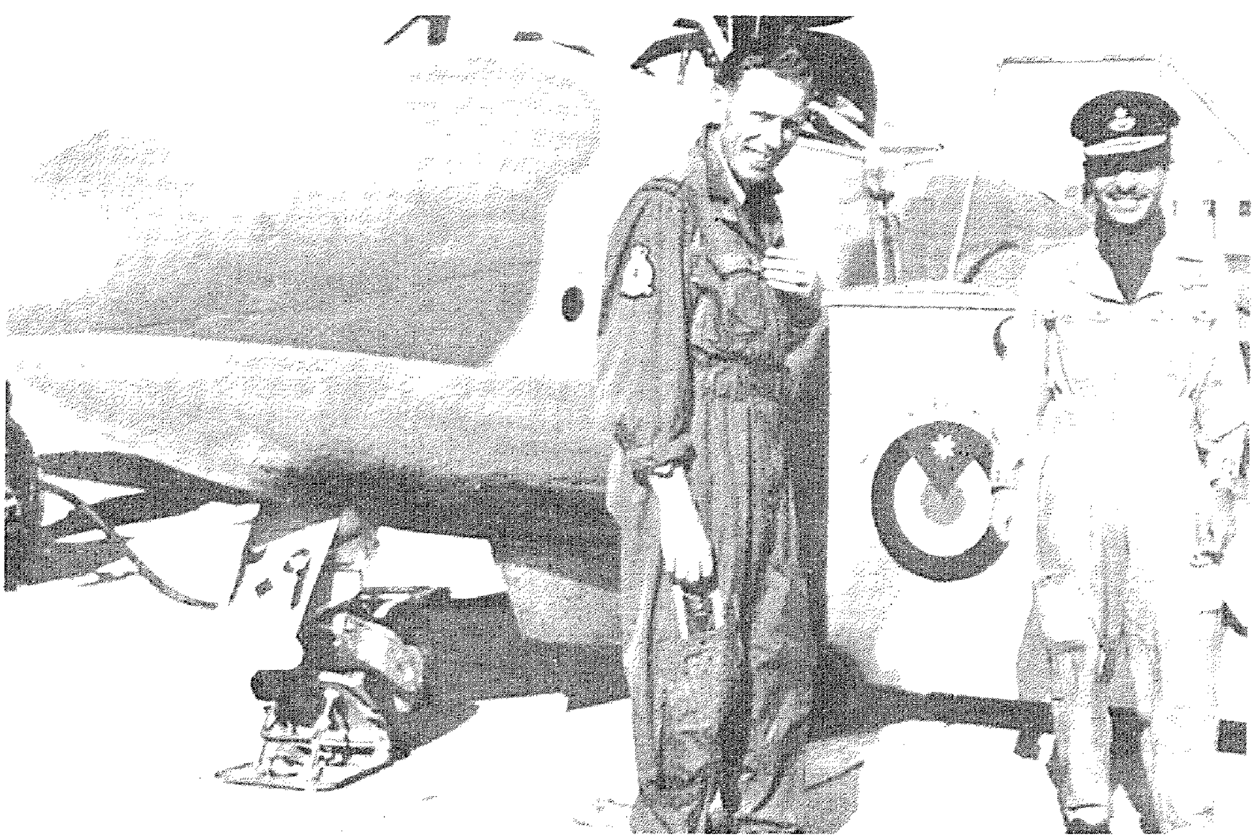


زيارة الملك السابق فيصل والملك سعود لإجراء محادثات



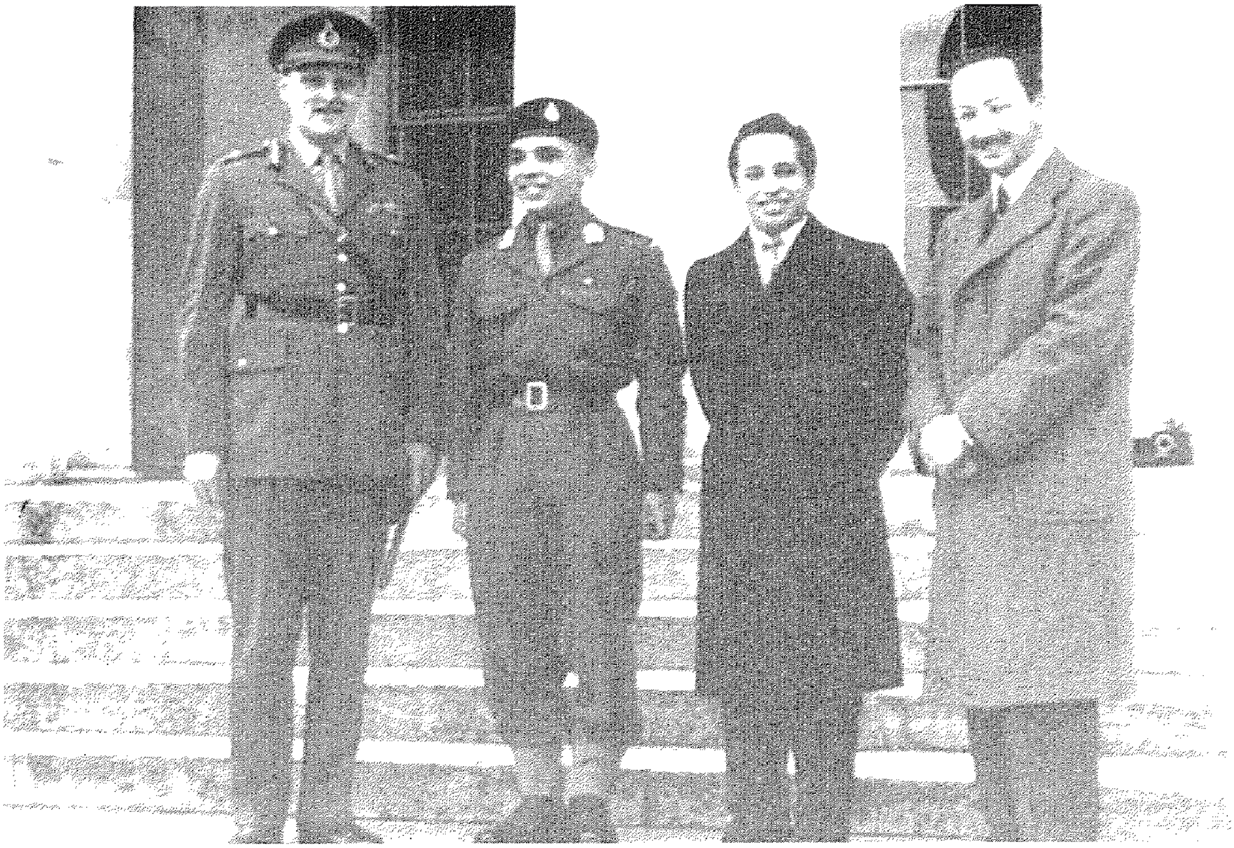


شخصان خدموا الأردن كثيراً .ويجلس بجانبي موريس رايز - مدير المدرجات الملكية - الذي التقيته لأول مرة في هارو . ويظهر في لباس الطيران قائد الجناح جوك دالجليش الذي علمني قيادة الطائرة .





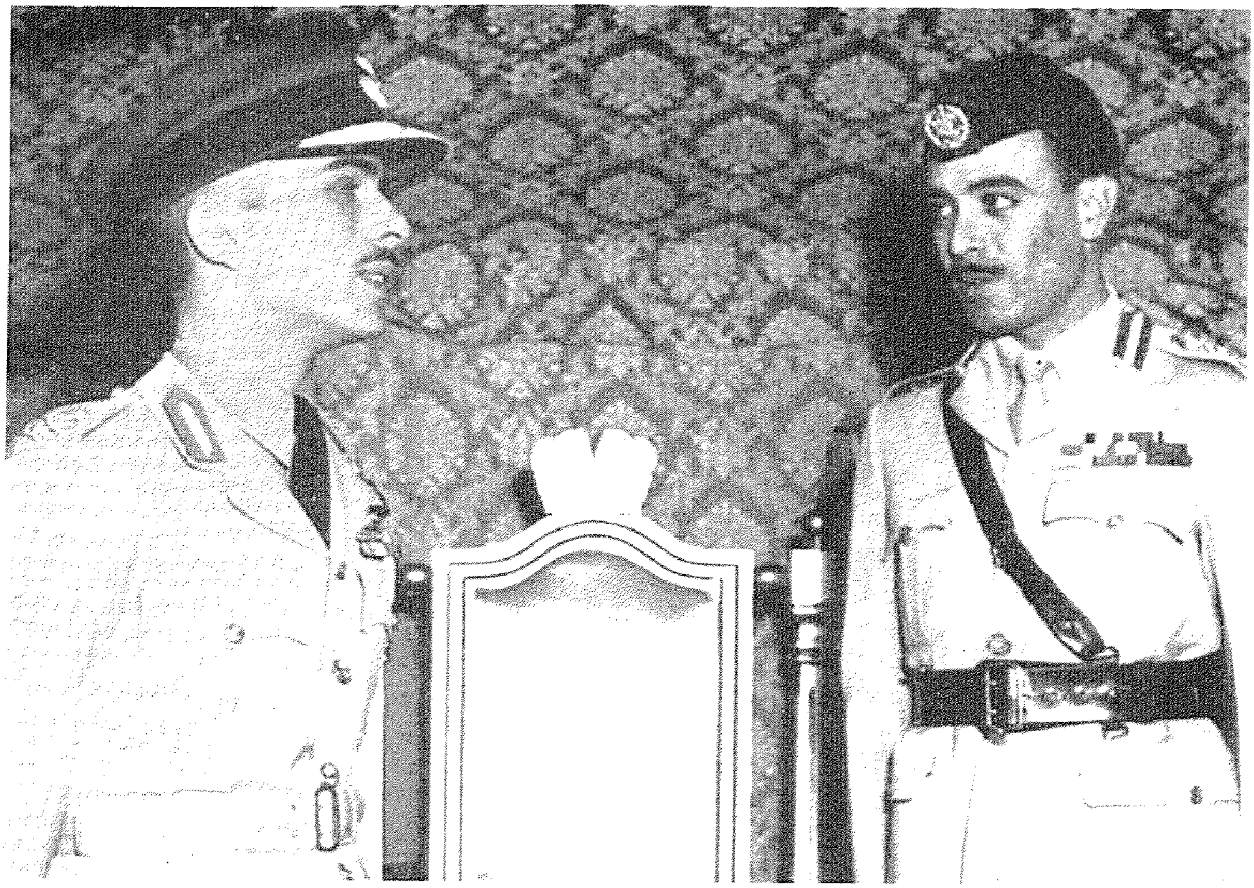
في هارو عام ١٩٥١م



ويظهر في هذه الصورة التي اخذت عند زيارتنا (ساند هارست) ولحق بها عراك ، ابن عمي والملك السابق فيصل وعمه الوصي على العرش



وفي (ساند هارست) اصبحت ماهراً في الرماية



متحدثاً الى الجنرال علي ابو نوار الذي كان صديقاً والذي خطط لقتلي



واحد من اهم رجالات الأردن تعصباً للوطن ومن أعز اصدقائي ، رئيس الوزراء السابق هزاع مجالي الذي اغتيل بوحشية في انفجار عام ١٩٦٠م .



متفقداً « الوحدة العربية » مع غلوب باشا



احتفالات في يوم زفافنا في عمان



وأدفع بعربة زوجتي في سباق للسيارات الصغيرة

ليس سهلاً أن تكون ملكاً

سيرة ذاتية



لعل من أبرز ما تتميز به السيرة الذاتية للمغفور له جلالة الملك الحسين بن طلال، صدقها ووضوحها وجرأتها، وطابعها الأدبي الذي يضعها في مصاف الكثير من السيَر الذاتية التي كتبها أعلام الأدب والفكر في العالم، من حيث براعة الأسلوب والتركيز والحبكة والتشويق، وكأن كاتبها رجل تخطى سن الخمسين أو الستين، لا في بداية شبابه (٢٦ عاماً حينما كتبها). كما أنها – أي هذه السيرة – تكشف عن عمق ارتباط المغفور له الملك الحسين بالأردن – أرضاً وشعباً – وبأمته العربية، وحبّه وإيمانه العميق بالحريّة والديمقراطية ودفاعه المستميت عنهما مهما كلفه ذلك من ثمن. وهو في كل ذلك إنما كان يستلهم مواقف جدّه المؤسس المغفور له الملك عبدالله بن الحسين الذي استشهد بين يديه عند بوابة المسجد الأقصى في القدس عام ١٩٥١، وكذلك مبادئ الثورة العربية الكبرى.

إن عنوان هذه السيرة «ليس سهلاً أن تكون ملكاً» ينطوي على دلالة تختزل تجربة رجل عظيم عانى كثيراً من أجل بناء بلده، بما يمتلكه من شجاعة وحنكة وصبر وسماحة قلّ أن يتحلى بها زعيم دولةٍ في العصر الحديث. كما أن لهذا العنوان، على المستوى الفني والمستوى الانساني، بعداً شاعرياً، وكأنه عنوان لقصيدة أو رواية!

الأهلية للنشر والتوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمان / وسط البلد
خلف مطعم القدس / ص.ب ٧٧٧٢ - هاتف ٤٦٣٨٦٨٨
فاكس ٤٦٥٧٤٤٥ • منشورات العام ١٩٩٩ م
• الغلاف: زهير أبو شايب.